



الإمارات العربية المتحدة
وزارة التربية والتعليم

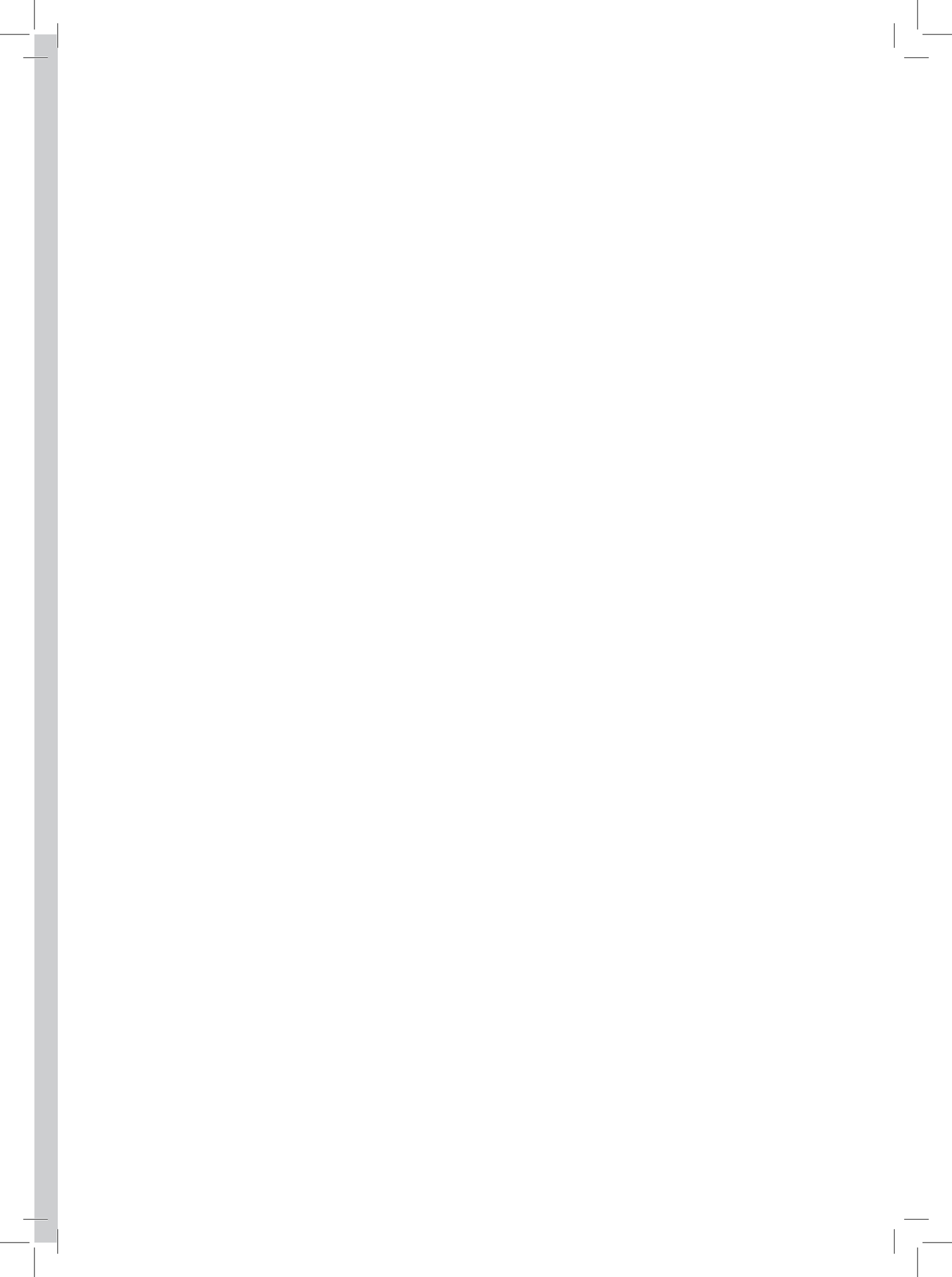
كتاب النصوص

الصف الحادي عشر

الطبعة الثانية 1438-1439 هـ / 2017-2018 م

حقوق الطبع محفوظة لوزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات العربية المتحدة

إدارة مناهج الصفوف العليا





صاحب السّمو الشّيخ خليفة بن زايد آل نهيان
رئيس دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، حفظه الله

”يجب التزوّد بالعلوم الحديثة والمعارف الواسعة، والإقبال عليها
بروح عالية ورغبة صادقة؛ حتى تتمكّن دولة الإمارات خلال
الألفيّة الثالثة من تحقيق نقلة حضاريّة واسعة.“

من أقوال صاحب السّمو الشّيخ خليفة بن زايد آل نهيان



دلالات ألوان علم دولة الإمارات العربية المتحدة

استلهمت ألوان العلم من البيت الشهير للشاعر صفي الدين الحلي:

بيض صنائعنا خضر مرابعنا
سود وقائعنا حمر مواضينا

يرمز إلى النماء والازدهار والبيئة الخضراء، والنهضة الحضارية في الدولة.



يرمز إلى عمل الخير والعطاء، ومنهج الدولة لدعم الأمن والسلام في العالم.



يرمز إلى تضحيات الجيل السابق لتأسيس الاتحاد، وتضحيات شهداء الوطن لحماية ممتلكاته ومكتسباته.



يرمز إلى قوة أبناء الدولة ومنعتهم وشذتهم، ورفض الظلم والتطزف.



رؤية دولة الإمارات العربية المتحدة 2021

1. متحدون في المسؤولية

- الإماراتي الواثق المسؤول.
- الأسر المتماسكة المزدهرة.
- الضلات الاجتماعية القوية والحيوية.
- ثقافة غنية وناطقة.

2. متحدون في المصير

- الماضي على خطى الآباء المؤسسين.
- أمن وسلامة الوطن.
- تعزيز مكانة الإمارات في الساحة الدولية.

3. متحدون في المعرفة

- الطاقات الكامنة لرأس المال البشري المواطن.
- اقتصاد متنوع مستدام.
- اقتصاد معرفي عالي الإنتاجية.

4. متحدون في الرخاء

- حياة صحية مديدة.
- نظام تعليمي من الطراز الأول.
- أسلوب حياة متكامل.
- حماية البيئة.



«يجب أن يكون الكتابُ فأسًا للبحرِ المتجمّدِ فينا»
(كافكا)

عزيزي الطالب،

هذا كتابٌ صُمِّمَ ليكون رفيقًا لك وصديقًا؛ ستجد فيه النصوص المقرّرة في كتاب الأنشطة اللغوية، ونصوصًا أخرى رديفة، في كلّ فنٍّ من فنون القول: القرآن الكريم، والحديث الشريف، والنصوص الأدبية، ونصوص الرّأي، والنصوص المعلوماتية. وهو دعوةٌ منّا لتكون القراءة طقسًا من طقوس حياتك اليومية، تجد لها متسعًا من الوقت، فتخلو فيه بكتابٍ تقرأه بحريّة، وتبحر في عوالمه بهدوء وسلام.

إنّ التحرّر من نمط الحياة المقيّدة بالدروس المقرّرة والاختبارات إلى الحياة المفتحة على الثقافة والمعرفة بكلّ أشكالها وألوانها هو الذي سيمنحك أدوات نجاح راسخة وممتدة ومتنامية وهو الذي سينير بصيرتك لترى الحياة أكبر بكثير من مجرد مدرسة وصفٍّ ودرس. إنّنا نحثك على أن تجعل للقراءة في هذا الكتاب وكتبٍ أخرى وقتًا تقتطعه من يومك، ولو كان قصيرًا، ونشجّعك على أن تجعل لقراءتك في هذا الكتاب والكتب الأخرى صدى في حياتك، فتحدّث عنها مع أصدقائك وعائلتك، وتكتب عنها على صفحاتك الشخصية في مواقع التواصل الاجتماعي؛ فكلُّ هذا سيُسهمُ إسهامًا ملموسًا في بناء شخصيتك، وتعزيز ثقتك بنفسك، وتزويدك بمفاتيح النجاح الدائم المستمر.

عزيزي الطالب،

إنَّ القراءة، وقراءة الأدب على وجه الخصوص، تساعد المرء على أن يكون أكثر فهمًا للحياة والناس، وأوسع أفقًا، وإنَّ هذا النوع من القراءة هو الذي يجعل الإنسان أكثر تواضعًا وتسامحًا وذكاءً. إنَّ كلَّ قصة أو رواية تقرأها هي بمثابة بوابة تُفتح لك لتُبصِّر الحياة بتفاصيلها الصغيرة، تلك التي قد لا ننتبه لها ونحن نمارس واجباتنا اليومية، ونغدو ونروح مع الغادين والرائحين. إنَّ هذه البوابة هي التي تجعلك تستقرّ في قلوب الكثيرين من الناس، أولئك الذين تُكتب عنهم القصص، وتحكي حكاياتهم الروايات، فتعرف ما لم تكن تعرف، وتدرّك ما لم يكن خطر لك على بال.

عزيزي الطالب،

إنَّ قراءة الأدب تشبه الدخول في مرآة سحرية كبيرة، تكشف لك وجوها لا نهاية لها للحياة، لفعل الزمان في الإنسان، وللإنسان في ضعفه وقوّته، في صدقه وكذبه، في عزّه وذلّه، في أنانيّته وظلمه، في رفته وقسوته في أحزانه وأفراحه، وآلامه وأحلامه. وكلما انفتح كتاب بين يديّ قارئ في مكانٍ ما، في زمانٍ ما، استطالت مرآة سحرية أمامه ليرى ما لم يكن يرى، ويكشف ما كان سيقبى محجوبًا للأبد لولا لحظة تبصّر قادته إلى أن يمسك بين يديه قصة أو رواية ستجعلُه بعد أن يقلب الصفّحة الأخيرة فيها يزداد يقينًا أنَّ الخلود لا يكون إلا للخير والحق والجمال.

نرجو لك رحلة ممتعة ومفيدة مع اللغة العربية.

الفهرس

- 13 * القرآن الكريم والحديث الشريف
- 15 « القرآن الكريم
- 17 « أحاديث شريفة
- 19 * النصوص الأدبية
- 21 - الشعر
- 23 « الشعر الجاهلي
- 29 ◇ قال المثقب العبدى
- 30 ◇ قال امرؤ القيس
- 31 ◇ قال زهير بن أبي سلمى
- 32 ◇ قال المهلهل يرثي أخاه كليباً
- 33 « الشعر في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي
- 38 ◇ قال مالك بن الرب التميمي
- 39 ◇ قال عبدالله بن الدمينه
- 40 ◇ قال كثير عزة
- 41 « الشعر في العصر العباسي
- 45 ◇ أراك عصي الدمع - أبو فراس الحمداني
- 46 ◇ قال المتنبي
- 47 ◇ قال صالح بن عبدالقدوس

ملاحظة:

النصوص المعالجة في كتاب (التطبيقات اللغوية) تجد عناوينها مظللة باللون الرمادي.

- 51..... « الشَّعْرُ الْعَرَبِيُّ الْحَدِيثُ
- 55..... ◊ الطَّيْنُ - إيليا أبو ماضي
- 56..... ◊ سامحيني هديل - غازي القصيبي
- 57..... ◊ خمسُ رسائل إلى أُمِّي - نزار قبّاني
- 61..... ◊ جبل - عمر أبي ريشة
- 62..... ◊ فِكْرٌ بغيرِكَ - محمود درويش
- 63..... « الحركة الشَّعْرِيَّةُ فِي دَوْلَةِ الْإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ
- 67..... ◊ إلى أُمِّي - صاحبُ السُّمُوِّ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ رَاشِدٍ آلِ مَكْتُومٍ
- 69..... ◊ سيرة وطن - شيخة المطيري
- 70..... « شِعْرٌ عَالَمِيٌّ
- 73..... - الْقِصَّةُ الْقَصِيرَةُ
- 75..... « الْقِصَّةُ الْقَصِيرَةُ
- 79..... ◊ حادثة - نجيب محفوظ
- 86..... ◊ نظارةٌ طبيَّةٌ لسائقٍ باكستانيٍّ عجوزٍ - مريم الساعدي
- 92..... ◊ حتَّى آخِرِ رَمَقٍ - عائشة الزعابي
- 99..... ◊ غِطاءُ الْفَراشِ - للكاتبِ الْإنْجِلِيزِيّ / جورج برنارد شو
- 105..... ◊ صُورٌ خَارِجَ الْإِطارِ - ابتسامُ الْمُعَلَّا
- 109..... ◊ ورقة من الرملة - غسان كنفاني
- 113..... ◊ لؤلؤ في الطريق - غسان كنفاني
- 119..... ◊ الصَّغِيرُ يذهبُ إلى المَخِيْمِ - غسان كنفاني
- 126..... ◊ الزوار - يوسف إدريس
- 131..... ◊ الحرب والجوع - الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ الْعَلَايِلِي
- 132..... ◊ نامي لستيقظ الدمع ويحكي - عبد العزيز الفارسي
- 137..... ◊ الناسك الحكيم - للكاتبِ الرُّوسِي (ليو تولستوي)
- 142..... ◊ المغفلة - للكاتبِ الرُّوسِي (أنطوان تشيخوف)

145	◊ ضيوف في الليل - (توماس هاردي)
149	- أدب السير والرحلات
151	« السيرة الأدبية »
154	◊ يوم العيد - سرُّ الذات، سلطانُ بن محمد القاسمي
156	◊ دارنا الدمشقية - نزار قباني
159	◊ قلم زينب - أمير تاج السر
164	◊ ألسنة النار تتكلم - محمد عبيد غباش
167	◊ لغات العالم نجوم تتلألأ - (رسول حمزاتوف)
170	◊ أمي - (مارك توين)
172	◊ الدراسة في الجامعة - (هيلين كيلر)
179	* نصوص الرأي
181	- المقالات
183	« المقالة »
186	◊ الاستهتار برهان السأم - سلامة موسى
188	◊ نريدُها عادةً لا صرعةً - عوض بن حاسوم الدرمكي
191	◊ الحلاق المثقف - ياسر حارب
193	◊ لماذا نثق أنفسنا؟ - سلامة موسى
195	◊ الاقتدار الإنساني وبنائه
198	◊ أيُّ الناس أسعد؟ وكيف تحصل على السعادة؟
200	◊ المعنى السياسي في العيد - مصطفى صادق الرافعي
203	- الأعمدة الصحفية
205	« العمود الصحفي »
207	◊ صديقي الهاتف! - عائشة سلطان
209	◊ الشباب سفراء الإمارات - ميساء غدير

- 211..... ◇ يوجعني نصف الإنسان - صالحه عبيد
- 213..... ◇ المسؤولية المجتمعية - سامي قرقاش
- 216..... ◇ قل (لا) واستمتع - شهد العبدولي

* النصوص المعلوماتية

- 219..... « النصوص المعلوماتية
- 221..... ◇ لغات العالم مرايا الناس
- 224..... ◇ خضن الطبيعة
- 227..... ◇ كيف نحيا بلا بلاستيك؟
- 233..... ◇ المشي .. آثار إيجابية على الحالة الصحية - الدكتور أكمل عبد الحكيم
- 236..... ◇ أتريدون تحسين مزاجكم؟ البستنة قد تكون الحل الأنسب والأوفر - باميلا كسرواني
- 239..... ◇ الروبوتات.. هل تجعل الحياة أسهل - مدى خالد
- 243..... ◇ صناعة المستقبل - حازم البيلوي
- 246.....

A decorative rectangular box with a light gray background and a subtle, repeating geometric pattern of interlocking stars and polygons. The text is centered within this box.

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَالْحَدِيثُ الشَّرِيفُ

القرآن الكريم

قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

(سورة النور)

﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهمُ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِ بِرَنَها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَيِّجُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَفَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرِجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾﴾

(سورة النور)

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَانت أَكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

(سورة البقرة)

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ

﴿٢٧﴾﴾

(سورة إبراهيم)

أحاديث شريفة

حديث "مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر"

قال رسول الله ﷺ:

* «مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالا وعِلْماً، فهو يعمل به في ماله يُنْفِقُهُ في حقّه، ورجل آتاه الله عِلْماً ولم يُؤْتِه مالا فهو يقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل، قال ﷺ: فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالا ولم يُؤْتِه عِلْماً، فهو يخبِط فيه؛ يُنْفِقُهُ في غير حقّه، ورجل لم يُؤْتِه الله مالا ولا عِلْماً، فهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل، قال ﷺ: فهما في الوزر سواء».

(الترمذي وابن ماجه)

* «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات، ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً، ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر».

(صحيح الترمذي)

* «اللهم انفعني بما علّمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد لله رب العالمين».



النصوص الأدبية



الشعر



الشعر الجاهلي

الشعر الجاهلي هو الشعر العربي الذي قيل قبل الإسلام، وقد تميز العرب عن سواهم من الأمم الأخرى بصفاء القريحة وملاءمتهم بين بيئتهم وخيالهم وتأملهم، فكانوا أشعر الأمم. فالبادية بيئة الشعر الجاهلي، ولذلك كان الشعر مرآة لهذه الحياة البدوية القاسية الخشنة، يصف الأطلال والديار والانتجاع والظعن والفلاة والحيوان والمعارك وآبار المياه.

لقد كان الشعر ديوان حُكم العرب وعلومهم، وسجل وقائعهم وسيرهم، ومادة حوارهم، يرتجلونه؛ ليعبروا عما يختلج في صدورهم من عواطف وهموم. والشعر الجاهلي شعر غنائي ذاتي يصور نفسية الشاعر وأحاسيسه، سواء أكان يتغزل أم يفخر أم يمدح أم يهجو أم يرثي أم يعاتب أم يعتذر أم يصف. لقد كان الشعر يُنشد إنشادًا أو يُغنى غناءً، فالغناء كان أساس تعلم الشعر ومن أساليب التعبير عنه. يقول الشاعر حسان بن ثابت:

تَغَنَّ بالشعر إِمَّا كُنْتَ قَائِلُهُ إِنْ الْغَنَاءَ لِهَذَا الشَّعْرِ مَضْمَارُ

وتظهر موسيقى الغناء في وزن القصيدة وحرف رويها (قافيتها) الموحد؛ فإن كان حرف الروي (القافية) في القصيدة (الباء) تسمى القصيدة (بائية)، وإن كان حرف الروي في القصيدة (الدال) تسمى القصيدة (دالية)، وإن كان حرف الروي في القصيدة (نونًا) تسمى القصيدة (نونية)، كما تظهر الموسيقى في التصريع في مطلع القصيدة، والتصريع هو اتفاق آخر جزء من صدر البيت وآخر جزء من عجزه في الوزن والتقفية، كقول علقمة بن عبدة التميمي:

طحباك قلبٌ في الحسان طروبُ بُعِيدَ الشَّبابِ عَصَرَ حَانَ مَشِيبُ

وتظهر الموسيقى أيضًا في التقطيع الصوتي للأبيات، كقول امرئ القيس في معلقته يصف فرسه:

مَكْرَرٌ، مَفَرٌّ، مُقْبِلٌ، مُدْبِرٌ، مَعَا كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّهَ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

وقد تبوأ الشاعر الجاهلي مكانة مرموقة في عصره فكان لسان قبيلته، كما لعبت الأسواق الموسمية الكبرى دوراً مهماً في التعريف بالشعراء ونقل أشعارهم بين القبائل الأخرى. فالأسواق لم تكن للبيع والشراء فحسب، بل كانت -أيضاً- للخطابة والشعر، ومن أهم هذه الأسواق: سوق عكاظ، وهي سوق في صحراء بين نخلة والطائف شرق مكة، وكانت تستمر عشرين يوماً، وسوق ذي المجاز قرب يَبْنَع، وَيَنْبَعُ تُغَرُّ مدينة الرسول ﷺ، وسوق ذي المجنة قرب مكة.

ويذهب المؤرخون إلى أن النابغة الذبياني كان من المحكِّمين، تقام له في هذه الأسواق قُبَّة، يذهب إليها الشعراء؛ ليعرضوا شعرهم عليه، فمن أشاد به ذاع صيته وتناقلت شعره الركبان.

والشعر الجاهلي شعر مروي، لم يُدَوَّن إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة، وهذا ما يفسر ضياع أغلبه. فالكثير من رواته ذهبت بهم حروب الفتح، وأوفر هذه القصائد حظاً من الحفظ هي المعلقات أو المذهبات، وقد عدَّت المعلقات من أفضل ما وصلنا من العصر الجاهلي. ويزعم أغلب المؤرخين أنها سبع قصائد اختارتها العرب فكتبتها بماء الذهب، ثم علَّقَها على الكعبة إعجاباً بها، وأصحابها هم: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، وطرفة بن العبد، وليبد بن ربيعة، وعنترة بن شداد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة.

وتتناول القصيدة الجاهلية مجموعة من الموضوعات والعواطف المختلفة في بناءٍ ينقسم إلى ثلاثة أقسام، إذ يستهل الشاعر القسم الأول بالبكاء على الديار القديمة (الوقوف على الأطلال) التي رحل عنها، وترك فيها ذكرياته، وهو بكاء يُرَدُّ إلى شاعر سبق امرؤ القيس هو ابن خدام، كان أول من بكى على الأطلال، كما جاء في ديوان امرؤ القيس:

عوجا على الطلل المُحيل لَعَلْنَا نبكي الديار كما بكى ابن خِدام

والتَّغَزَّلُ بالمحوبة، أي التشبيب، وهو ينقسم إلى قسمين: غزل عفيف، يدور حول بثِّ الشوق واللوعة، وغزل حسي، يصف جمال المرأة: شعرها وعنقها وجبينها وعينها وأسنانها وطولها.. كما يصف ثيابها وزينتها وعفتها، ومن الغزل العفيف يمكن أن نستشهد بما قاله عنترة بن شداد في ابنة عمه عبلة:

سَأُضْمِرُ وَجدي في فؤادي وأُكْتِمُ وأسهرُ ليلي والعواذلُ نَوْمُ

وأطمعُ من دَهري بما لا أناله
وأرجو التداني منك يا ابنة مالك
فمني بطيف من خيالك واسألني
ولا تجزعي إن لَجَّ قَوْمُكَ في دمي
ألم تسمعي نوحَ الحمائم في الدجى
ولم يبق لي يا عبلَ شخصٍ معرّفُ
وتلك عِظامٌ بالياتٍ وأضلعُ
وإن عشتُ من بعد الفراق فما أنا
وإن نامَ جفني كان نومي علالةً
أحنُّ إلى تلك المنازلِ كلما
بكيْتُ من البين المُشتِّ وإنني

وألزمُ منه ذلَّ من ليس يرحمُ
ودونَ التداني نارُ حَرْبٍ تُضرمُ
إذا عادَ عني كيفَ باتَ المتيمُّ
فما لي بعدَ الهجرِ لحمٌ ولا دمُ
فمن بعض أشجاني ونوحٍ تعلّموا
سوى كبدٍ حرّى تذوبُ فأسقمُ
على جلدِها جيئش الصُّدودِ مخيمُ
كما أدّعي أني بعبلةٍ مُغرَمُ
أقولُ لعلَّ الطيفَ يأتي يسلمُ
غداً طائرٌ في أيكةٍ يترنمُ
صبورٌ على طعن القنالِ لو علمتم

ثمَّ ينتقل الشاعر إلى وصف طُغْنِها، أي ترحالها مع قبيلتها إلى مكان آخر بحثاً عن الماء والكلاء، كقول المثقّب العبدى في قصيدته:

أفاطم! قبل بينك متّعني
فلا تعدي مَواعِدَ كاذباتٍ
فإنّى لو تخالفني شمالي
إذا لَقَطَعْتُها ولَقُلْتُ: بيني
لِمَن ظُعنٌ تَطَلَّعَ من ضيّبٍ
يُشبّهنَ السّفينَ وهنَّ بختُ
وهنَّ على الرّجائزِ وإكناتُ
كغزلانٍ خذلنَ بذاتِ ضالٍ

ومنعك ما سألتكِ أن تبينى
تمر بها رياحُ الصيفِ دوني
خلافكِ ما وصلتُ بها يميني
كذلك أجتوى من يجتويني
فما خرّجت من الوادي لِحِينِ
عُرَاضاتِ الأباهرِ والشُّؤُونِ
قَوَاتِلُ كُلِّ أَشْجَعِ مُسْتَكِينِ
تنوشُ الدّانياتِ من الغصونِ

والقسم الثاني هو الرحلة، يصف فيه الشاعر رحلته ووسيلة تنقله، وكل ما تقع عليه عيناه في الصحراء من حيوان وزواحف وطير، والمصاعب التي تعترضه، والفلاة التي يقطعها ليبين شجاعته وبأسه. يقول طرفة بن العبد واصفاً ناقته وسرعتها:

وَأِنِّي لَأُمْضِي الهمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ	بِعَوْجَاءٍ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَعْتَدِي
أُمُونٍ كَأَلْوَحِ الْإِرَانِ نَصَاتُهَا	عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجِدٍ
تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعَتْ	وَضِيفًا وَضِيفًا فَوْقَ مَوْرِ مُعَبَّدٍ
لَهَا فِخْذَانِ أَكْمَلَ النَّحْضُ فِيهِمَا	كَأَنَّهُمَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدٍ
وَطِيٌّ مَحَالٍ كَالْحَنِيِّ خُلُوفُهُ	وَأَجْرِنَةُ لَزَتْ بِدَائِي مُنْصَدِّ
كَأَنَّ كِنَاسِي ضَالَةٍ يَكْنِفَانِيهَا	وَأَطَرَ قِيسِي تَحْتَ صُلْبٍ مُؤَيَّدٍ
لَهَا مِرْفَقَانِ أَفْتَلَانِ كَأَنَّهُمَا	تَمُرٌّ بِسَلَمِي دَالِجٍ مُتَشَدِّدٍ
كَفَنَظَرَةِ الرُّومِيِّ أَقْسَمَ رَبُّهَا	لَتُكْتَنِفَنَ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدٍ

والقسم الثالث هو الغرض الرئيس في القصيدة، وهو إما فخر أو مدح أو رثاء أو هجاء أو عتاب أو اعتذار أو حكمة.

فالفخر فخر بالقبيلة وبالنفس، وهو من مقومات الحياة القبليّة، يفخر فيه الشاعر بالنسب والشجاعة والكرم والإسراع إلى معونة الآخرين، كقول عنترة بن شداد:

لَا تَضْحَكِي مِنِّي عُيْلَةً وَاعْجَبِي	مِنِّي إِذَا التَفَّتْ عَلَيَّ جِيُوشُ
وَرَأَيْتِ رَمَحِي فِي الْقُلُوبِ مُحَكَّمًا	وَعَلَيْهِ مِنْ فَيْضِ الدِّمَاءِ نَقُوشُ
أَلْقَى صَدُورَ الْخَيْلِ وَهِيَ عَوَابِسُ	وَأَنَا صَحُوكُ نَحْوَهَا وَيُشُوشُ
إِنِّي أَنَا لَيْثُ الْعَرِينِ وَمَنْ لَهُ	قَلْبُ الْجَبَانِ مُحَيَّرٌ مَدْهُوشُ
إِنِّي لَأَعْجَبُ كَيْفَ يَنْظُرُ صُورَتِي	يَوْمَ الْقِتَالِ مَبَارَزٌ وَيَعِيشُ

والمدح هو ثناء على الممدوح وفضائله ومآثره، ويغلب على أهل البادية كما نرى ذلك عند امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى، ومدح للتكسب يغلب على أهل الحضر كما نرى

عند النابغة الذبياني والأعشى. يقول امرؤ القيس مادحاً بني تميم لما أجاروه:

كَأَنِّي إِذْ نَزَلْتُ عَلَى الْمُعَلَّى	نَزَلْتُ عَلَى الْبَوَاذِخِ مِنْ شَمَامٍ
فَمَا مَلِكُ الْعِرَاقِ عَلَى الْمُعَلَّى	بِمُقْتَدِرٍ وَلَا مَلِكُ الشَّامِ
أَقَرَّ حَشَا إِمْرِي الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ	بَنُو تَيْمٍ مَصَابِيحُ الظَّلَامِ

والرثاء هو مديح الميت، يصف فيه الشاعر الجاهلي المرثي بجميع الصفات التي يصف بها الممدوح، ومثال ذلك رثاء الخنساء لأخيها صخر:

بَكَتْ عَيْنِي، وَعَاوَدَهَا قَذَاهَا	بَعَوَّارٍ فَمَا تَقْضِي كَرَاهَا
عَلَى صَخْرٍ، وَأَيَّ فَتَى كَصَخْرٍ	إِذَا مَا النَّابُ لَمْ تَرَأْمِ طِلَاهَا
فَتَى الْفَتَيَانِ مَا بَلَغُوا مَدَاهُ	وَلَا يَكْدَى إِذَا بَلَغَتْ كُذَاهَا
حَلَفْتُ بَرَبِّ صَهْبٍ مَعِيلَاتٍ	إِلَى الْبَيْتِ الْمَحْرَمِ مَتْنَاهَا
لَنْ جَزَعْتُ بَنُو عَمْرٍو عَلَيْهِ	لَقَدْ رَزَّئْتُ بَنُو عَمْرٍو فَتَاهَا
لَهُ كَفٌّ يَشْدُبُهَا وَكَفٌّ	تَحَلَّبُ مَا يَجِفُّ ثَرَى نَدَاهَا
تَرَى الشُّمَّ الْجَحَاجِحَ مِنْ سُلَيْمٍ	يَبُلُّ نَدَى مَدَامِعِهَا لِحَاهَا
عَلَى رَجُلٍ كَرِيمٍ الْخَيْمِ أَضْحَى	بِبَطْنِ حَفِيرَةٍ صَخْبٍ صَدَاهَا

والهجاء عكس المدح يوصف فيه المهجوّ وقبيلته بضعة النسب والجبن والبخل.

يقول النابغة الذبياني هاجياً عامر بن الطفيل:

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا	فَإِنْ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ السَّبَابُ
فَكُنْ كَأَبِيكَ أَوْ كَأَبِي بَرَاءٍ	تَصَادَفَكَ الْحُكُومَةُ وَالصَّوَابُ
وَلَا تَذْهَبْ بِحِلْمِكَ طَامِيَاتُ	مِنْ الْخِيَلِ لَيْسَ لَهُنَّ بَابُ
وَإِنْكَ سَوْفَ تَحْلُمُ أَوْ تَنْهَى	إِذَا مَا شَبَتِ أَوْ شَابَ الْغَرَابُ

والحكمة، فهي قول موجز مشهور، يتضمن معنى مسلماً به، ويعبر عن خلاصة تجارب صاحبها في الحياة. يقول شاعر الحكمة زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ لَا يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ	يُضَرِّسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسِمٍ
وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَخْلُ بِفَضْلِهِ	عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَعْنَ عَنْهُ وَيُذَمِّمِ
وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ	يَفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

قال المثقب العبدی

لَا تَقُولَنَّ إِذَا مَا لَمْ تُرِدْ	أَنْ تُتِمَّ الْوَعْدَ فِي شَيْءٍ: نَعَمْ
حَسَنُ قَوْلٍ نَعَمْ مِنْ بَعْدِ لَا	وَقَبِيحُ قَوْلٍ لَا بَعْدَ نَعَمْ
إِنَّ لَا بَعْدَ نَعَمْ فَاحِشَةٌ	فَ«بِلا» فَأَبْدَأْ إِذَا خِفْتَ النَّدَمَ
فَإِذَا قُلْتَ نَعَمْ فَاصْبِرْ لَهَا	بِنَجَاحِ الْقَوْلِ؛ إِنَّ الْخُلْفَ دَمٌ
وَاعْلَمْ أَنَّ الدَّمَ نَقْصٌ لِلْفَتَى	وَمَتَى لَا يَتَّقِ الدَّمَ يُذَمُّ

قال امرؤ القيس

أفَاطِمُ، مهلاً، بعض هذا التدلُّلِ
أَغَرَّكَ مِنِّي أَنْ حُبَّكَ قَاتِلِي،
وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدُولَهُ
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجِلِي
فِيَاكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْوَاهُ
كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِقَتْ فِي مَصَامِهَا
وَقَدْ أَغْتَدِي، وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
مَكْرٌ مَفَرٌّ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَا

وَأِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْمَعْتُ صِرْمِي فَأَجْمَلِي
وَأَنَّكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلُ ؟
عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكُلِّكَ
بُصْبُحٍ، وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلُ شُدَّتْ يِدْبُلُ
بَأَمْرَاسٍ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلِ
بِمُنَجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ
كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

قال زهير بن أبي سلمى

فلا تَكْتُمَنَّ اللهَ ما في نفوسكم
يُؤَخَّرُ فيوضع في كتابٍ فيُدَّخَرُ
وما الحربُ إلا ما علمتُم وذقَّتُم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً
وأعلم علم اليوم والأمس قبله
رأيتُ المنايا خبطَ عشواءٍ مَنْ تُصَبُّ
وَمَنْ لم يُصانِعْ في أمورٍ كثيرةٍ
وَمَنْ يجعلُ المعروفَ من دونِ عِرضِهِ
وَمَنْ يكُ ذا فضلٍ فيخلُ بفضلهِ
وَمَنْ يوفٍ لا يُدَمِّمُ، ومن يُهدِّدَ قلبه
وَمَنْ هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ
وَمَنْ يجعلُ المعروفَ في غيرِ أهلهِ
وَمَنْ لم يَدُدْ عن حوضه بسلاحه
وَمَنْ يغترُّ بحسبِ عدوِّ صديقه
ومهما تكنَ عندَ امرئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ
وكائنُ ترى مِنْ صامتٍ لك معجبٍ
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفُ فؤاده
وإنَّ سفاهةَ الشيخ لا حُلْمَ بعده

ليخفي، ومهما يُكْتَمِ الله يعلم
ليوم الحساب أو يُعَجَّلُ فيُنْقَمِ
وما هو عنها بالحديث المرجم
وتَضَرَّ إذا ضَرَّيْتُموها فَتَضَرَمِ
ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي
ثُمْتُهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمِّرُ فيهم
يُضَرِّسُ بَأنيابٍ ويوطأ بمنسَمِ
يَفِرُّه ومن لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ
على قومه يُسْتَغْنِ عنه ويُدْمَمِ
إلى مطمئن البر لا يَتَجَمِّمِ
وإن يَرَقَّ أسبابَ السماءِ بِسَلَمِ
يكنُ حَمْدُهُ ذمًّا عليه ويندم
يُهدِّمُ ومن لا يظلم الناسَ يُظْلَمِ
ومن لا يُكْرِمُ نفسه لا يُكْرَمِ
وإن خالها تخفى على الناسِ تُعلم
زيادته أو نقصه في التكلّمِ
فلم يبقَ إلا صورة اللحم والدم
وإنَّ الفتى بعدَ السفاهةِ يحلم

قال المهلهل يرثي أخاه كليباً

أهَّاجَ قِذَاءَ الْعَيْنِ الْإِدْكَارُ	هدوءاً، فالدموعُ لها انحداؤُ
وَصَارَ اللَّيْلُ مَشْتِماً عَلَيْنَا	كأنَّ الليلَ ليسَ لهُ نهائُ
وَبِتُّ أَرَأِيبُ الْجُوزَاءِ حَتَّى	تَقَارَبَ مِنْ أَوَائِلِهَا انْحِدَاؤُ
أَقْلَبُ مُقْلَتِي فِي إِثْرِ قَوْمِ	تَبَايَنَتِ الْبِلَادُ بِهِمْ فَغَارُوا
دَعَوْتُكَ، يَا كَلِيبُ، فَلَمْ تُجِبْنِي	وَكَيْفَ يُجِيبُنِي الْبَلَدُ الْقِفَارُ؟
أَجِبْنِي، يَا كَلِيبُ، خَلَاكَ ذَمُّ	لَقَدْ فُجِعْتُ بِفَارِسِهَا نِزَاؤُ
وَأِنَّكَ كُنْتَ تَحْلُمُ عَنْ رِجَالِ	وَتَعْفُو عَنْهُمْ وَلَكَ اقْتِدَاؤُ
فَلَا تَبْعُدْ فَكُلُّ سَوْفَ يَلْقَى	شَعوباً يَسْتَدِيرُ بِهَا الْمَدَارُ
يَعِيشُ الْمَرْءُ عِنْدَ بَنِي أَبِيهِ	وَيُوشِكُ أَنْ يَصِيرَ بِحَيْثُ صَارُوا
كَأَنِّي إِذْ نَعَى النَّاعِي كُليباً	تَطَايَرَ بَيْنَ جَنْبَيَّ الشَّرَارُ

الشعر في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي

ظَلَّ الشعر في عهد الرسول ﷺ جاهلياً في شكله¹، ف شعر طبقة المُخضرمين التي عاشت في الجاهلية، وأدركت الإسلام ككعب بن زهير، والحطيئة، ومعن بن أوس، والنابعة الجعدي استمراؤ للمذهب الجاهلي، ولم يتأثر شعرها بالإسلام إلا في بعض موضوعاته. وبعد أن دانت قريش وسائر العرب للدين الجديد قلَّ الهجاء المقذع والمدح المبالغ فيه والغزل الصريح والفخر بالخمير وبالثأر؛ لأن الرسول ﷺ نهى عن الشعر الذي يثير الأحقاد والعصبيات، أو يشجّع على ارتكاب الفاحشة.

وقد انتهج الخلفاء الراشدون نهج الرسول ﷺ؛ فقد روي أن الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- حبس الشاعر الحطيئة حين أقذع في هجائه للزبرقان بن بدر، ولما طلب منه الحطيئة العفو؛ لأن حبسه حال دون الاهتمام بأولاده، عفا عنه، وخلى سبيله على ألا يهجو أحداً من المسلمين. يقول الحطيئة:

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَحٍ	زُعْبِ الحَوَاصِلِ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرُ
عَيَّتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلَمَةٍ	فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَاعُمُرُ
أَنْتَ الْأَمِينُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ	أَلْقَتْ إِلَيْكَ مَقَالِيدَ النُّهَى الْبَشَرُ

وكثر الرثاء للشهداء، والتمدح بالإسلام، فظهر فن شعري جديد، يسمّى البديعيات، وهي قصائد نظمت في مديح الرسول الكريم ﷺ. ومن رواد هذا الفن الشاعر حسان بن ثابت الملقب بشاعر الرسول ﷺ، كان يمدحه، ويردّ عنه هجاء المشركين، من أمثال: عبد الله بن الزبيري، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وقد كثرت في شعره التعابير الإسلامية والاقْتباس من القرآن الكريم، يقول حسان بن ثابت في إحدى بديعياته:

أَغَرُّ، عَلَيْهِ لِلنُّبُوءَةِ خَاتَمٌ مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ، وَيُشْهَدُ

(1) - راجع عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي: الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، ط 4، (بيروت: دار العلم للملايين، 1981)

- راجع أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ط 8 (بيروت: دار المعرفة، 2004)

وَضَمَّ إِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَهُ
نَبِيُّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفَتْرَةٍ
فَأَمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا
وَأَنْذَرَنَا نَارًا، وَبَشَرَ جَنَّةً
إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ، وَهَذَا مُحَمَّدٌ
مِنَ الرُّسُلِ، وَالْأَوْتَانُ فِي الْأَرْضِ تَعْبُدُ
يَلُوحُ كَمَا لَاحَ الصَّقِيلُ الْمُهْنَدُ
وَعَلَّمَنَا الْإِسْلَامَ، فَاللَّهُ نَحْمَدُ

كما اشتهر كعب بن زهير بلاميته «بانت سعاد» التي أعلن فيها إسلامه، وطلب فيها رضا الرسول ﷺ وعفوه، فعفا عنه الرسول ﷺ وأهداهُ برَدَّتُهُ، فما زالت في أهله حتى اشتراها معاويةُ منهم، وتوارثها الخلفاءُ الأمويون فالبُعَاسِيُّونَ حتى آلت مع الخلافةِ إلى بني عُثْمَانَ. يقول كعب بن زهير:

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ
فَقُلْتُ خَلَّوْا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ
كُلُّ ابْنِ أُنْتَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ
أُنَبِّئُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي
مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ
لَا تَأْخُذَنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ
لَا أُلْهِينَكَ إِنِّي عَنْكَ مَسْغُولُ
فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ
وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِظٌ وَنَفْصِيلُ
أُذْنِبُ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلُ

أمَّا في العصر الأموي فقد عادت بعض أغراض الشعر التي نهى عنها الرسول ﷺ - كالنقائض - وهي قصيدة «يردُّ بها شاعرٌ على قصيدةٍ لخصمٍ له فينقضُ معانيها عليه، يقلبُ فخرَ خصمه هجاءً، وينسبُ الفخرَ الصحيحَ إلى نفسه هو». وتكونُ النقيضةُ عادةً من بحرِ قصيدةِ الخصم، وعلى رويها، وقد ارتبطت هذه النقائضُ بالصراعاتِ السياسيةِ بين الأحزابِ المتنازعةِ على الخلافةِ ومناصريها، فكانت وقودَ العصبيةِ، ولسانِ هذه الأحزابِ، يفتخرُ الشاعرُ فيها بنفسه وبقومه وبفضائلهم، كالكرم والشجاعة والوفاء بالعهد، والانتصار في الحروب التي خاضوها، والدفاع عن العرض، ثم ينقبُ عن مثالبِ خصمه وقومه من بخلٍ وجبنٍ وفسقٍ وبغيٍ وطُغيانٍ، ومن أشهر شعراء هذا الفن جريرٌ، والأخطلُ، والفرزدقُ،

وقد وقف كل من الأخطل والفرزدق وغيرهم ضد جرير لكن جرير تمكن من التصدي لهم وإكمام أفواه بعضهم.

يقول الفرزدق في جرير وفي والده عطية البائس الهاجع في حظائر الأغنام، كما يصفه:

قال ابن صانعة الزروب لقومه:	لا أستطيع رواسي الأعلام
ووجدت قومك فقاؤا من لؤمهم	عينك، عند مكارم الأقوام
صغرت دلاؤهم، فما ملأوا بها	حوضاً، ولا شهدوا عراك زحام
وحسبت بحر بني كليب مضدراً	فغرقت حين وقعت في القمقام
في حومة غمرت أباك بخورها	في الجاهلية كان، والإسلام
إني وجدت أبي بني لي بيته	في دوحة الرؤساء والحكام
وأبي ابن صغصة بن كيلي غالب	غلب الملوك، ورهطه أعمامي
وترى عطية ضارباً بفنائه	ربقين بين حظائر الأغنام

فيرد جرير ناقصاً قصيدة الفرزدق بأخرى:

خلق الفرزدق سوءاً في مالك	ولخلف ضبة كان شرراً غلام
مهلاً فرزدق! إن قومك فيهم	خور القلوب وخفة الأحلام
كان العنان على أهلك محرماً	والكبر كان عليه غير حرام
عمداً أعرف بالهوان مجاشعاً	إن اللئام علي غير كرام
ما زلت تسعى في خبالك سادراً	حتى التبت بعرتي وعرامي

بالإضافة إلى النقائض، ازدهر الغزل في العصر الأموي بعد أن هذب في عصر صدر الإسلام الأول، وبعد أن كان تشبيهاً بالديار، وبكاء على الأطلال، أصبح فناً مستقلاً بذاته، يُصور مشاعر الحب التي سكبها المجتمع الجديد في نفوس الشعراء. فبعد أن تحضرت مكة والمدينة، وغرقتا في البذخ والترف نتيجة الفتوحات الإسلامية، وجلب الرقيق الأجنبي، وتعليمه الغناء والموسيقى، رقيت الأذواق، فلان الغزل، ورق.

وانقسم الغزل إلى: غزل عُذريٍّ، وغزل صريح. والغزل العذريُّ نسبةٌ إلى رائده جميل بن معمر العذري (مجنون بشينة)، وهو غزلٌ عفيفٌ طاهرٌ نقيٌّ، من رواه: قيس بن الملوح (مجنون ليلي)، وقيس بن ذريح (مجنون لبنى)، وكثير عزة (مجنون عزة)، وذو الرمة (مجنون مية)، وعروة بن حزام (مجنون عفراء)، وتوبة بن الحمير (مجنون ليلي الأخيلية). فالشاعر العذري يقصر حبه وشعره على معشوقة واحدة، يرى فيها سعادته وشقاءه، لا يني يتغنى بها مُتذللًا مُتضرعًا يصوِّر فيها كلفه وعذابه وحبه الذي لا يتغير مع مرور الزمن. يقول جميل في بشينة:

لا تحسبي أنني هجرتكِ طائعا	حدث، لعمرك، رائعٌ أن تُهجري
ولتبكييني الباكيات، وإن أبخ	يوماً، بسرِّكِ مُعلنًا، لم أعذر
يهواكِ - ما عشتُ - الفؤاد، فإن أمت	يتبع صداي صدك بين الأقبر
إني إليك، بما وعدت، لناظر	نظرَ الفقير إلى الغني المكثر

ويقول قيس بن ذريح في لبنى:

وإني لأهوى النّوم في غير حينه	لعلّ لقاء في المنام يكون
تحدثني الأحلام أنني أراكم	فيا ليت أحلام المنام يقين
وأنّ فؤادي لا يلين إلى هوى	سواك، وإن قالوا بلى سيلين

ومن رواد الغزل الصريح (الإباحي الحسي) عمر بن أبي ربيعة، والأحوص، والعرجي، ولا يلتزم فيه الشاعر بحب امرأة واحدة، بل يتبع الجمال أينما كان، فيتغزل بأكثر من امرأة، ويصف مفاتها ومغامراته معها، وقد يصف مجموعة من النساء. وقد روي أن عمر بن ربيعة كان يتعرض للحواج، فيشيب بالحرائر الجميلات، ويصفهن طائفات محرّمات، فزهدت الأسر في أداء الفريضة خشية منه، مما جعل الخليفة عمر بن عبد العزيز ينفيه إلى (دهلك) إحدى جزر البحر الأحمر بين بلاد اليمن والحبشة، ولم يعد إلا بعد أن أقسم أن يتوب. يقول في إحدى قصائده:

يقصدُ النَّاسُ للطَّوافِ احتساباً وذنوبي مجموعةٌ في الطَّوافِ

وفي قصيدة اشتهرت له يصور انشغال ثلاث أخوات به، فيقول:

بَيْنَمَا يَذْكُرُنِي أَبْصَرْنِي دُونَ قَيْدِ الْمَيْلِ يَعْدُو بِي الْأَعْرُ
قَالَتِ الْكُبْرَى أَتَعْرِفْنَ الْفَتَى قَالَتِ الْوُسْطَى نَعَمْ هَذَا عُمَرُ
قَالَتِ الصُّغْرَى وَقَدْ تَسَيَّمْتُهَا قَدْ عَرَفْنَاهُ، وَهَلْ يَخْفَى الْقَمَرُ

فهو يُجري على لسان محبوباته قصصاً يتكرها، فتغلب لغة الحوار القصصي على قصائده.

قال مالكُ بنُ الرِّيبِ التَّميميُّ

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً
فَلَيْتَ الْغَضَى لَمْ يَقْطَعْ الرِّكْبُ عَرْضَهُ
لَقَدْ كَانَ فِي أَهْلِ الْغَضَى لَوْ دَنَا الْغَضَى
أَلَمْ تَرْنِي بَعْتُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى
لَعَمْرِي لَيْتَنِي غَالَتْ خُرَاسَانُ هَامَتِي
فَإِنْ أَنْجُ مِنْ بَابِي خُرَاسَانَ لَا أَعُدُّ
تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ
وَلَمَّا تَرَاءْتُ عِنْدَ مَرَوْ مَنِيَّتِي
أَقُولُ لِأَصْحَابِي ازْفَعُونِي فَإِنِّي
فِيَا صَاحِبِي رَحَلِي دَنَا الْمَوْتُ فَانْزِلَا
أَقِيمَا عَلَيَّ الْيَوْمَ أَوْ بَعْضَ لَيْلَةٍ
وَقُومَا إِذَا مَا اسْتُلِّ رُوحِي فَهَيِّئَا
وَحُطَّاءَ بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ مَضْجَعِي
وَلَا تَحْسُدَانِي بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا
خُذَانِي فَجَرَّانِي بِبُرْدِي إِلَيْكُمَا
يَقُولُونَ لَا تُبْعِدْ وَهُمْ يَدْفِنُونِي
فَيَارَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغْنِ
وَبَلَّغْ أَخِي عِمْرَانَ بُرْدِي وَمِزْرِي
وَسَلِّمْ عَلَى شَيْخِي مَنِّي كِلَيْهِمَا
وَعَطِّلْ قَلُوصِي فِي الرِّكَابِ فَإِنَّهَا

بَجَنْبِ الْغَضَى أَرْجِي الْفِلَاصَ النَّوَاجِيَا
وَلَيْتَ الْغَضَى مَاشَى الرِّكَابَ لِيَالِيَا
مَزَارٌ وَلَكِنَّ الْغَضَى لَيْسَ دَانِيَا
وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَفَّانَ غَازِيَا
لَقَدْ كُنْتُ عَنْ بَابِي خُرَاسَانَ نَائِيَا
إِلَيْهَا، وَإِنْ مَنَيْتُمُونِي الْأَمَانِيَا
سِوَى السَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ بَاكِ يَا
وَحَلَّ بِهَا جِسْمِي وَحَانَتْ وَفَاتِيَا
يَقْرُؤُ بَعَيْنِي أَنْ سُهَيْلٌ بَدَا لِيَا
بِرَابِيَةِ إِنْسِي مُقِيمٌ لِيَالِيَا
وَلَا تُعْجِلَانِي قَدْ تَبَيَّنَ مَا بِيَا
لِي الْقَبْرِ وَالْأَكْفَانِ ثُمَّ ابْكِيَا لِيَا
وَرُدَّاءَ عَلَى عَيْنِي فَضْلَ رِدَائِيَا
مِنَ الْأَرْضِ ذَاتِ الْعَرَضِ أَنْ تُوسِعَا لِيَا
فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ صَعْبًا قِيَادِيَا
وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا
بَنِي مَالِكٍ وَالرَّيْبِ: أَنْ لَا تَلْقَا
وَبَلَّغْ عَجُوزَ الْيَوْمِ أَنْ لَا تَدَانِيَا
وَبَلَّغْ كَثِيرًا وَابْنَ عَمِّي وَخَالِيَا
سَتُفْلِقُ أَكْبَادًا وَتُبْكِي بَوَاكِيَا

قال عبدالله بن الدمينه

ألا يا صبا نجدمتى هجت من نجد؟
أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى
بكيت كما يبكي الوليد ولم أزل
وقد زعموا أن المحب إذا دنا يملّ،
على فن غصّ النبات من الرند
وأبديت الذي لم تكن تبدي
وأنّ النأي يشفي من الوجد
على أن قرب الدار خير من البعد
إذا كان من تهواه ليس بذي ودّ
بكلّ تداوينا، فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار ليس بنافع

قال كُثَيِّر عَزَّة

وما كُنتُ أدري قَبْلَ عَزَّةَ ما البُكا
وكانت لِقَطْعِ الحُبِّ بيني وبينها
فَقُلْتُ لها: يا عَزُّ، كُلُّ مُصِيبَةٍ
كَأَنِّي أَنادي صَخْرَةً حينَ أَعْرَضْتُ
فما أَنْصَفْتُ، أَمَّا النساءُ فَبَغَضْتُ
أَسِيئِي بنا أو أَحْسِنِي، لا مَلُومَةٌ
فما أنا بالدَّاعي لِعَزَّةَ بالجوى
فلا يحسبِ الواشونَ أَنَّ صَبابتي
فواللَّهِ ثُمَّ اللَّهُ ما حَلَّ قَبْلَها
وَإِنِّي وَتَهيامي بعَزَّةَ بعدما
لَكَالْمُرْتَجِي ظِلَّ الغمامَةِ، كَلِّما
فإن سَأَلَ الواشونَ: فيمَ هَجَرْتِها؟
ولا مَوَجَّعاتُ القلبِ حتى تَوَلَّيتُ
كناذِرَةَ نَذراً فَأَوْفَتْ وَحَلَّتِ
إِذا وَطَّنتُ -يوماً- لَها النَفْسُ ذَلَّتِ
من الصَّمِّ لو تَمَشَّى بِها العُصْمُ زَلَّتِ
إِلَيَّ، وَأَمَّا بالنِّوالِ فَضَنَّتِ
لدينا، ولا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتِ
ولا شامِتٌ إِنْ نَعُلُ عَزَّةَ زَلَّتِ
بعَزَّةَ كانت غَمْرَةً فَتَجَلَّتِ
ولا بَعْدَها من خُلَّةٍ حيثُ حَلَّتِ
تَخَلَّيْتُ مِمَّا بَيْننا وَتَخَلَّتِ
تَبَوَّأَ مِنْها لِلْمَقِيلِ اضمَحَلَّتِ
فَقُلْتُ: نَفْسُ حُرٍّ سُلِّيَتْ فَتَسَلَّتِ

الشعر في العصر العباسي

يبدأ العصر العباسي بسقوط الدولة الأموية في الشام سنة 132 هـ/ 749 م، وقيام دولة بني العباس في الكوفة (العراق)، وينتهي سياسياً بسقوط بغداد في يد (هولاكو) التتري سنة 656 هـ/ 1258 م.¹

ويعد عصر الدولة العباسية عصر الإسلام الذهبي الذي بلغت فيه الدولة الإسلامية أوج ازدهارها الفكري، فنُقلت العلوم الأجنبية، وتنوعت الآداب العربية وتطورت. وخلافاً للدولة الأموية التي كانت عربية خالصة متعصبة للعرب لغةً وأدباً، قاعدتها دمشق على حدود بادية العرب، اصطبغت الدولة العباسية بصبغة فارسية؛ لأن الفُرس هم الذين أيدوها، فجعلت قاعدتها بغداد أقرب الأمصار إلى بلادهم. فتأثر العرب بعادات الفرس وتقاليدهم ولغتهم، وتمازجوا معهم بالتزاوج والتناسل، وأشرك الخلفاء الموالي (المسلمين من غير العرب) في سياسة الدولة من فُرسٍ وأتراك وسريان وروم وبربر فضعفت العصية، وتعددت الفرق، وتكاثر الجوّاري والغلمان، والتأنق في الطعام واللباس، والتنافس في البناء والتشييد، كل هذا كان له أثر بيّن في اللغة العربية وآدابها.

وكثر التّعرب (التشبه بالعرب) بين الموالي، وبلغ من إعجابهم بالعرب أنهم كانوا يلقون لأنفسهم أنساباً عربية، فأبو تمام الرومي أصبح حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس... وأصبح الشعراء المسلمون من الفرس والترك والروم ينظمون الشعر بالعربية وفي المقابل تطبع العرب بطباع غير عربية فانغمسوا في الترف والبذخ ومساوئ المدنية كاللّهو. كما كان للمدينة محاسن أيضاً من استبحار في العلم واتساع للعمران وانفتاح على ثقافات أخرى.

ونتيجة اتساع رقعة الخلافة الجغرافية والاحتكاك بثقافات أخرى عرّبت الكثير من الكلمات الأجنبية التي لم يجد العرب لها في لغتهم ألفاظاً تؤديها فأصبحت «أنذزاه» الفارسية «هندسة» و «كليما» اليونانية «إقليم» وأوجدت ألفاظ عربية لكلمات نحو «أبازميا» و «اسطقس» و «أسطرونوميا» هي «الوباء، والعنصر، والهيئة أو الفلك». وبقيت الكثير من

(1) - راجع أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ط 8 (بيروت: دار المعرفة، 2004)
- راجع عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي: العصور العباسية حتى القرن الرابع هجري، ط 4 (بيروت)، دار العلم للملايين، (1981)

الكلمات على لفظها الأجنبي مثل «قانون» و «استرلاب» و «كاغد» و «جغرافية» و «موسيقى»، وتسمى ألقاظاً دخيلة لأن العجمة ظلت ظاهرة عليها.

وسمي الشعر العباسي شعراً مؤلّداً لأن أكثر الشعراء مؤلّدين (من أبوين أحدهما عربي والآخر غير عربي) ولأن الشعر لم يكن عربياً خالصاً في معانيه وأسلوبه كما سمي شعراً مُحدثاً لأن الشعراء كانوا جُددًا أو متأخرين.

تأثر الشعر بالحياة الحضريّة الجديدة مبنًى ومعنى وغرضاً ووزناً. فعلى مستوى المبنى، هُجرت الكلمات الغريبة فأصبحت التراكيب واضحة سهلة، وكثر استخدام البديع وترك الابتداء بذكر الأطلال إلى وصف القصور والرياض والخمور والغزل والإغراق في المدح والهجاء. يقول البحتري واصفاً قصر الخليفة المتوكل:

وكأنّ حيطان الزجاج بجوّه	لُججٌ يمجن على جنوب سواحل
فترى العيون يجلن في ذي روثٍ	متلّهبٍ العالِي أنيق السافل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه	نوراً يضيء على الظلام الحافل

أمّا على مستوى المعنى، فقد تولدت المعاني الحضريّة، واقتبست الأفكار الفلسفية؛ إذ أكثر شعراء هذا العصر من المؤلّدين، وهذا يعلّل وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار بن برد وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي. وكان لنقل العرب علوم اليونان وغيرهم تأثير في شعر أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء المعري وغيرهم بما دخله من آراء علمية وأفكار فلسفية وسياسية.

أمّا أغراض الشّعّر فقد بقيت، واستمرت؛ فالفخر والمديح والغزل والرثاء والحكمة والوصف والزهد أغراضٌ قديمةٌ منذ العصر الجاهلي، إلا أن الفخر القبلي القديم تضاعف، وحلّ محله الفخر بالنفس.

يقول أبو الطيب المتنبي:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي	وبنفي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضّا	د وعوذ الجاني وعوث الطريد

إِنْ أَكُنْ مُعْجَبًا فَعُجِبْ عَجِيبٍ لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدٍ
أَنَا تَرَبُّبُ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِي وَسِمَامُ الْعِدَى وَغَيْظُ الْحَسُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ

كما انتشرت في المديح معاني الشجاعة والكرم وشرف الأصل، وأضيفت إليه المقدرة في لعب الشطرنج مثلاً، كما نرى ذلك عند ابن الرومي عندما يخاطب صاحبه أبا القاسم التوزي الشطرنجي الذي نبغ في لعب الشطرنج:

وَأَرَى أَنَّ رُقْعَةَ الْأَدَمِ الْأَحْزَ مَرِ أَرْضٍ عَلَلْتَهَا بِدِمَاءِ
غَلِطَ النَّاسُ لَسْتُ تَلْعَبُ بِالشُّطِّ رَنْجٍ لَكِنْ بَأَنْفَسِ اللَّعْبَاءِ
أَنْتَ جَدِيهَا وَغَيْرُكَ مَنْ يَدُ عَبُّ إِنَّ الرَّجَالَ غَيْرَ النِّسَاءِ
لَكَ مَكْرٌ يَدُبُّ فِي الْقَوْمِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ الْغِذَاءِ فِي الْأَعْضَاءِ
أَوْ دَبِيبِ الْمَلَالِ فِي مُسْتَهَامِي نَ إِلَى غَايَةِ مِنَ الْبَغْضَاءِ

ورق الاعتذار، واتسع فيه العتاب الرقيق الذي نراه عند البحترى في عتابه للوزير الفتح بن خاقان:

فَدَيْنَاكَ مِنْ أَيِّ خَطْبٍ عَرَا وَنَائِبَةٍ أَوْشَكْتَ أَنْ تَنْوَبَا
وَإِنْ كَانَ رَأْيُكَ قَدْ حَالَ فِي فَلَقَيْتَنِي بَعْدَ بَشْرِ قُطُوبَا
أَكْذَبُ ظَنِّي بَأَنْ قَدْ سَخِطَ تَ، وَمَا كُنْتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاخِطًا لَمْ أَكُنْ أَذُمَّ الزَّمَانَ، وَأَشْكُو الْخُطُوبَا

وكثر الزهد والحكمة، وأصبحا فنين يعالجهما مجموعة من الشعراء في قصائد أو مُقَطَّعات. يقول أبو العتاهية:

يَا أَيُّهَا الْحَيُّ الَّذِي هُوَ مَيِّتٌ أَفْنَيْتُ عُمْرَكَ بِالتَّعَلُّلِ وَالْمُنَى

أَمَّا الْمَشِيبُ فَقَدْ كَسَاكَ رِدَاؤُهُ وَابْتَرَّ عَنْ كَفِّكَ أَثْوَابَ الصَّبَا
خَالَفَ هَوَاكَ إِذَا دَعَاكَ لِرَبِيبَةٍ فَكُرِبَ خَيْرٍ فِي مُخَالَفَةِ الْهَوَى
عَلَّمَ الْمَحَجَّةَ بَيْنَ لِمُرِيدِهِ وَأَرَى الْقُلُوبَ عَنِ الْمَحَجَّةِ فِي عَمَى
وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِهَالِكٍ وَنَجَاتِهِ مَوْجُودَةً وَلَقَدْ عَجِبْتُ لِمَنْ نَجَا

وأصبح الطَّرْدُ (وصف الصيد) باباً مستقلاً بذاته، ولم يقتصر على الصيد فقط، بل تناول كل ما يتعلق بالحيوان، حتى وصف «قتال الديكة»، يقول أبو نواس واصفاً كلب صيد له اسمه (سرياح):

مَا الْبَرْقُ فِي ذِي عَارِضٍ لَمَّاحٍ وَلَا انْقِضَاضُ الْكَوَكِبِ الْمُتَضَاعِ
وَلَا انْبِثَاتُ الدُّلُوبِ بِالْمَتَّاحِ وَلَا انْسِيَابُ الْحَوَاطِ الْمُنْدَاحِ
حِينَ دَنَا مِنْ رَاحَةِ الْمِشَاحِ أَجَدُّ فِي السَّرْعَةِ مِنْ سِرْيَاحِ
يَكَادُ عِنْدَ تَمَلُّ الْمِرَاحِ يَطِيرُ فِي الْجَوِّ بِلا جِنَاحِ
إِذَا سَمَا الْخَايِلُ لِلْأَشْبَاحِ يَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ شَبَا الرِّمَاحِ

وأما على مستوى الوزن، فقد ابتدعت أوزان أخرى، كالمستطيل والممتد، وهما عكس الطويل والمديد، والموشَّح والزَّجل، والدوبيت والمواليا، ونُظمت المُقَطَّعات (أبيات معدودة في أغراض محدودة).

ولما انفرط عقد الخلافة، وكثرت الدويلات العربية وغير العربية، باستقلال الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب، وجد الشعر في غير بغداد تشجيعاً، فازداد ابتكاراً وانتشاراً، فالأمراء مثل الخلفاء يُقَرَّبون الشعراء، ويعضدونهم.

وما إن انتهى القرن الخامس للهجرة حتى ذهب جمال الشعر، وفقد تأثيره في النفوس لذهاب المعضدين له من البويهيين والسلاجقة وكثرة الفتن والصراعات، فغاب التوليد والإبداع، وكثر تقليد معاني الأقدمين واستخدام المحسنات البديعية والمبالغة في المدح للتكسب واستدرازاً للأكف حتى قيل: «أعذب الشعر أكذبه».

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ أَبُو فِرَاسِ الحَمْدَانِي

(1) ما معنى أَرَاكَ هنا؟
هل هي رؤية العين؟
أم رؤية القلب
بمعنى أظنك؟

أَرَاكَ¹ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِمْتِكَ الصَّبْرُ
بَلَى، أَنَا مُشْتَاقٌ، وَعِنْدِي لَوَعَةٌ
إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطَتْ يَدَ الْهَوَى
تَكَادُ تُضِيءُ النَّارَ بَيْنَ جَوَانِحِي
مُعَلَّلَتِي³ بِالْوَصْلِ، وَالْمَوْتُ دُونَهُ⁴،
حَفِظْتُ وَضِيعَتِ الْمَوَدَّةِ بَيْنَنَا
وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا صَحَائِفُ
بِنَفْسِي مِنَ الْغَادِينَ فِي الْحَيِّ غَادَةٌ
وَفَيْتُ، وَفِي بَعْضِ الْوَفَاءِ مَدَلَّةٌ
تُسَائِلُنِي: «مَنْ أَنْتَ؟»، وَهِيَ عَلِيمَةٌ،
فَقُلْتُ، كَمَا شَاءَتْ، وَشَاءَ لَهَا الْهَوَى:
فَقُلْتُ لَهَا: «لَوْ شِئْتَ لَمْ تَتَعَتَّنِي،
فَقَالَتْ: «لَقَدْ أَرَى بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا»

(3) ما نوع المشتق
"مُعَلَّلَتِي"؟ وكيف
يؤثر هذا على
المعنى؟

أَمَّا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ؟
وَلَكِنْ مِثْلِي لَا يُذَاعُ لَهُ سِرٌّ!
وَأَذَلْتُ دَمْعًا مِنْ خَلَائِقِهِ الْكِبَرِ²
إِذَا هِيَ أَذَكَّتْهَا الصَّبَابَةُ وَالْفِكْرُ
إِذَا مِتُّ ظَمَانًا فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ!
وَأَحْسَنُ، مِنْ بَعْضِ الْوَفَاءِ لَكَ، الْعُذْرُ
لِأَحْرِفِهَا، مِنْ كَفِّ كَاتِبِهَا بِشْرُ
هَوَايَ لَهَا ذَنْبٌ، وَبَهَجَتْهَا عُذْرُ
لِأَنَسَةٍ فِي الْحَيِّ شِمْتُهَا⁵ الْغَدْرُ
وَهَلْ بَفَتِي مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نُكْرُ؟
«قَتِيلُكِ!» قَالَتْ: «أَيُّهُمْ؟ فَهَمْ كَثُرُ»
وَلَمْ تَسْأَلِي عَنِّي وَعِنْدَكَ بِي خُبْرُ
فَقُلْتُ: «مَعَاذَ اللَّهِ! بَلْ أَنْتِ لَا الدَّهْرُ»

(2) بِمِ وَصَفَ الشَّاعِرُ
دَمْعُهُ؟

هل تقع الصفة جملة؟

(4) الهاء في "دونه" تعود
على ماذا؟

(5) بِمِ وَصَفَ الْأَنَسَةَ؟
ما نوع الصفة؟

قال المتنبي

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً
 تمنيتها لما تمنيت أن ترى
 إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة
 ولا تستطيلن الرماح لغازة
 فما ينفع الأسد الحياء من الطوى
 حببتك، قلبي، قبل حبك من نأى
 وأعلم أن البين يشكيك بعده
 فإن دموع العين غدر برّبها
 إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى
 وللنفس أخلاق تدل على الفتى
 أقل اشتياقاً أيها القلب ربّما
 خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبي
 وحسب المنأى أن يكن أمانياً
 صديقاً فأعياً أو عدواً مُداجياً
 فلا تستعِدن الحسام اليمانياً
 ولا تستجیدن العتاق المذاكياً
 ولا تُتقى حتى تكون ضوارياً
 وقد كان غداراً فكن أنت وافياً
 فلست فؤادي إن رأيته شاكياً
 إذا كن إثر الغادرين جوارياً
 فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً
 أكان سخاء ما أتى أم تساخياً
 رأيته تُصفي الود من ليس صافياً
 لفارقت شبيبي موجع القلب باكياً

قال صالح بن عبدالقدوس

ذهب الشبابُ فماله من عودة
 دغ عنك ما قد كان في زمن الصبا
 واذكر مناقشة الحساب فإنه
 لم ينسه الملكان حين نسيته
 والروح فيك وديعة أودعتها
 وغرور دنياك التي تسعى لها
 والليل فاعلم والنهار كلاهما
 وجميع ما خلفته وجمعه
 تباً لدار لا يدوم نعيمها
 فاسمع هديت نصيحة أولاكها
 صحب الزمان وأهله مستبصراً
 لا تأمن الدهر الخؤون فإنه
 وعواقب الأيام في غصاتها
 فعليك تقوى الله فالزمها تفز
 واعمل بطاعته تنل منه الرضا
 واقنع ففي بعض القناعة راحة
 فإذا طمعت كسيت ثوب مذلة
 وابدأ عدوك بالتحية ولتكن
 واحذر إن لاقيته متبسماً

وأتى المشيب فأين منه المهرب
 واذكر ذنوبك وابكها يا مُذنب
 لا بدّ يُحصي ما جنيت ويكتب
 بل أثبتاه وأنت لاه تلعب
 ستردها بالرغم منك وتسلم
 دار حقيقة متاع يذهب
 أنفاسنا فيها تعد وتُحسب
 حقاً يقيناً بعد موتك يُنهب
 ومشيدها عمّا قليل يخرّب
 برّ نصوح للأنام مُجرب
 ورأى الأمور بما تؤوب وتُعقب
 ما زال قدماً للرجال يؤدّب
 مضض يذلّ له الأعزّ الأنجب
 إن التقي هو البهي الأهيّب
 إن المطيع له لديه مُقرب
 واليأس ممّا فات فهو المطلب
 فلقد كسي ثوب المذلة أشعب
 منه زمانك خائفاً ترقّب
 فاليث يبدو نابهُ إذ يغضب

إِنَّ الْعَدُوَّ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ
وَإِذَا الصَّدِيقُ لَقِيَتْهُ مُتَمَلِّقًا
لَا خَيْرَ فِي وَدِّ امْرِيٍّ مُتَمَلِّقٍ
يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَاثِقٌ
يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً
وَصِلِ الْكِرَامَ وَإِنْ رَمَوْكَ بِجَفْوَةٍ
وَاخْتَرِ قَرِينَكَ وَاصْطْنَعُهُ تَفَاخُرًا
وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْأَقَارِبِ كُلِّهِمْ
وَدَعْ الْكَذُوبَ فَلَا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا
وَزِنْ الْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ وَلَا تَكُنْ
وَاحْفَظْ لِسَانَكَ وَاحْتَرِزْ مِنْ لَفْظِهِ
وَالسِّرُّ فَاكْتَمَهُ وَلَا تَنْطُقْ بِهِ
وَكِذَاكَ سِرُّ الْمَرْءِ إِنْ لَمْ يُطَوِّه
لَا تَحْرِصَنَّ فَالْجِرْصُ لَيْسَ بِزَائِدٍ فِي الرِّزْقِ
وَيُظَلُّ مَلْهُوفًا يَرُومُ تَحِيًّا
كَمْ عَاجِزٍ فِي النَّاسِ يَأْتِي رِزْقُهُ
وَارِعَ الْأَمَانَةَ وَالْخِيَانَةَ فَاجْتَنِبْ
وَإِذَا أَصَابَكَ نَكْبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا
وَإِذَا رُمِيَ مِنَ الزَّمَانِ بِرَيْبَةٍ
فَاضْرَعْ لِرَبِّكَ إِنَّهُ أَدْنَى لِمَنْ
كُنْ مَا اسْتَطَعْتَ عَنِ الْأَنَامِ بِمَعَزِلٍ
وَاحْذَرْ مُصَاحِبَةَ اللَّئِيمِ فَإِنَّهُ

فَالْحَقْدُ بَاقٍ فِي الصُّدُورِ مُغَيَّبٌ
فَهُوَ الْعَدُوُّ وَحَقُّهُ يُتَجَنَّبُ
حُلُوِّ اللِّسَانِ وَقَلْبِهِ يَتَلَهَّبُ
وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهُوَ الْعَقْرَبُ
وَيَرُوعُ مِنْكَ كَمَا يَرُوعُ الثَّلَبُ
فَالصَّفْحُ عَنْهُمْ بِالتَّجَاوِزِ أَصَوَّبُ
إِنَّ الْقَرِينَ إِلَى الْمُقَارِنِ يُسَبُّ
بِتَذَلُّلٍ وَاسْمَحْ لَهُمْ إِنْ أَذْنَبُوا
إِنَّ الْكَذُوبَ يَشِينُ حُرًّا يَصْحَبُ
ثَرْثَارَةً فِي كُلِّ نَادٍ تَخْطُبُ
فَالْمَرْءُ يَسْلَمُ بِاللِّسَانِ وَيُعْطَبُ
إِنَّ الزَّجَاجَةَ كَسَرُهَا لَا يُشْعَبُ
نَشْرَتُهُ أَلْسِنَةٌ تَزِيدُ وَتَكْذِبُ
بَلْ يَشْقَى الْحَرِيصُ وَيَتَعَبُ
وَالرِّزْقُ لَيْسَ بِحِيلَةٍ يُسْتَجَلَبُ
رَغَدًا وَيُحْرَمُ كَيْسٌ وَيُخَيَّبُ
وَاعِدِلْ وَلَا تَظْلَمْ يَطُبُّ لَكَ مَكْسَبُ
مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسَلِّمًا لَا يُنْكَبُ
أَوْ نَالَكَ الْأَمْرُ الْأَشَقُّ الْأَصْعَبُ
يَدْعُوهُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَأَقْرَبُ
إِنَّ الْكَثِيرَ مِنَ الْوَرَى لَا يُصْحَبُ
يُعْدِي كَمَا يُعْدِي الصَّحِيحَ الْأَجْرَبُ

واعلم بأنّ دعاءه لا يُحجّبُ
وخشيتَ فيها أن يضيقَ المذهبُ
طولاً وعرضاً شرقها والمغربُ
فالنُّصحُ أغلى ما يُباعُ ويوهبُ

واحذر من المظلومِ سَهْمًا صائبًا
وإذا رأيتَ الرِّزْقَ عَزَّ ببلدةٍ
فارحلْ فأرضِ اللهَ واسعةَ الفضا
فلقد نصحتُك إن قبلتَ نصيحتي

الشعر العربي الحديث

الأدب العربي الحديث¹ هو الأدب الذي ظهر تاريخيًا فيما يُطلَق عليه العصر الحديث، هذا العصر الذي يصعب تحديده حسب الحقب أو الحوادث التاريخية، فالعصر العثماني انتهى في بعض الأقطار العربية بعد الحرب العالمية الأولى عام 1918م، ولم يكن له وجود في أقطار عربية قبل ذلك بقرون. وقد أولى بعض الدارسين أهمية للحملة الفرنسية عام 1798-1801 على مصر وبلاد الشام، وهي حملة استعمارية جلبت معها بعض العناصر الثقافية من مثل المطبعة والصحيفة والمرصد والمكتبة والمسرح والعلماء، وهو ما نبّه الناس في مصر إلى تخلف الواقع وضرورة الانفتاح على العصر، وبناء جيش قوي، شرع في تأسيسه محمد علي، بعد أن سيطر على الحكم بعد جلاء الحملة الفرنسية.

ومن أجل بناء جيش قوي أرسل محمد علي البعثات إلى إيطاليا وفرنسا، وكان رفاعة الطهطاوي مرشدًا دينيًا لطلاب البعثة الرابعة إلى فرنسا، أفاد من هذه الرحلة في ترجمة المعارف المختلفة، وتعرف الفرق بين واقع المصريين وواقع الغربيين. وقد اهتم الخديوي إسماعيل بالحركة العلمية، فأنشأ مدارس للعلوم والهندسة والطب والحرب، واستأنف إرسال البعثات إلى أوروبا، وأسس نظارة المدارس، وعهد إليها أمر التعليم، وأنشأ المكتبة الخديوية، وبنى مدرسة المعلمين، وبسط يد المؤلفين، فنزح إليها الأجانب من أدباء وعلماء، فكان اختلاط هؤلاء بالمصريين سببًا في نهوض اللغة والأدب.

ومهما يكن من أمر فإن الحياة الثقافية والأدبية أفادت على نحو غير مباشر من هذه الحركة العلمية التي صاحبت إنشاء المدارس المختلفة العامة والمتخصصة لخدمة الجيش، فكان أن ظهرت تيارات فكرية وثقافية مختلفة كان أهمها تيار إحياء التراث لمواجهة النماذج الأدبية والفكرية الغربية، وبدا ذلك واضحًا في الشعر؛ إذ مال الشعراء إلى إحياء النماذج التراثية في العصرين الأموي والعباسي، وبرز من الشعراء الإحيائيين نخبة في أقطار الوطن العربي على رأسهم محمود سامي البارودي، وضمت هذه النخبة أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، وإبراهيم اليازجي، والزهاوي، والرصافي في العراق، والأمير عبد القادر الجزائري،

(1) أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ط 8 (بيروت: دار المعرفة، 2004)

وأبو مسلم البهلاني في عُمان.

وتلا ذلك جيل ظلّ متعلقًا بأهداب الكلاسيكية، ممن سموا بالكلاسيكيين الجدد، من مثل الجواهري، وعمر أبو ريشة، وعزيز أباظة، وإبراهيم طوقان، ومصطفى وهبي التل، وبدوي الجبل، إلى جانب شعراء العصبة الأندلسية، وهم شعراء المهجر الجنوبي.

وقد بدت ملامح الحركة الرومانتيكية في شعر خليل مطران الذي بدأ يضيق بالتقليد مع أن كثيرًا من شعره لا يفارق بناء القصيدة الإحيائية، فقد ظهرت هذه الملامح الرومانتيكية في قصيدته «المساء» التي يربط فيها بين حالته النفسية وهو مريض وغروب الشمس إذ يقول:

متفرّدُ بصبابتي، متفرّدُ	بكآبتي، متفرّدُ بعنائتي
شاكٍ إلى البحراضطراب خواطري	فيجيني برياحه الهوجاء
ثاوٍ على صخر أصمّ وليت لي	قلبًا كهذي الصخرة الصماء
يتتابها موج كموج مكارهي	ويفتها كالسقم في أعضائي
تغشى البرية كدرّة وكأنها	صعدت إلى عينيّ من أحشائي
والأفق معتكر قريح جفنه	يغضي على الغمرات والأفداء

ويقول فيها أيضًا:

يا للغروب وما به من عبرة	للمستهام! وعبرة للرأي!!
أو ليس نزعًا للنهار وصرعة	للمشمس بين مآتم الأضواء؟
أو ليس طمسًا لليقين ومبعثًا	للك بين غلائل الظلماء؟
أو ليس محوًا للوجود إلى مدى	وإبادةً لمعالم الأشياء؟

وقد نزلت جماعة الديوان المؤلفة من عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني، وعبد الرحمن شكري منزعًا (رومنطقيًا) وأعجبت باللون الغنائي الذاتي واللغة العصرية البسيطة، وقد دعت في «الديوان» الذي صدر منه جزءان، شارك فيهما العقاد والمازني سنة 1921 إلى الصدق في الإحساس، والصدق في التعبير، ونقدوا المدرسة الكلاسيكية

الجديدة، وخاصة أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم نقدًا لاذعًا. يقول عباس محمود العقاد في تقديمه لديوان عبد القادر المازني: «فمن كان يعيش بفكره ونفسه في غير هذا العصر، فما هو من أبنائه، وليست خواطر نفسه من خواطره.» يقول إبراهيم عبد القادر المازني في إحدى قصائده واصفًا نموذج الرجل العصري:

يتلقاك بالطلاقة والبشر	وفي قلبه قطوب العدا
كالسراب الرقاق يحسبه الظمًا	ن ماء وما به من ماء
عاجز الرأي والمروءة والنفس	س، ضئيل الآمال والأهواء
ألف الذل فاستنام إليه	وتباهى به على الشرفاء

وقد التقت جماعة الديوان مع الرابطة القلمية في مبادئها وفي مفهومها للشعر، وبدا الجانب الرومانتيكي واضحًا في خصائص الشعر لديها، على نحو ما ظهر في العلاقة بين العقاد وميخائيل نعيمة. ومن أعلام الرابطة القلمية: جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، ونسيب عريضة، وإيليا أبو ماضي، وأمين الريحاني، وقد تأسست الرابطة القلمية سنة 1920 واتخذت من نيويورك مقرًا لها، فثارت على الصور الشعرية القديمة، واستخدمت صورًا رومانتيكية جديدة، ومضامين حديثة، وتأثرت بالطبيعة والحرية. يقول جبران خليل جبران في قصيدته «المواكب» داعيًا إلى حب الطبيعة والعودة إلى الغاب:

ليس في الغابات موت، لا ولا فيها القبور	فإذا نيسان ولّى لم يمت معه السرور
إن هول الموت وهمّ ينثني طيّ الصدور	فالذي عاش ربيعًا كالذي عاش الدهور

هيمنت (الرومانتيكية) على الساحة الأدبية في الأقطار العربية خلال الثلاثينات والأربعينات، وقد ظهرت ملامح الحركة (الرومانتيكية) بوضوح شديد في «جماعة أبولو» التي أسسها أحمد زكي أبو شادي، وانضم إليها أعلام (الرومانتيكية) في الوطن العربي من مثل: علي محمود طه، وإبراهيم ناجي، وأبو القاسم الشابي، وأنور العطار. وكانت مجلة أبولو (1932-1934) قد أحدثت نهضة شعرية على مستوى الشكل والمضمون، وظهرت فيها ملامح التحول في تعدد القوافي، وفي التجديد في المعجم والصورة والإيقاع. على

نحو ما نرى في قصيدة علي محمود طه «الجندول»: على نحو ما نرى في قصيدة علي محمود طه «الجندول»:

آه لو كنت معي نختال عبره بشراع تسبح الأنجم إثره
حيث يروي الموج في أرخم نبره حلم ليل من ليالي كليوبتره

وكان من الطبيعي أن يفجر الشعراء الشباب عواطفهم (الرومانتيكية) في شكل جديد هو شكل الشعر الجديد، أو قصيدة التفعيلة؛ لأسباب فنية واجتماعية واقتصادية وسياسية ونفسية بعد الحرب العالمية الثانية متأثرين بمنجزات (الرومانتيكية) والرمزية اللتين شاعتا في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، مما مهد الطريق لحركة الشعر الجديد أو شعر التفعيلة الذي بدأ شكلياً في اختيار التفعيلة بدل البيت الشعري، ثم اتجه وجهة واقعية، قبل أن تتعدد أشكاله وصوره. ومن رواد هذه المدرسة: نازك الملائكة، وبدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، ونزار قباني، وصلاح عبد الصبور، وقد غلب على الشعر الحديث قصيدة التفعيلة التي أصبح لها أعلامها الكبار في وقتنا الراهن.

الطين إيليا أبو ماضي

نَسِيَ الطَّيْنُ سَاعَةً أَنَّهُ طِي
وَكَسَى الْخَزُّ جِسْمَهُ فَتَبَاهِي
يَا أَخِي! لَا تَمِلْ بِوَجْهِكَ عَنِّي
أَنْتَ لَمْ تَصْنَعْ الْحَرِيرَ الَّذِي تَلْ
أَنْتَ لَا تَأْكُلُ النَّضَارَ إِذَا جُع
أَنْتَ فِي الْبُرْدَةِ الْمُوشَاةِ مِثْلِي
لَكَ فِي عَالَمِ النَّهَارِ أَمَانِي
وَلِقَلْبِي كَمَا لِقَلْبِكَ أَحْلَا
أَمَانِي كُلُّهَا مِنْ تُرَابٍ
وَأَمَانِي كُلُّهَا لِلتَّلَاشِي
لَا، فَهَذِي وَتِلْكَ تَأْتِي وَتَمْضِي
أَيُّهَا الْمُزْدَهِي! إِذَا مَسَكَ السُّقُ
أَنْتَ مِثْلِي يَبِشُ وَجْهُكَ لِلنُّعْمَى
النُّجُومُ الَّتِي تَرَاهَا أَرَاهَا
لَسْتُ أَذْنَى عَلَى غِنَاكَ إِلَيْهَا
أَنْتَ مِثْلِي مِنَ الثَّرَى وَإِلَيْهِ

(3) ما العلاقة بين
(تَشْقَى) و(تَسْعَدُ)
وبين (النَّهَارِ)
و(الظَّلامِ)؟

(4) استخدم الشاعر
الجميل الاستفهامية
أيضاً لتأكيد الفكرة:
اقرأ الأبيات المتضمنة
جمالاً استفهامية،
وسجل التفاصيل التي
ساقها الشاعر لتأكيد
فكرته.

نُ حَقِيرٌ¹ فَصَالَ تَيْهَا وَعَرَبَدَ
وَحَوَى الْمَالَ كَيْسُهُ فَتَمَرَّدَ
ما أَنَا فَحْمَةٌ وَلَا أَنْتَ فَرْقَدٌ²
بِسُّ وَاللُّؤْلُؤُ الَّذِي تَتَقَلَّدُ
تَ وَلَا تَشْرَبُ الْجُمَانَ الْمُنْضَدُ
فِي كِسَائِي الرَّدِيمِ تَشْقَى وَتَسْعَدُ³
وَرُؤَى وَالظَّلَامُ فَوْقَكَ مُمْتَدٌ
مُ حَسَانٌ فَإِنَّهُ غَيْرُ جَلَمَدٍ
وَأَمَانِيكَ كُلُّهَا مِنْ عَسَجَدٍ؟
وَأَمَانِيكَ لِلْخُلُودِ الْمُؤَكَّدِ؟
كَذَوِيهَا، وَأَيُّ شَيْءٍ يُؤَبَّدُ
مُ أَلَا تَشْتَكِي؟ أَلَا تَتَنَهَّدُ؟⁴
وَفِي حَالَةِ الْمُصِيبَةِ يَكْمَدُ⁵
حِينَ تَخْفَى وَعِنْدَمَا تَتَوَقَّدُ
وَأَنَا مَعَ خَصَاصَتِي لَسْتُ أَبْعَدُ
فَلِمَاذَا يَا صَاحِبِي التَّيَّهَ وَالصَّدَقُ؟⁶

(1) ما الذي يرمي إليه
الشاعر حين يقول:
نَسِيَ الطَّيْنُ أَنَّهُ طِينٌ؟

(2) المعنى المُعْجَمِي
(الحَرْفِيُّ) للكلمتين:
فَحْمَةٌ، وَفَرْقَدٌ،
يختلف عن المعنى
المُراد في سياق
الأبيات، ما المعنى
المُراد في سياق
القصيدة؟

(3) ما العلاقة بين (يَبِشُ)
(وَيَكْمَدُ) وبين (غَنَى)
(وَخَصَاصَةٍ)؟ و(أَذْنَى)
(وَأَبْعَدُ)؟

(4) قارن بين البيت الأول
والآخر، وحاول أن تعبر
عن فكر القصيدة بأسلوبك.

سامحيني هديل غازي القصيبي

أغالب الليل الحزين الطويل	أغالب الداء المقيم الويل
أغالب الآلام مهما طغت	بحسبي الله ونعم الوكيل
فحسبي الله قبيل الشروق	وحسبي الله بُعيد الأصيل
وحسبي الله إذا رضني	بصدره المشؤوم همي الثقيل
وحسبي الله إذا أسبلت	دموعها عين الفقير العليل
يا رب أنت المرتجي سيدي	أنر لخطوتي سواء السبيل
قضيت عمري تائهاً ، ها أنا	أعود إذ لم يبق إلا القليل
الله يدري أنني مؤمن	في عمق قلبي رهبة للجليل
مهما طغى القبح يظل الهدى	كالطود يختال بوجه جميل
أنا الشريد اليوم يا سيدي	فأغفر أيا رب لعبد ذليل
ذرفت أمس دمعتي توبة	ولم تزل على خدودي تسيل
يا ليتني ما زلت طفلاً وفي	عيني ما زال جمال النخيل
أرتل القرآن يا ليتني	مازلت طفلاً.. في الإهاب النحيل
على جبين الحب في مخدعي	يؤزني في الليل صوت الخليل
هديل بنتي مثل نور الضحى	أسمع فيها هدهدات العويل
تقول يا بابا تريث فلا	أقول إلا سامحيني .. هديل

خمس رسائل إلى أمي نزار قباني

(1)

صباح الخير .. يا حلوة ..
صباح الخير .. يا قديستي الحلوة
مضى عامان يا أمي،
على الولد الذي أبحر
وحباً في حقايبه ..
صباح بلاده الأخضر
وانجمها، وأنهرها، وكل شقيقها الأحمر.
وحباً في ملايسه
طراييناً من النعناع والزعر ..
وليلكة دمشقية ..

(2)

أنا وحدي ..
ومني مقعدي يضجر
وأخزاني عصافير، تفتش بعد عن بيدز
عرفت أوروبا ..
عرفت عواطف الإسمنت والخشب
عرفت حضارة التعب
وطفت الهند، طفت السند،
طفت العالم الأصفر
ولم أعثر
على امرأة تمشط شعري الأشقر
وتحيل في حقيبتها إلي عرائس السكر
وتكسوني إذا أعرى

وَتَنْشُلْنِي إِذَا أَعَثَّرَ
أَيَا أُمِّي .. أَنَا الْوَلَدُ الَّذِي أَبْهَرَ
وَلَا زَالَتْ بِخَاطِرِهِ
تَعِيشُ عَرُوسَهُ السُّكَّرَ
فَكَيْفَ .. فَكَيْفَ .. يَا أُمِّي
غَدَوْتُ أَبَا .. وَلَمْ أَكْبُرْ؟

(3)

صَبَاحُ الْخَيْرِ مِنْ مَدْرِيْدٍ ..
مَا أَخْبَارُهَا الْفُلَّةُ؟
بِهَا أُوصِيكَ يَا أُمَّاهُ
تِلْكَ الطِّفْلَةُ الطِّفْلَةُ
فَقَدْ كَانَتْ أَحَبَّ حَبِيبَةٍ لِأَبِي
يُدَلِّلُهَا كَطِفْلَتِهِ ..
وَيَدْعُوها إِلَى فَنَاجَانٍ فَهَوَاتِهِ ..
وَيَسْقِيهَا، وَيُطْعِمُهَا
وَيَعْمُرُهَا بِرَحْمَتِهِ ..
وَمَاتَ أَبِي ..
وَلَا زَالَتْ تَعِيشُ بِحُلْمِ عَوْدَتِهِ
وَتَبْحَثُ عَنْهُ فِي أَرْجَاءِ غُرْفَتِهِ ..
وَتَسْأَلُ عَنْ عِبَائَتِهِ ..
وَتَسْأَلُ عَنْ جَرِيدَتِهِ ..
وَتَسْأَلُ حِينَ يَأْتِي الصَّيْفُ عَنْ فَيَرُوزِ عَيْنِيهِ
لِتَشْرُقَ فَوْقَ كَفَيْهِ
دَنَانِيرًا مِنَ الذَّهَبِ

(4)

سَلَامَاتُ سَلَامَاتُ

إلى بَيْتِ سَقَانَا الْحُبِّ وَالرَّحْمَةِ
إلى أَزْهَارِكِ الْبَيْضَاءِ..
فَرَحَةٍ (سَاحَةِ النَّجْمَةِ)
إلى تَخْتِي، إلى كُتَيْبِي
إلى أَطْفَالِ حَارَتِنَا..
وَحِيطَانٍ مَلَأْنَاهَا بِفَوْضَى مِنْ كِتَابَتِنَا
إلى قِطَاطِ كَسُولَاتِ
تَنَامُ عَلَى مَشَارِقِنَا..
وَلَيْلَكَةِ مُعَرَّشَةٍ عَلَى شُبَاكِ جَارَتِنَا..
مَضَى عَامَانِ .. يَا أُمِّي
وَوَجْهُ دِمَشْقَ
عُصْفُورٌ يُخْرِبُشُ فِي جَوَانِحِنَا..
يَعُضُّ عَلَى سَتَائِرِنَا..
وَيَنْقُرُنَا..
يَرِفِقُ، مِنْ أَصَابِعِنَا..
مَضَى عَامَانِ يَا أُمِّي
وَلَيْلٌ دِمَشْقَ .. فُلُّ دِمَشْقَ
دُورٌ دِمَشْقَ..
تَسْكُنُ فِي خَوَاطِرِنَا..
مَاذُنْهَا .. تُضِيءُ عَلَى مَرَاكِبِنَا
كَأَنَّ مَآذِنَ الْأُمُويِّ قَدْ زُرِعَتْ بِدَاخِلِنَا
كَأَنَّ مَشَاتِلَ الثُّفَاحِ تَعْبِقُ فِي ضَمَائِرِنَا
كَأَنَّ الصُّوَّةَ وَالْأَحْجَارَ
جَاءَتْ كُلُّهَا مَعَنَا..
(5)

أَتَى أَيْلُولُ يَا أُمَاهُ

وَجَاءَ الْحُزْنَ يُحْمِلُ لِي هَدَايَاهُ
 وَيَتْرُكُ عِنْدَ نَافِذَتِي
 مَدَامِعُهُ وَشَكْوَاهُ
 أَتَى أَيْلُولُ أَيْنَ دِمَشْقُ؟
 أَيْنَ أَبِي وَعَيْنَاهُ؟
 وَأَيْنَ حَرِيرُ نَظَرَتِهِ، وَأَيْنَ عَيْيرُ قَهْوَتِهِ؟
 سَقَى الرَّحْمَنُ مَثْوَاهُ..
 وَأَيْنَ رِحَابُ مَنْزِلِنَا الْكَبِيرِ.. وَأَيْنَ نُعْمَاهُ؟
 وَأَيْنَ مَدَارِجُ الشَّمْشِيرِ.. تَضَحَكُ فِي زَوَايَاهُ؟
 وَأَيْنَ طُفُولَتِي فِيهِ
 أَجْرُ جُرْ ذِيلِ قِطَّتِهِ
 وَآكُلُ مِنْ عَرِيشَتِهِ
 وَأَقْطُفُ مِنْ (بَنْفَشَاهُ)
 دِمَشْقُ.. دِمَشْقُ
 يَا شِعْرًا
 عَلَى حَدَقَاتِ أَعْيُنِنَا كَتَبْنَاهُ
 وَيَا طِفْلًا جَمِينًا
 مِنْ ضَفَائِرِهِ صَلَبْنَاهُ
 جَثُونًا عِنْدَ رُكْبَتِهِ
 وَدُبْنًا فِي مَحَبَّتِهِ
 إِلَى أَنْ فِي مَحَبَّتِنَا قَتَلْنَاهُ.

جبل عمر أبي ريشة

معاذَ خلالِ الكبيرِ ما كنتُ حاقداً	ولا غاضباً إن عابَ مسرايَ عائبُ
فكم جبلٍ يغفو على النّجمِ خدّه	وأذْيالُه للسّائماتِ ملاعبُ
نظرتُ إلى الدُّنيا فلم أَلَفَ عندها	كبيراً أداري أو صغيراً أعاتبُ
وما هان لي في موقفٍ العزّ موقفُ	ولا لاني في جانبِ الحقِّ جانبُ
فيا غُرَبَةَ الأحرارِ ما أطولَ السُّرى	وملءُ غياباتِ الدروبِ غياهبُ

فَكَرُّ بَغِيرِكَ محمود درويش

وَأَنْتَ تُعِدُّ فُطُورَكَ، فَكَرُّ بَغِيرِكَ	لا تنسَ قُوتَ الحمامِ
وَأَنْتَ تَخَوِّضُ حُرُوبَكَ، فَكَرُّ بَغِيرِكَ	لا تنسَ من يطلبونَ السلامَ
وَأَنْتَ تُسَدِّدُ فَاتُورَةَ الكَهْرِبَاءِ، فَكَرُّ بَغِيرِكَ	من يرَضَعونَ الغمامَ
وَأَنْتَ تَعُودُ إِلَى البَيْتِ، بَيْتِكَ، فَكَرُّ بَغِيرِكَ	لا تنسَ شَعْبَ الخِيَامِ
وَأَنْتَ تَنَامُ وَتُحْصِي الكَوَاكِبَ، فَكَرُّ بَغِيرِكَ	ثَمَّةَ مَنْ لَمْ يَجِدْ حَيِّزَ اللَمَنَامِ
وَأَنْتَ تَحَرِّزُ نَفْسَكَ بِالاستعاراتِ، فَكَرُّ بَغِيرِكَ	مَنْ فَقَدُوا حَقَّهُمْ فِي الكَلَامِ
وَأَنْتَ تُفَكِّرُ بِالآخرينَ البَعِيدِينَ، فَكَرُّ بِنَفْسِكَ	قُلْ: لِيَتَنِي شَمْعَةٌ فِي الظَّلَامِ

الحركة الشعرية في دولة الإمارات العربية المتحدة

إذا أردنا أن نؤرِّخ للشعر الحديث في دولة الإمارات العربية المتحدة، فإننا نجد صعوبة في تحديد بواكيره، أو بداياته؛ ذلك أن ما وصلنا من الشعر الحديث -حتى الآن- لا يكاد يتجاوز مرحلة العشرينيات، وما بعدها، أما ما قبل ذلك فلا نكاد نعثر على نصوص شعرية نستطيع أن نتخذها منطلقاً لتأريخ الشعر الحديث في هذه المنطقة، ولذلك فإن الدراسات التي تناولت رواد الشعر الحديث في الإمارات تنطلق -عادةً- من الشاعر «سالم بن علي العويس» الذي عاش في الفترة الممتدة ما بين نهاية القرن التاسع عشر، ونهاية القرن العشرين بوصفه الرائد الأول لهذا الشعر الحديث، وبوصفه الشاعر الإحيائي الذي كان يكتب بطريقة متميزة تنأى عن مجازاة الأساليب التي كانت مُغرقة في المحسنات البديعية، والتي كانت تركز على الإخوانيات، والمناسبات، والألغاز.

وكلُّ الشعراء والأدباء الذين يُذكرون مع الشاعر «سالم بن علي العويس»، من أمثال: محمد بن ثاني بن قطامي، وخلفان بن مصبح، ومبارك بن حمد العقيلي، وأحمد بن سلطان بن سليم، ومبارك بن سيف الناحي، وسعيد الهاملي، وأحمد بن خصفة، وعلي بن قمبر، يُعدّون من معاصريه، أو ممّن عاشوا في فترة قريبة من عصره...

أما الشعراء الذين عاشوا قبل هؤلاء فإننا لا نعرف عنهم شيئاً، وإذا لم نجد نصوصاً شعرية تؤكّد هذا التواصل والاستمرار، فإن ذلك يرجع أساساً إلى غياب وسائل الطباعة التي لم تدخل إلى منطقة الخليج إلا في فترة متأخرة¹.

وقد عُرف أوائل شعراء الإمارات باسم «جماعة الحيرة» نسبةً إلى منطقة «الحيرة» في مدينة الشارقة، وهم: صقر بن سلطان القاسمي، وخلفان بن مصبح، وسالم بن علي العويس، وأخوه سلطان بن علي العويس.

وكانت القصائد الشعرية لهؤلاء الشعراء تحتفظ بانحيازها الكامل في الالتزام بالشكل العمودي، مع محاولة التجديد في المعنى، كما تشهد لهم بمستوى متقدّم من الوعي

(1) أ. د. الرشيد بوشعي: ر، أدب الخليج العربي الحديث والمعاصر، منشورات دار العالم العربي، دبي، ط 1، 142 هـ/ 2011 م.

والقدرة على الإبداع، وتعدُّ محاور الخطاب الشعريِّ واتجاهاته وجوانبه وجدانيًّا، ووطنياً، وقومياً.

وجيلُ الشعراء الأوائل في الإمارات اعتمدَ على تثقيف ذاتِه بوسائلٍ مُختلفةٍ، وذلك من خلالِ مُتابعةِ الصحفِ والمجلاتِ التي كانت تصلُ إلى المنطقةِ بطريقةٍ غيرِ مُنظمةٍ، ومن خلالِ الإذاعاتِ، أو من خلالِ الكتبِ في المكتباتِ الخاصةِ لدى الميسورينَ والمُثقفينَ من أبناءِ المنطقةِ.

ومعَ تطوُّرِ التعليمِ في المجتمعِ الإماراتيِّ، ودخولِ الصحافةِ والطباعةِ في مرحلةِ السَّتينياتِ من القرنِ الماضي حدثتْ تحولاتٌ في مجالِ الشعرِ، وبرزتْ قصيدةُ التفعيلةِ كشكلٍ جديدٍ في تجاربِ الشاعرِ الدكتور «أحمد أمين المدني» -رحمه الله- بالإضافةِ إلى كتابةِ القصيدةِ العموديَّةِ، وحملتْ تجربةُ الشاعرِ «المدني» رؤيةً جديدةً للشعرِ والعالمِ والأدواتِ التعبيريةِ والفنيةِ.

وفي مرحلةِ السَّبعينياتِ ظهرتْ كوكبةٌ جديدةٌ من الشعراءِ المُحافظينَ والمُجدِّدينَ الذين كتبوا في نموذجي القصيدةِ: العموديِّ والتفعيلةِ، مثل: مانع سعيد العتيبة، وشهاب غانم، وحبيب الصايغ، كما امتدَّ عُصرُ المُحافظةِ في تجاربِ الشعراءِ: سلطان خليفة الحبَّور، وحمد بوشهاب، وعارف الشَّيخ، ...

وفي مطلعِ الثَّمانينياتِ ظهرتْ في الإماراتِ أصواتٌ شعريَّةٌ كثيرةٌ، تنتمي إلى كلا التَّيارينَ، ومنهم: عارف الخاجة، وأحمد راشد ثاني، وميسون صقر، وحصة عبدالله، وكلثم عبدالله، وكريم معتوق، وإبراهيم محمد إبراهيم، وإبراهيم الهاشمي، ...

وبعدَ هذهِ الفترةِ اتَّسعتْ دائرةُ الإبداعِ الشعريِّ في الإماراتِ، وأصبحتْ جديرةً بالمُلاحظةِ والرَّصدِ والتَّوثيقِ والدَّراسةِ، حتَّى غدتْ كأنَّها صورةٌ مُصغَّرةٌ عن الحركةِ الشعريَّةِ في الوطنِ العربيِّ، بل وفي العالمِ أيضاً، ممَّا يعني أنَّ الحركةِ الشعريَّةِ الإماراتيَّةَ أفرزتْ مُنتجاً شعريًّا أسهمَ في بلورةِ أدبٍ عربيٍّ مُتميِّزٍ ومُتفاعلٍ معَ الجوانبِ المختلفةِ لحدثِةِ القصيدةِ فكريًّا وفنيًّا، ممَّا جعله يُشكِّلُ رافداً قوياً من روافدِ الأصالةِ الثَّقافيَّةِ لأُمَّتِنَا.

وقد واكبَ الشعراءُ الإماراتيونَ نهضةَ دولتهم في الفترةِ الذَّهبيَّةِ من عُمرِ اتِّحادِ دولةِ

الإمارات العربية المتحدة، وإنَّ المُتَّبِعَ للحركة الشعرية الإماراتية يجدُ أنَّ القصيدة تطوّرت، كما تطوّرت الأدوات الشعرية ذاتها، وأصبح الوطنُ لوحةً يرسمها الشاعرُ بأعذب الألفاظ، وأرقّ الكلمات، ويلونها بألوانٍ شتى من الصُّور الشعرية والرمزية التي تزيد النصَّ الشعريَّ جمالاً والتزاماً، ولم يعد الشعرُ يكتفي بأن يكونَ وزناً وقافيةً وصورةً خياليةً.

ومن نماذج القصائد التي حافظت على الشكل العمودي للقصيدة قولُ الشاعر «مبارك ابن سيف النّاخي» في قصيدة مُهداةٍ إلى صديقه الشيخ «عبدالله بن صالح المطوع»¹:

عَهْدْتُكَ شاعِراً وَلَكَ اقتدارٌ	وَشَهْمًا ماجِداً، وَلَكَ افتكارٌ
وَلِلآدَابِ بَحاثًا وَفِيًّا	وَلِلتَّارِيخِ أَنْتَ لَهُ مدارٌ
رِعاكَ اللَّهُ مِنْ خَلِّ هُمَامٍ	لَهُ فِي كُلِّ حَلَبَةٍ ابْتِكارٌ

وكذلك قولُ الشاعر «سلطان خليفة الحبّور» في قصيدته (تفرّق قومي)²:

«أبا قاسم» يا نذيرَ البَشَرِ	بأنَّ الحِياةَ لِمَنْ يَنْتَصِرُ
وصوتُكَ كانَ يَبِثُّ الطَّموحَ	ويمحو من النَفْسِ معنى الحَذَرِ
ويزرَعُ في حاليكَ الدُّجى	نهارًا يُضيءُ حِياةَ البَشَرِ

ومن القصائد التي اتَّخذت من التفعيلة شكلاً جديداً، قولُ الشاعر «شهاب غانم»³:

إنَّها الموجةُ تلهو
إنَّها الموجةُ تلعبُ
سوفَ تأتي، ثُمَّ تذهبُ
ثُمَّ تأتي، ثُمَّ تذهبُ
فإذا الأيامُ تقسو

(1) مبارك الخاطر، «رجل... ومولّد قرن»، منشورات دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة/ 1997 م.

(2) قصائد من الإمارات، منشورات اتحاد كُتاب وأدباء الإمارات، ط 1/ 1986 م.

(3) المصدر السابق.

رُبَّما في الغدِ تأسو
وإذا الدهرُ تبسّم
لا يَغُرُّنكَ... غداً قد يتجهّم
فلماذا تتألّم؟

- وللإستزادة عن التجربة الشعرية للدكتور شهاب غانم، يمكن الاطلاع على كتاب (طائر الشعر الجميل)، لمؤلفه الدكتور أكرم جميل قنيس، منشورات وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع - أبوظبي / ط 1 / 2015.

إلى أمّتي صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم

من المقصود في البيت
الأولين؟

ما العاطفة الشائعة في
الآيات من 3 - 6؟

من هي جُلّ؟ وكيف
كانت؟ وكيف أصبحت؟

بم يوحى التعبير "أني
التفتُ فإن ثمة غيلة
ودم ونكبة وشقاق"؟

ما نوع التشبيه في قوله:
"فإذا الصريف خفيف
أجنحة العلاء"؟

كَفَكَفْ دُمُوعَكَ أَيُّهَا الْمُشْتَاقُ
وَلَأَنْتَ مَفْتُونٌ بِعِشْقِكَ أُمَّةً
أَوَاهُ مَا هَذَا الَّذِي فِي أُمَّتِي
نَادَيْتُ جِلَقَ وَهِيَ فِي أَسْمَالِهَا
وَبِأَرْضِ بَابِلَ أَيُّ سِحْرِ أَسْوَدٍ
أَنْى التَّفَتَّ فَإِنْ ثَمَّةَ غِيلَةٍ
مِنْ بَعْدِ أَنْ يَقْضِيَ الرَّدَى فِي مُهْجَةٍ
مَا هَكَذَا كَانَا مَلَاذَ عُرُوبَتِي
أَطْلَعْتُهَا سِرِّي فَضَجَّ مُطَوِّقُ
وَطْنٍ يَرَانِي فِيهِ صَاحِبَ بَدْعَةٍ
وَتَرَبَّعَتْ فِي خَيْمَةٍ بَدْوِيَّةٍ
مَبْهُورَةٌ بِهَوَى الْقَرِيضِ أَبْيَّةٍ
وَأَخَذْتُ أَجْمَعُ نَوْرَ حَرْفِي فَانْتَشَى
فَإِذَا الصَّرِيفُ خَفِيفُ أَجْنِحَةِ الْعَلَا
نَادَيْتُ أُمَّتَنَا الْعَظِيمَةَ أَنَّنَا
لَا نَرْتَضِي غَيْرَ الصَّدَارَةِ مَوْضِعًا
مَنْ زَارَ مَوْطِنَنَا وَعَايَنَ صُنْعَنَا
عَرَبٌ سُلَالَةٌ أُمَّةٌ عَرَبِيَّةٌ
مِنْ أَرْضِنَا وَمِنْ الْخَلِيجِ وَأَهْلِهِ

فَلِكُلِّ وَجِدٍ لَوْ عَلِمْتَ مَذَاقُ
خَضَعْتَ لِعِزَّةٍ مَجْدَهَا الْأَعْنَاقُ
قَدْ حَلَّ حَتَّى اسْوَدَّتِ الْأَفَاقُ
وَنَظَرْتُ وَهِيَ خَرَائِبُ وَمَحَاقُ
أَدْمَى فَلَمْ يَعُدِ الْعِرَاقُ عِرَاقُ
وَدَمٌ يُرَاقُ وَنَكْبَةٌ وَشِقَاقُ
قُلْ لِي أَيْنَفَعُ بَعْدَهَا التَّرْيَاقُ؟
كَلَّا وَلَا الْوَضْعُ الرَّهِيْبُ يُطَاقُ
كَانَتْ لَهُ الْمُهْجُ الْعِزَازُ تُسَاقُ
فِي حُبِّهِ وَيَغَارُ كَيْفَ أَشَاقُ
نَفْسٌ لَهَا بَيْنَ النُّجُومِ رِفَاقُ
عَرَبِيَّةٌ إِنْسَانُهَا عِمْلَاقُ
قَلَمٌ لَهُ تَتَنَافُسُ الْأَوْرَاقُ
وَإِذَا الصَّحَائِفُ كُلُّهَا إِشْرَاقُ
مَلَأَ يُجَانِبُ عَزَمَنَا الْإِخْفَاقُ
وَلَنَا عَلَى مَا نَدَّعِي مِثَاقُ
صَلَّى وَقَالَ: تَبَارَكَ الْخَلَّاقُ
شَرُفَتْ بِهَا الْأَنْسَابُ وَالْأَعْرَاقُ
حَيْثُ الْبُطُولَةُ مِنْهَجٌ وَوِثَاقُ

لماذا مُنِعَتْ كلمة
"خرائب" من
الصرْف؟

ما الغرض من
الاستفهام في البيت
السابع؟

ما دلالة النجوم في
هذا البيت؟

لَوْ لَا الْخَلِيجُ لَضَاعَ مِنْ أَقْطَارِنَا
كُنَّا لَهُ لَمَّا دَعَانَا شَعْبُهُ
لَوْ لَا بَطُولَةُ جَيْشِنَا وَشَبَابِنَا
دَوَّلُ الْخَلِيجِ هِيَ الْمَلَاذُ لِأُمَّةٍ
وَمِنْ الْخَلِيجِ تَعُودُ قُوَّةُ أُمَّتِي
وَلِمَنْ يَظُنُّونَ الْحَيَاةَ بَسِيطَةً
لَا الْإِنْتِظَارُ بِهَا يُفِيدُ وَلَا الرَّجَا
وَاللَّهُ قَالَ قُلْ اعْمَلُوا بِكِتَابِهِ

الْيَمَنُ الشَّقِيقُ وَنَالَهُ الْإِحْرَاقُ
دَعَاوَى الْغَرِيقِ كَتَائِبًا تَنْسَاقُ
لَقَضَى وَعَاثَ بِرَبْعِهِ السُّرَّاقُ
غَرَاءَ لَيْسَ لِعِزِّهَا إِفْلَاقُ
وَلَهَا بِرَكْبِ الْفَائِزِينَ لِحَاقُ
إِنَّ الْحَيَاةَ إِذَا وَعَيْتَ سِبَاقُ
بَلْ هِمَّةٌ تَيَّارُهَا دَفَّاقُ
وَبِالْاجْتِهَادِ تُحَصِّلُ الْأَرْزَاقُ

أَذْكُرُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ
الَّتِي اسْتَشْهَدَ بِهَا
الشَّاعِرُ هُنَا.

سيرة وطن شيخة المطيري

أدر المعاني إنهنّ غنائيا	واسكُبْ عيونَ الشعرِ من أحداقيا
الخيْلُ تطرَبُ بالصَّهيلِ وداخلي	سبعُ صَهْلَن تَوَحُّداً وتساميا
وأَمِطْ لثامَ القولِ عن تاريخها	قِفْ واسألِ الأيام: حِسْبُك ماها
هي أولُ الرَّمْلِ المُعَتَّق نخلة	هلا شممت برملها أجداديا
كتبوا على موج الخليج قصيدة	لافضّ قلب الشعر يصدق تاليا
والطينُ خبأ صوتهم وعروقهم	وأنا أمَرّر فوقه أحلاميا
هم هكذا بدؤوا ونحن نعيدها	يا سيرة أولى ومجداً باقيا
أدر المعاني والمغاني والهوى	وطني الإماراتُ اقرؤوا أمجاديا

شعر عالمي



تنويع عن الغصون
(آنا أخماتوفا)

حينما ترحلُ الريحُ
من سيهز الغصون..؟
حينما يذبلُ الغصنُ
من سيلّم الندى..
في الصباح..؟



سعادة حجر
(إيميلي ديكينسون)

كم بالغة سعادة الحجر
يتسكع وحده في الطرق بلا ضجر
فلا يهمله العمل
ولا بالمتطلبات يضيق الأمل
وثوبه البني ألبسه إياه
الدهر الذي من فوقه عبر
وهو كالشمس بكل حرية
يلمع وحده أو مع البقية
محققاً وجوده
بكل بساطة وعفوية.



خريف

(ألفونس دي لا مارتين)

تحياتٌ، أيتها الغاباتُ المكسوةُ بالأخضر المستديم!
الأوراقِ المُصَفَّرَةِ على العشبِ المتناثر!
تحياتٌ، أيتها الأيامُ الأخيرة الرائعة! جِداً الطبيعة
يُثيرُ ألمي ويُمَتِّعُ عيني.
أسير بخطواتٍ حالمة في طريق مهجور،
وأريد أن أرى ثانية، ولأخر مرة،
هذه الشمسُ المتضائلة والشاحبة والتي لا ينفذ
نورها الواهنُ إلى ظلام الغابات عند قدمي إلا بجهد!



أجمل البحار

(ناظم حكمت)

أجملُ البحار
هو البحرُ الذي لم نذهبْ إليه بعد
وأجملُ الأطفال
هم الذين لم يكبروا بعد
وأجملُ الأيام
هي تلك التي في انتظارنا
وأجملُ القصائد
هي تلك التي لم أكتبها لك بعد
يا صغيري...
يا صغيرتي...



تعلم الصمت
(كارين بويه)

كل ليلة على الأرض الطافحة بالألم.
أيها الفؤاد تعلم كيف تصمت.
النفوس القوية، كالدرع القوية،
تعكس الضوء من موطن النجوم.
من شأن عويلك أن يجعلك أضعف.
أيها الفؤاد تعلم كيف تصمت.
فالصمت وحده يشفي، الصمت يقوّي،
وهو طاهر على نحو غير ممسوس، ومخلص ببراءة.



(فرناندو بيسوا)

نظمت كل لآلى
هذا العقد لأهديه إليك.
الآلى قلبي
والخيطة؟ حزني.

القصة القصيرة



القصة القصيرة

«القصة» مشتقة من الفعل «قَصَّ»، الذي يأتي بمعنى التَّبَع، يقال: قَصَّ فلانٌ أثرَ فلان: أي تتبَّعه. ومنه قوله تعالى: (وَقَالَتِ لَأُخَيِّرَنَّ قُصِيهٖ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾). ويأتي أيضًا بمعنى الإخبار والرواية، يقال: قَصَّ عليه الخبر: أي حدَّثه، وقَصَّ القِصَّة: أي حكاها. فالقِصَّة: هي الحكاية التي تُحكى.

أمَّا «القِصَّة» في الاصطلاح فلها تعريفات كثيرة، لكنَّ معظم هذه التعريفات يؤكد على أنَّ القِصَّة سرد متخيَّل قصير نسبيًّا، يهدف إلى إحداث تأثير معين، وفي أغلب الأحوال تركز القِصَّة القصيرة على شخصية واحدة في موقف واحد، في لحظة واحدة، في مكان بعينه. وقد اختصر بعضهم تعريف القِصَّة بقوله «فَنُّ أدبيٌّ نثريٌّ يتناول بالسرد حدثًا وقع، أو يمكن أن يقع».

وأهم ما يمكن أن يقال عن القِصَّة (والرواية كذلك) إنَّها فنُّ غايته الإمتاع في المقام الأول، فليس من أهداف القِصَّة (أو الرواية) أن تقدم معلومات للقارئ بصورة مباشرة، وليس من أهدافها أن تُعلِّم أو تعظ. إنَّ القِصَّة فن، والفن لا يتخذ من الخطاب المباشر وسيلة أو طريقة للتعبير والوصول إلى وجدان القارئ.

إنَّ القِصَّة تستحث القارئ على التفكير والتأمل، وعلى أن ينظر إلى الحياة من زوايا مختلفة، ومن خلال تفاصيل صغيرة جدًّا قد لا ينتبه إليها، لكنها تشكل حياة الناس وتؤثر فيهم، لذلك نقول: إنَّ القِصَّة الناجحة هي التي تجعل القراء يفكرون، ويشعرون.

وهناك عناصر أساسية تقوم عليها القِصَّة (أو الرواية)، والكاتب الناجح هو الذي يشكل من هذه العناصر بناءً فنيًّا متجانسًا متماسكًا، يؤثر في القارئ، ويوصل إليه فكرة ما بشكل غير مباشر، ومن أهم عناصر القِصَّة:

1. الحدث: عادة ما تقوم القِصَّة القصيرة على حدث مفرد؛ فالقِصَّة تجري في زمان محدد، ومكان محدد، وتتناول موقفًا محددًا، أو شريحة من الحياة بغية تسليط الضوء عليها.

2. الشخصيات: عنصر الشخصية يعد دعامة أساسية من دعامات القصة، فلا يمكن أن تُبنى قصة من دون وجود شخصية تحرك الأحداث وتتأثر بها، والشخصية قد تكون إنساناً أو حيواناً أو كائناً متخيلاً.

3. الإطار الزمني والمكاني: يحدد هذا العنصر زمن وقوع الأحداث ومكانها، والكاتب المتمكن يوظف عنصر الزمان والمكان توظيفاً يناسب جو القصة، والفكرة.

4. الراوي وجهة النظر: الراوي هو الذي يروي القصة، وهو ليس الكاتب، بل الكاتب يختار وجهة نظر معينة تُروى من خلالها القصة، ويرويها راوٍ قد يكون شخصية من شخصيات القصة، وقد يكون راوياً خارجياً. وجهة النظر التي ينطلق منها الراوي تتقاطع مع فكرة الرواية، لأنها تعبّر عنها.

5. الحبكة: الطريقة التي يجمع بها الكاتب أحداث قصته أو روايته ليصنع منها عملاً فنياً، يجذب القارئ، ويشدّه في اتجاه النص من بدايته حتى نهايته، وقد يظهر خط بسيط للحبكة في بعض القصص، فعلى الرغم من قصر القصة، وضيق المساحة المتاحة للكاتب ليتحرك فيها، إلا أنّ بعض القصص يظهر فيها تصاعد للأحداث، ووصولها إلى نقطة توتر عليا، ثمّ انحدار نحو النهاية.

6. التشويق: هو العنصر الذي يشدّ القارئ نحو القصة وعالمها، وغالباً ما يكون مرتبطاً بشيء تريده الشخصية الرئيسة، أو مشكلة تواجهها. بعض القصص قد تتحرر من البنية التقليدية التي تعتمد على التشويق وتأزم الموقف، خاصة تلك التي تركز على مشهد وحيد مضغوط، أو التي تُبقي القارئ داخل دائرة تفكير الشخصية وتأملاتها وأسئلتها، ولذلك يصنف بعضهم القصص إلى «قصة شخصية» و«قصة حبكة أو حدث». أمّا الثانية، في الغالب، هي التي قد تحوي عنصر التشويق القائم على توتر الأحداث ووصولها إلى نقطة تأزم عليا.

7. الفكرة أو الموضوع: وهي الرسالة المبطنة في القصة، والتي يريد الكاتب من القارئ أن يصل إليها.

8. اللغة: اللغة ترتبط بحجم القصة، ويجب أن تكون مكثفة تعتمد التلميح بدل التصريح؛ فلا مجال للوصف المسهب فيها، وغالبًا ما يتراوح عدد كلماتها بين خمسمئة إلى عشرة آلاف كلمة، وقد تستخدم الحوار الذي يجب أن يناسب الشخصية، مما يفتح الباب للعبارات العامة والشعبية.

ويمكننا أن نجمل القول في القصة فنقول: إن القصة لا تتناول -خلافًا للرواية- شخصية كاملة بكل ما يحيط بها من حوادث وظروف وملابس، وإنما تكتفي بتصوير جانب واحد من جوانب حياة الفرد. ولا تعدد الشخصيات في القصة القصيرة. ومن الضروري أن تتوافر وحدة الفعل والزمان والمكان؛ فيجب أن يكون المكان محدودًا، وأن يكون الزمان قصيرًا. وأن ينتقي القاص -عكس الروائي- حدثًا من الحياة اليومية، ويحاول أن يجعل منه موقفًا فنيًا، يوضح به حقيقة من الحقائق.

ولم تعد بنية القصة القصيرة وعناصرها كما كانت وقت ظهورها، فقد اختفت بعض الشروط واختفت بعض العناصر، حتى تكاد كل قصة قصيرة لها شكلها الخاص. ولقد تعددت موضوعاتها وأغراضها ومجالاتها وتباينت في مدى ارتباطها بالواقع أو ابتعادها عنه.

إن الإلحاح السابق على ملحظ التركيز في القصة القصيرة، سواء أكان في البنية الفنية أم في اللغة، يسوقنا إلى الحديث عن أهم خصائص القصة القصيرة، التي يمكن حصرها، بشكل عام، في ثلاث خصائص:

1. الوحدة: وقد أكد عليها كبار الكتاب والتزموا بها، والمقصود بالوحدة هنا: الوحدة العضوية التي تؤدي إلى وحدة الانطباع، والتأكيد على أن تحمل القصة فكرة واحدة، وتركز على شخصية واحدة في الغالب، وأن تبني بناءً محكمًا يولد في القارئ انطباعًا واحدًا.

2. التكييف: وهو مطلب جوهرى لنجاح القصة فنيًا، ولذلك قال عنها يوسف إدريس: «القصة القصيرة رصاصة» انظر كيف تصيب الرصاصة الهدف، فهي ليست حجرًا ولا كرة، بل رصاصة تنطلق لتصيب الهدف بسرعة ودقة تامتين. ولذلك فإن كل كلمة محسوبة في القصة، وكل جملة لها دورها، وليس هناك مكان للاسترسال في الكلام

لمجرد أنه كلام جميل أعجب الكاتب. والتكثيف يختلف باختلاف القصة، وطولها، وبنيتها الفنية.

3. الدرامية: ويقصد بها التوتر الذي يجعل القارئ يتابع القراءة، ويرغب في الوصول إلى النهاية، حتى لو خلت القصة من الصراع، واعتمدت على أفكار الشخصية الداخلية فإنّ الكاتب الناجح يستطيع أن يشدّ خيط القصة، ويجذب القارئ إلى عالمها. وهناك تقنيات كثيرة تساعد الكاتب على تصعيد درجة التوتر في القصة، كالبداية المثيرة للتساؤل، أو الشخصية المحيرة أو المحتارة، أو الحوار الداخلي، أو حركة الزمان أو المفارقات، وغيرها كثير.

وكما قال النقاد إنّ القصة تأخذ من المسرح دراميته، ومن الشعر توتره. إنّ القصة القصيرة تفتح نافذة صغيرة للقارئ ليطل منها على مشهد من مشاهد الحياة لم يكن قد فطن إليه من قبل، وكلما زادت النوافذ أتيح لهذا القارئ أن تتوسع نظراته للحياة، وتزداد عمقاً ومعرفة. إنّ قارئ الأدب هو إنسان أكثر تسامحاً وتقبلاً للحياة بكل تناقضاتها.

حادثة نجيب محفوظ

كَانَ يَتَكَلَّمُ فِي تَلْفُونِ الدَّكَانِ بِصَوْتٍ مَرْتَفِعٍ؛ لِيَسْمَعَ صَوْتُهُ رَغْمَ ضَوْضَاءِ شَارِعِ الْجَيْشِ الصَّاخِبَةِ، وَجَعَلَ يَمِيلُ بِنَصْفِهِ الْأَعْلَى دَاخِلَ الدَّكَانِ؛ لِيَتَبَعَدَ مَا أَمَكْنَ عَنِ الضَّوْضَاءِ، ثُمَّ خَتَمَ حَدِيثَهُ بِقَوْلِهِ: (انتظرنِي، سأَحْضُرُ فَوْرًا)، وَأَعَادَ السَّمَاعَةَ إِلَى مَكَانِهَا، وَنَقَدَ الْبَائِعَ ثَمَنَ الْمُكَالَمَةِ، وَاسْتَدَارَ فَوْقَ الطُّوَارِ مَتَجِّهًا نَحْوَ الطَّرِيقِ.

كَانَ فِي السَّتِينِ أَوْ نَحْوِهَا... طَوِيلُ الْقَامَةِ نَحِيلُهَا، كُرُوِيَّ الْجَبْهَةِ وَالْعَيْنَيْنِ، مُكَوَّرُ الذَّقْنِ، وَأَمَّا صَلَعَتُهُ فَلَمْ يَبْقَ فَوْقَ مَرَاتِبِهَا إِلَّا جَذُورُ شَعْرِ أَبِيضٍ مِثْلُ مَنْابِتِ شَعْرِ ذَقْنِهِ، وَقَدْ أَفْصَحَ مَظْهَرُهُ عَنِ إِهْمَالِ صَرِيحٍ نَتِيجَةً لِلْسِّنِّ أَوْ الطَّبْعِ أَوْ نَسْيَانِ الذَّاتِ، عَلَى ذَلِكَ كَانَ يَتَمَتَّعُ بِحَيَوِيَّةٍ مَرِحَةٍ، وَتَلْتَمَعُ عَيْنَاهُ بِنَشَاطٍ وَابْتِهَاجٍ.. وَبَدَا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الدَّاخِلِ لَا إِلَى الطَّرِيقِ¹، ثُمَّ مَالَ يُمْنَةً بِمَحَازَةِ صَفٍّ مِنَ اللُّورِيَّاتِ الْوَاقِفَةِ لَصُقِّ الطُّوَارِ حَتَّى وَجَدَ مَنفذًا إِلَى الشَّارِعِ.. مَرَقَ مِنَ الْمَنفذِ؛ لِيَعْبُرَ الشَّارِعَ إِلَى ضِفَّتِهِ الْأُخْرَى، وَمَا كَادَ يَجَاوِزُ مُقَدِّمَةَ اللُّورِي الْأَخِيرِ حَتَّى شَعَرَ بِانْدِفَاعِ سَيَّارَةٍ (فورد) نَحْوَهُ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ².

وَقَالَ أَحَدُ الشُّهُودِ فِيمَا بَعْدَ أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَرَجَّعَ بِسُرْعَةٍ، وَأَنَّهُ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ لَنَجَا رَغْمَ سُرْعَةِ السَّيَّارَةِ، وَلَكِنَّهُ لَسَبَبٍ مَا - لَعَلَّهُ الْمَفْاجَأَةُ أَوْ سُوءُ التَّقْدِيرِ - وَثَبَ إِلَى الْأَمَامِ، وَهُوَ يَهْتَفُ، (يَا سَاثَرُ يَا رَبُّ) وَجَرَتْ الْحَوَادِثُ مُتَلَاحِقَةً، نَدَّتْ عَنِ الرَّجُلِ صَرْخَةٌ كَالْعُوَاءِ، وَفِي ذَاتِ الْوَقْتِ انْطَلَقَتْ صَرْخَاتُ الْفَرْعِ مِنَ الْمَارَّةِ الْوَاقِفِينَ عَلَى الطُّوَارِ، وَفَوْقَ إَفْرِيزِ مُحِطَّةِ التَّرَامِ. صَدَرَ عَنْ (فَرْمَلَةِ الْفُورْدِ) صَوْتُ

(1) ماذا يُمكنُ أَنْ
تستنتجَ مِنَ الْعِبَارَةِ
الَّتِي تَحْتَهَا خُطٌّ؟

(2) أَيُّ سَبَبٍ تُرْجِحُ
لِإِهْمَالِ الرَّجُلِ
مَظْهَرَهُ؟ لِمَاذَا؟
مَا لَصِفَاتُ الَّتِي
تَكُونُ لَدَيْكَ عَنْ
الرَّجُلِ مِنْ خِلَالِ
وَصْفِ الرَّاوي لَهُ؟

محشرج متشنج ممزق، وهي ترحف على الأرض بعجلات متوقفة جامدة، وهرع نحو الضحية في ثوانٍ عشرات وعشرات كأسراب الحمام، حتى تكون منهم سور غليظ منيع، وانتشر في المنطقة الهرج.

ولم ينبض جسم الرجل بحركة واحدة، وكان منكفئاً على وجهه، ولا يجرو أحد على لمسه، وإحدى رجليه ممدودة إلى آخرها، والأخرى منثنية منحسرة (البنطلون) عن ساق نحيلة غزيرة الشعر، وقد فقدت حذاءها، وتغشاها صمت بخلاف كل شيء حوله، وكأن الأمر لا يعنيه البتة، الرجل وهو يرتفع في الفضاء أمتاراً، ثم يهوي فوق الأرض كشيء³، وألصق سائق الفورده ظهره بالسيارة من باب الحيط، وراح يخاطب مجموعة من الحفاة أهدقت به على سبيل المراقبة:

(3) بم يوحى تشبيه الرجل بالشيء؟

* لا ذنب لي، اندفع هو من أمام اللوري فجأة، وبسرعة، ودون أن ينظر إلى يساره كما يجب، وإذا لم يجد وجهاً مستجيباً، عاد ليقول بلهجة خطابية:

* لم يكن بالإمكان أن أتجنب الصدمة. وند عن المصاب صوت كالزفير المكتوم، وتحرك حركة شاملة مباغتة، ثانية واحدة، ثم غرق في اللامبالاة.

- لم يمت! حي.

- لعلها إصابة بسيطة.

- لكنه طار في الهواء والعياذ بالله!

- ولو، عفواً ربنا كبير...

- لا يوجد دم؟

- عند فيه، انظر...

- كل ساعة حادث من هذا النوع.

وجاء شرطيٌ مسرعاً، وفتح له وقع قدميه ثغرةً في السورِ الآدمي،
نفذ منها وهو يصيحُ بالناس أن يتعدوا خطواتٍ، خطواتٍ فقط،
وعينهم لا تتحوّل عن الرجل، ولا تُخفي حدة تطلّعها وإشفاقها،
وقال إنسان⁴:

- سيبقى هكذا حتى يموت، ونحن لا نفعل شيئاً؟!

فأجابهُ الشرطيُّ بلهجةٍ رادعة:

- أقلّ لمسةً قد تقتله، و(بوليس) النجدة والإسعاف في الطريق

إليه..

واعترض الحادثُ جانبَ الطريق؛ فاضطرت السيارةُ إلى
الالتفافِ حَوْلَ السورِ البشريِّ مُشاركةً الترام في ممشاه، فضاقَ
بها حتى تحرّكت في بطنٍ شديدٍ، وتجمّعت في صفوفٍ ممتدةٍ
ومُتداخلةٍ، وهي تصرخُ وتعوي بلا فائدةٍ، ومن رُكابها تطلّعت
أعينٌ إلى الضحّة في اهتمامٍ، وأعينٌ تجنّبت النظرَ في جزعٍ، وجاءَ
(بوليس) النجدة وراء صفّارته الحلزونية فاتسعت الحلقة، وغادرت
القوّة السيّارة إلى الرجلِ الملقى، وكان الضابطُ حاسماً وحازماً،
فأصدرَ أمراً بتفريق المتجمّعين، وتفحصَ الرجلَ بنظرةٍ شاملةٍ،
وسأل الشرطي:

- ألم تحضر الإسعاف؟

وإذ لم تكن ثمة ضرورةٌ إلى السؤال، فإنه لم يلقِ بالاً إلى

الجواب، وتساءل مرةً أخرى:

- هل من شهود؟

(4) ما الدلالة التي توجي
بها كلمة "إنسان"؟
لماذا لم يقل "رجل"؟

فتقدّم ماسحُ أحذية، وسائقُ (لوري) وصبيُّ (كبابجي) كانَ عائداً بصينيّة فارغة، وأعادوا على مَسْمَعِ الضَّابطِ ما حدثَ منذُ كانَ الرَّجُلُ المَجْهُولُ يتكلّمُ في التّلفون، وجاءتُ سيّارَةُ الإسعافِ، وأحاطَ رجالُها بالرَّجُلِ، وتفحصَهم رئيسُهم بعنايةٍ وحَذَرٍ، وهوَ يجلسُ القُرْفُصَاءَ، ثمَّ نهَضَ متوجّهاً إلى الضَّابطِ، فبادرَهُ هذا قائلاً⁵:
- أظنُّ يجبُ نقلُهُ إلى الإسعافِ.

(5) بِمَ تُوحي تسميَةُ الرَّجُلِ المَجْهُولِ؟

فقالَ الآخرُ بلهجةٍ ذاتِ أثرٍ لا يختلفُ عنِ الأثرِ الَّذي يحدثُ عادةً عن جرسِ سيارته:
- بل يجبُ نقلُهُ إلى مُستشفى الدّمرداشِ..
وأدركَ الضَّابطُ ما يعنيه ذلكَ، على حينَ استطرَدَ رَجُلُ الإسعافِ قائلاً:

- أعتقِدُ أنَّ الحالةَ خطيرةٌ جدًّا.
وعندما أرقَدَ الرَّجُلُ بحجرةِ الفحصِ بمُستشفى الدّمرداشِ كانت طلائعُ اللَّيلِ تزحفُ كالجبالِ، وفحصَهُ مَديرُ القسمِ بنفسِهِ، ثمَّ التفتَ إلى مُساعدِهِ قائلاً⁶:

(6) ضَعُ خطًّا تحتَ الجملةِ التي تُشيرُ إلى تأخُرِ وصولِ الإسعافِ إلى المُستشفى.

- إصابةٌ خطيرةٌ في الرّئَةِ اليُسرى، تُهدِّدُ القلبَ مُباشرةً..
- عمليّةٌ؟

فهزَّ رأسَهُ قائلاً:

- إِنَّهُ يُحْتَضَرُ..
وصدقتُ فِرَاسَةَ الطَّبيبِ، فقدَ تحرَّكَ الرَّجُلُ حركةً شاملةً كالرَّعْشَةِ، واضطربَ صدرُهُ، اضطراباً مُتلاحِقاً مُحْشِرِجاً، ثمَّ شَهَقَ شَهَقَةً خفيفةً، واستكَنَ، وكانَ الطَّيِّبانِ يراقبانِهِ، فالتفتَ المَديرُ نحوَ

مُساعده وهو يقول:

- انتهى...⁷

وجاء ضابطُ النقطة، وكان الرجلُ ما يزالُ راقداً بكاملِ ملابسه
عدا فردةَ الحذاءِ المفقودة.

وقال الطبيبُ:

- هذه الحوادثُ لا تنتهي..

فقال الضابطُ وهو يوميءُ إلى الفقيد:

- وشهادةُ الشهودِ ليستُ في صالحه!

ثم، وهو يقتربُ من السرير:

- أرجو أن نستدلَّ على شخصيته.

وشرعَ في عمله على حينَ بسطِ (الشاويش) المرافقِ له ورقةً
فوقَ منضدةٍ، وتأهبَ بدوره لتسجيلِ المحضرِ.. ودسَّ الضابطُ يدهُ
برفقٍ في جيبِ الجاكيتِ الداخلي؛ فاستخرجَ حافظةَ نقودٍ قديمةً
متوسّطةَ الحجم، ومضى يفتشها جيئاً جيئاً، ويُملي على الشاويش⁸:
- خمسةٌ وأربعونَ قرشاً من العملةِ الورقية.

- (روشته) للدكتور فوزي سليمان..

وألقى نظرةً عابرةً على أسماءِ الأدوية، ولكنهُ لاحظَ وجودَ كتابةٍ
على ظهرها أيضاً، فجرَّه بصره عليها بلا إرادةٍ، فإذا بها: البيضُ
والدهنيَّاتُ ممنوعةٌ، ويُستحسنُ تجنبُ المنبهاتِ كالشاي والقهوة
والشيكولاتة، وابتسمَ الضابطُ ابتسامةً باطنيةً؛ إذ إنَّ تعليماتٍ مماثلةً
صدرتُ إليه من طبيبه في نفسِ الشهر! ثمَّ واصلَ إملاءه، وأصابه
تستخرجُ من الحافظةِ محفوظاتها:

- مجلَّدٌ صغيرٌ من السُّورِ القرآنيَّةِ..

(7) ما التغيُّرُ الذي طرأ
على الشخصية منذ
بدايةِ القصةِ حتى
هذه اللحظة؟

(8) كيف صوِّرَ الراوي
تعامُلَ الطبيبِ
والضابطِ معَ الرجلِ
المجهولِ؟

ولمّا لم يجد شيئاً آخر في الحافظة قال بضيق:

- لا توجد بطاقة تحقيق شخصية!

وانتقل إلى الجيب الداخلي، وما لبث أن قال بفتور:

- ثلاثة قروش ونصف، عملة معدنية.

وتوالى التفتيش، وتتابع الإملاء:

- منديل، سلسلة مفاتيح، ساعة يد...⁹

وكان آخر ما عثر عليه صفحة مطوية من كراسة، فبسطها، فوجدها رسالة لم تغلف بمظروفٍ بعد، فأمل أن يُصادف فيها ما يمكن أن يستدل به على شخصية الرجل، نظر أول ما نظر إلى الإمضاء، ولكنه لم يزد عن (أخوك عبد الله)، فعاد إلى رأس الصفحة، ولكن الرسالة كانت موجهة إلى (أخي العزيز أدامه الله) فاستاء من هذه المعاندة، ولم يجد بُدّاً من قراءتها.

أخي العزيز أدامه الله

اليوم تحقّق لي أكبر أمل في الحياة.

اضطرّ إلى التوقّف رافعاً عينيه إلى تاريخ الرسالة، وكان تاريخ اليوم نفسه 20 فبراير، وامتدّ بصره فوق الأسطر إلى الوجه الباهت المشوب بزرقّة مخيفة، المغلق كسرّ، الجامد كتمثال، ذلك الذي تحقّق له أكبر أمل في الحياة¹⁰، وتساءل الطبيب:

- عثرت على شيء؟

فانتبه إلى نفسه، وابتسم ابتسامة استهانة؛ ليدلّ على اعتياده أيّ

شيء، وقال:

- اليوم تحقّق لي أكبر أمل في الحياة، بذلك بدأت الرسالة!

(9) سجّل استنتاجاتك عن الشخصية من خلال الجمل التي كان الضابط يُملئها على (الشاويش)، وما كتب على ظهر الوصفة الطبية؟

(10) في هذه الفقرة مفارقة صارخة. ما هي؟ وما تأثيرها في مشاعرك تجاه الشخصية؟

وعادَ إلى القراءة متجنباً النَّظَرَ إلى عيني الطَّيِّبِ: فقد انزاحت
عنْ صدري الأعباء المَريَرة، انزاحت جميعاً والحمدُ لله، أَمِينَةٌ
وبهيئةً وزينبُ في بيوتِهِنَّ، وها هوَ عليٌّ يتوظَّفُ، وكلّما ذكرتُ
الماضي بمتاعِبِه وكَدْحِه وقلْقِه وشقائِه أحمَدُ الله المَنَّانَ، وهذا هوَ
النَّصْرُ المَبِينُ.

واسترق النَّظَرَ مرّةً أخرى إلى الإنسانِ الرَّاحِلِ، الذي لا يذري
أحدٌ مَقَرَّهُ، الذي يثيرُ الدَّهْشَةَ بصمْتِه، وانعزاله وارتدادِه العميقِ
إلى المجهولِ، المتاعِبُ والقلْقُ والشَّقَاءُ والأملُ الكبيرُ والنَّصْرُ
المَبِينُ! وبعدَ تفكيرٍ طويلٍ قرَّرَ رأيي على تركِ الخدمَةِ فعلاً. فهيهاتَ
أنْ تَحَسَّنَ صَحَّتِي طالما بقيتُ في المدينة، وحسبتُ الحِسْبَةَ،
فوجدتني أخدمُ في الحكومة بثلاثِ جُنيهاتٍ، هيَ الفرقُ بينَ
المُرتَبِ والمعاشِ، ولذلك قرَّرتُ أنْ أطلُبَ إحالتي على المعاشِ،
وقريباً أعودُ إلى البلدِ إن شاءَ الله، وسوفَ أنضمُّ إلى مجلسِ
الظَّريفِ عندَ عبدِ التَّوابِ شيخِ الخَفَرِ، أمّا الآنَ فكلُّ شيءٍ بخيرٍ،
وليسَ في الإمكانِ خيرٌ ممّا كانَ¹¹.

وطوى الضَّابطُ الرِّسالةَ وهو يقولُ:

- إِنَّهُ مَوْظَفٌ كَمَا يُفْهَمُ مِنْ خُطابِه، ولكنَ ليسَ بِهِ ما يُمكنُ
الاستدلالُ على هُويَّتِه.

فقال الطَّيِّبُ:

- سَتَتَّخِذُ الإِجْراءاتِ المألُوفَةَ، وغالبًا ما يَجِيئُ أَهْلُهُ في الوَقْتِ

المُناسِبِ، فيتسلَّمونَ الجُثَّةَ مِنَ المَشْرِحَةِ.¹²

(11) أكمل وصفك
للشخصية من
خلال ما تستنتج
عنها في هذه
الفقرة.

(12) بم يوحى وصف
الطبيب للرجل بأنه
(جثة)؟

نظارة طبيّة لسائق باكستاني عجز^{*} مريم الساعدي

بدت الرؤية مُضَيَّبَةً. أخرج منديلاً من جيبه. خلع نظارته. الإشارة حمراء. قبل أن يرفع المنديل إلى زجاج النظارة، سقط المنديل سهواً تحت الكرسي، انحنى لالتقاطه، سقطت النظارة، نزل يبحث عنها، لمسها، قبل أن يمسكها اندفعت إلى تحت المقعد، الأبواق ترتفع، تطلبه بالتحرك، الإشارة خضراء، يتمهل قليلاً علّه يلتقطها، الأبواق تزمجر، الرجل لا يرى بوضوح من دونها، يتحرك، هو يعرف أوظيفي جيداً، يعرف شوارعها، يحفظها عن ظهر قلب، هو سائق من ثلاثين عاماً، لكن، هناك تعديلات كثيرة الآن، وتحويلات الشوارع غيرت مجرى كل الطرقات، حسناً، سيقود إلى الأمام، فقط إلى الأمام وبتمهل تام. السيارات أشباح أمامه، لا شيء يبدو محدّد الملامح، لا بأس سيستمر في التقدّم إلى الأمام حتى الإشارة الحمراء التالية، سيجد هذه النظارة اللعينة.

هو سائق ماهر، يمكن أن يقود مُغْمَض العينين كما يقول المثل، لديهم أقوال ماثورة كثيرة في بلده، يتصور أنهم لا يمتلكون سوى الأقوال الماثورة، ويضحك بينه وبين نفسه هازاً رأسه في أسف على حال بلده. تمنى لو كان لديهم أقوال ماثورة أقلّ وحسن إدارة أكثر «لكن هل هو حقاً حُسن إدارة؟» ربّما هو نقص المال؟ ربّما هي الأطماع الخارجية؟ ربّما هي الأطماع الداخليّة؟¹ «يتساءل وهو يستمع إلى الراديو، يحمّد الله أنّه يسمع جيداً. لن يخشى وقوع سماعة الأذن وبالتالي يفقد

(1) ما إحساس الشخصية نحو بلدها؟

* أبدو ذكية (2009)، دار العالم العربي للنشر والتوزيع، دبي

السَّمْعَ» السَّمْعُ نِعْمَةٌ، كُلُّ الحَوَاسِّ الخَمْسِ نِعْمَةٌ، يَا اللَّهُ! كَمْ هذا كَرِيمٌ! أَنْ نَمْتَلِكَ هذه الحَوَاسِّ الصَّغِيرَةَ، مُجَرَّدُ تَجْوِيفَيْنِ فِي الرَّأْسِ مِنَ الأَمَامِ، وَمِنْ الْجَانِبَيْنِ لِنَرَى العَالَمَ الأَكْبَرَ، وَنَسْمَعَ أَنْغَامَهُ وَأَخْبَارَهُ، وَنَكُونُ بِسَبَبِ هذه التَّجَاوِيفِ أَشْخَاصًا أَكْثَرَ قُرْبًا مِنَ العَالَمِ، وَأَكْثَرَ التِّصَاقًا بِالْآخِرِ الَّذِي يُشَبِّهُنَا فَلَا نَشْعُرُ بِالوَحْدَةِ. فَعَلَّا كَمَا قَالَ المَثَلُ: «الصَّحَّةُ تُسَاوِي أَلْفَ هِبَةٍ أُخْرَى». الشُّعُورُ بِالوَحْدَةِ مِثْلُ الشُّعُورِ بالضَّلَالِ، أَخَذَ يُفَكِّرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ.

(2) ماذا تُسمِّي هذه اللِّحْظَةَ فِي زَمَنِ القِصَّةِ؟

² تَذَكَّرَ أَوَّلَ مَرَّةٍ دَخَلَ فِيهَا مَرَكَزَ تَسْوِيقٍ، شَعَرَ بِأَنَّهُ وَحِيدٌ، بِأَنَّهُ ضَالٌّ، كَانَتِ الأَصْوَاتُ عَالِيَةً، أَصْوَاتٌ كَثِيرَةٌ، صَدَى الأَصْوَاتِ فِي الوَاقِعِ، تَتَّبَعُ مِنَ الأَرْضِيَّاتِ الرُّخَامِيَّةِ، الوَاجِهَاتِ الزُّجَاجِيَّةِ، الأَسْقُفِ اللَّامِعَةِ، حَتَّى مُجَرَّدُ تَنْفُسِ الْوَاحِدِ يُتَبَّجُ صَوْتًا تَتَرَدَّدُ أَصْدَاؤُهُ فِي كُلِّ الأَرْكَانِ، وَكَانَ المَرَكُزُ مُكْتَظًّا بِكُلِّ أَشْكَالِ البَشَرِ، كَانَ قَدْ أَوْصَلَ زَبُونًا إِلَى دُبَيٍّ، فَفَكَّرَ فِي التَّوَقُّفِ لِبَعْضِ الوَقْتِ، وَاكْتِشَافِ هذه الأَمَاكِنِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا (المولات) ثُمَّ أَرَادَ حِينَ يَعُودُ إِلَى بَلَدِهِ أَنْ يَحْكِيَ لِأَحْفَادِهِ مَاذَا رَأَى فِي دُبَيٍّ، مَدِينَةِ العَجَائِبِ، يَعْنِي قَالَ لِنَفْسِهِ: مِنْ غَيْرِ المَعْقُولِ أَنْ أَحْيَا ثَلَاثِينَ عَامًا فِي هذا البَلَدِ دُونَ أَنْ أَرَى سِوَى إِسْفَلَتِ الشُّوَارِعِ³.

(3) مِنْ هذا السَّطْرِ كَيْفَ تَتَصَوَّرُ حَيَاةَ هذا السَّائِقِ؟

لَمْ يَسْتَوْعِبِ المَشْهَدَ فِي البَدَايَةِ عِنْدَمَا خَطَا خَطَوَاتِهِ الأُولَى إِلَى دَاخِلِ المَوَلِ، كَانَ المَكَانُ غَيْرَ مَفْهُومٍ تَمَامًا، وَاجِهَاتُ بَرَّاقَةٍ كَثِيرَةٍ، وَنَاسٌ كَثِيرُونَ، رَأَى تَجَمُّهَاتٍ كَثِيرَةً، لَكِنْ هُنَاكَ بَدَأَ الأَمْرُ مُخْتَلِفًا، يَبْدُونَ أَشْخَاصًا مُتَمَيِّنِينَ لِلْمَكَانِ، لَيْسَ مُجَرَّدُ تَجَمُّهٍ، كَأَنَّهُمْ قَدْ وُلِدُوا فِي المَوَلِ، وَهُوَ لَمْ يَسْتَوْعِبِ المَشْهَدَ بَعْدُ. تَوَقَّفَ لِحِظَاتٍ يُلْقِي نَظْرَةً عَامَّةً عَلَى المَكَانِ، تَجَوَّلَ

قليلاً، كانت الرؤية جيدة، لكن فقط بدت الألوان والأضواء كثيرة بالنسبة لعينيه اللتين لم تتعودا كل هذا اللون والضوء في مكان واحد مرة واحدة، ارتأى أن يجلس بعض الوقت في أحد المقاعد القريبة «آه.. المكان مبهّر، لا أدري مع ذلك من أين يأتي كل هذا اللّمعان، أتراها أرضيات مذهّبة؟» تساءل بينه وبين نفسه «يا لي من أحمر! حتماً هي فقط شدة النظافة وجودة المواد المستخدمة. حسناً ربّما عليّ التحرك الآن لرؤية المزيد، لن أتوقّف هكذا كل يوم لأرى أكثر شيء ممكن».

كان يحدث نفسه طوال الوقت؛ ليَشْعُرَ بالألفة، ليقاوم ذاك الشعور الغريب الذي اجتاحه حال وطئت قدماه عتبة المركز، ذاك الشعور بأنه لا ينتمي. بأنه غير مرئي. بأنه غير موجود. يكره هذا الشعور، لذلك حرص دوماً ألا يخرج من سيارته إلا إلى رفاقه من السائقين. هم يشبهونه، ويشعر بأنه مهمّ، هو بينهم حكيم ووقور، وكلامه مسموع، ورايه له ثقل ووزن ومعيّار، هنا يشعر بأنه.. بأنه لم يستطع تحديد شعوره بالضبط في ذاك الوقت، أراد فقط التغلب عليه⁴، تجاوزّه، لا يجب أن يهزم أيّ مكان - مهما يكن براقاً وصاحباً - رجلاً عجوزاً عرّف الدنيا والناس. المعرفة آمن دوماً، إنها تذكّرة دخول الإنسان إلى أيّ مكان في العالم، حين تكون «عارفاً» يكون مرحّباً بك في أيّ مكان، فلا داعي للتصرّف، وكأنك ولد صغير، أو قروي جاهل لا يعرف من أيّ طريق يتّجه، كيف يستخدم دورات المياه الحديثة. هو رجل عرّف «الدنيا» وكلّ شيء بعد ذلك تافه وصغير ومقدور عليه. قرّر التوجّه إلى أحد السلاّيم المتحرّكة أمامه، وصل للطابق الثاني، تجوّل قليلاً، واجهات أخرى كثيرة، محلات،

(4) كيف كان يشعر حين كان في المول؟ وكيف هو شعوره حين يكون بين زملائه؟

مَلَابِس، أَحْذِيَّة، حَقَائِب، مُجَوَهَرَات، سَاعَات، تَسَاءَل: هَلْ حَقًّا يَحْتَاجُ النَّاسُ كُلَّ هَذِهِ الْبَضَائِعِ؟ مَاذَا يَعْنِي أَنْ يَكُونَ لَدَيْكَ مَلَابِس، وَأَحْذِيَّة، وَحَقَائِب، وَسَاعَات، وَمُجَوَهَرَات كَثِيرَةٌ؟ كُلُّ هَذِهِ أَشْيَاءٌ لِتَزِينِ الْجَسَدِ، لِمَاذَا كُلُّ هَذَا الصَّرْفِ وَالْعَنَاءِ لِأَجْلِ الْجَسَدِ؟ مَاذَا بَقِيَ لِتَزِينِ الرُّوحَ؟ هُمْ يُزَيِّنُونَ الْجَسَدَ لِيُعَالِجُوا الرُّوحَ. قَالَ زَمِيلُهُ السَّائِقُ فِي وَقْتٍ سَابِقٍ، كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الْأَثْرِيَاءِ وَكَيْفَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ، فِي الْوَقَاعِ كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ عَنِ زَمِيلٍ لَهُمْ بَتَرَتْ قَدَمُهُ فِي حَادِثٍ، وَتَشَاوَرُونَ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَجْمَعُوا لَهُ الْمَالَ لِشِتْرِي قَدَمًا اصْطِنَاعِيَّةً ثُمَّ تَطَرَّقُوا لِلْأَثْرِيَاءِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ يَتَسَقَّطُونَ أَخْبَارَ الْفُقَرَاءِ لَيُفَكِّوْا أَزْمَاتِهِمْ الطَّارِئَةَ. هُمْ لَمْ يَتَحَدَّثُوا عَنِ رَغْبَتِهِمْ فِي أَنْ يَكُونُوا هُمْ أَنْفُسُهُمْ أَثْرِيَاءَ. بَدَتْ مُجَرَّدُ هَذِهِ الْأُمْنِيَةِ غَيْرَ مَنْطِقِيَّةٍ. فِي النَّهَايَةِ يَجِبُ أَنْ يَقُومَ أَحَدٌ بِدَوْرِ الْعَامِلِ وَالسَّائِقِ، لَا يُمْكِنُ لِلْكُلِّ أَنْ يَكُونُوا أَثْرِيَاءَ بِحُجَّةِ الْعَدَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ؛ لِذَلِكَ يَحْرِصُونَ دَوْمًا أَنْ تَكُونَ أُمْنِيَاتُهُمْ مَنْطِقِيَّةً. لَيْسَ مِنَ السَّيِّئِ أَنْ تَكُونَ سَائِقًا. هُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ فُقَرَاءَ. فَالْفَقِيرُ هُوَ مَنْ لَا يَجِدُ مَا يَأْكُلُهُ. وَهُمْ يَجِدُونَ مَا يَأْكُلُونَ، وَيَسْتَتِرُونَ جَيِّدًا بِشِيَابٍ وَافِيَةٍ غَيْرِ مُمَزَّقَةٍ. رَبَّمَا تَتَمَزَّقُ الْأَحْذِيَّةُ أحيانًا، لَكِنَّ هَذَا طَبِيعِيٌّ، يَعْنِي كَيْفَ تَتَوَقَّعُ مِنْ حِذَاءٍ تَسِيرُ بِهِ عَلَى أَرْضٍ مُخْتَلِفَةٍ بِكُلِّ ثِقَلِكَ أَنْ يَظَلَّ مُحْتَفِظًا بِهَيْئَتِهِ طَوَالَ الْوَقْتِ. عُمُومًا يَسْتَطِيعُونَ تَغْيِيرَ الْحِذَاءِ الْمُهْتَرِئِ، لَكِنَّ غَالِبًا يُفَضِّلُونَ الصَّبْرَ لِلرَّمَقِ الْآخِرِ، قَدْ تَأْتِي حَاجَةٌ مُلِحَّةٌ أَكْثَرُ لَصَرْفِ الْمَالِ فِيهَا. مِثْلُ تَوْفِيرِ مَبْلَغِ الْقَدَمِ الْاصْطِنَاعِيَّةِ لِزَمِيلِهِمُ الْمُسْكِينِ. سَيَسِيرُ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ بِأَحْذِيَّةٍ مُمَزَّقَةٍ، يَعْلَمُونَ تَبِعَاتِ قَرَارِهِمْ ذَاكَ.

بعدَ تجوالٍ طويلٍ اصطَدَمَ أنْفُهُ بِرائحةٍ أطعِمةٍ، كانتِ المَطاعِمُ مُصطَفَّةً في تنوُّعٍ كبيرٍ، اتَّجَهَ لِأَقْرَبِهَا إِلَيْهِ، توجَّهَ إلى البائعِ الواقِفِ خَلْفَ طاوِلَةٍ مُسْتَطِيلَةٍ، طَلَبَ بِلُغَتِهِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُكْسَّرَةِ (ساندويتشًا)، الرَّجُلُ لَمْ يَسْمَعْهُ، طَلَبَ إِلَيْهِ الْإِعَادَةَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ، كَانَ صَدَى الضَّوْضَاءِ يُشْعِرُهُ بِالصَّمَمِ، أَعَادَ طَلَبَهُ، الرَّجُلُ يَسْأَلُهُ عَنْ أَيِّ نَوْعٍ (ساندويتشٍ) يَتَحَدَّثُ، لَمْ يَفْهَمْ مَا يَقُولُ، الْبَائِعُ يَبْدُو فَلَبِينِيًّا، لَا يُجِيبُ الْعَرَبِيَّةَ تَمَامًا، وَهُوَ لَا يُجِيبُ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ، حَسَنًا، بَدَا الْبَائِعُ نَافِدَ الصَّبْرِ، يُكْرِّرُ سُؤَالَهُ عَنْ طَلَبِهِ، بَدَتْ مَلَامِحُهُ حَادَّةً، وَحِينَ لَمْ يَتَلَقَّ مِنْهُ إِجَابَةً فُورِيَّةً تَجَاهَلَهُ لَزَبُونٍ آخَرَ. وَقَفَ مَكَانَهُ، شَعَرَ بِالْإِحْرَاجِ، دَوْمًا تَصَوَّرَ أَنَّ لُغَتَهُ الْعَرَبِيَّةَ جَيِّدَةٌ، وَأَنَّ سَمْعَهُ جَيِّدٌ. وَأَنَّ النَّاسَ يَحْتَرِمُونَهُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ بَدَتْ كُلُّ تِلْكَ الْحَقَائِقِ مَوْضِعًا لِلشَّكِّ⁵.

(5) ما إحساسك تجاه الشخصية في هذه اللحظة؟

قَرَّرَ التَّخَلِّيَ عَنْ فِكْرَةِ (الساندويتش) وعَادَ إِلَى سَيَّارَتِهِ. شَعَرَ كَأَنَّهُ يَعُودُ إِلَى الْوَطَنِ، يَتَذَكَّرُ شُعُورَهُ، لَمْ يَشْعُرْ أَنَّهُ يُحِبُّ سَيَّارَتَهُ (التاكسي) كَمَا أَحَبَّهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. أَحَبَّهَا مِثْلَ وَطَنِهِ، مِثْلَ أُمِّهِ.

⁶ تدورُ برأسِهِ كُلُّ هَذِهِ الْأَفْكَارِ وَهُوَ يَقُودُ بِبُطْءٍ فِي خُطٍّ مُسْتَقِيمٍ، مُتَحَمِّلًا زَمَجْرَةَ أَبْوَاقِ السَّيَّارَاتِ الَّتِي تُطَالِبُهُ بِالْإِسْرَاعِ فَالْشَّارِعُ لَيْسَ «شَارِعَهُ» يَسْتَمِرُّ حَتَّى يَنْتَبِهَ لِتَوَقُّفِ السَّيَّارَاتِ أَمَامَهُ وَبِجَانِبِهِ، يُدْرِكُ أَنَّهُ وَصَلَ لِإِشَارَةِ حَمْرَاءٍ، يَحْمَدُ اللَّهَ، يَتَوَقَّفُ، يَبْحَثُ عَنِ النَّظَّارَةِ تَحْتَ مَقْعَدِهِ، بِسُرْعَةٍ، بِسُرْعَةٍ، لَمْ تَكُنْ سُرْعَةً كَافِيَةً، تَفْتَحُ الْإِشَارَةَ، يُضْطَرُّ لِلتَّحَرُّكِ قَبْلَ أَنْ يَلْتِهِمَهُ غَوْلُ الشَّارِعِ الْغَاضِبِ. يَضْغُطُّ عَلَى الْبِنَزِينِ تَحْتَ ضَغْطِ هَدِيرِ الْأَبْوَاقِ، صَوْتُ ارْتِطَامٍ مُفَاجِئٍ وَقَوِيٍّ، وَلَمْ يَعْرِفْ مَاذَا حَدَثَ

(6) ماذا حدث لحركة الزمن هنا؟

بعْدَ ذلك.

يَجِدُ نَفْسَهُ مَحْصُورًا تَحْتَ أَسْيَاحِ السَّيَّارَةِ، يَشْعُرُ بِكُلِّ دَافِيٍّ
يَحِيطُ بِهِ، يَسْمَعُ أَصْوَاتَ النَّاسِ «هَذَا السَّائِقُ الْمُتَهَوِّرُ هُوَ مَنْ
تَسَبَّبَ بِالْحَادِثِ طَوَالَ الطَّرِيقِ يَسِيرُ مِثْلَ سُلْحَفَةٍ ثُمَّ فَجَاءَ
يَدُوسُ عَلَى (الْبَنَزِينِ)»، يَسْمَعُ أَصْوَاتًا أُخْرَى تَرُدُّ عَلَيْهِ «قِيَادَةُ
هَؤُلَاءِ رَعْنَاءُ دَوْمًا، نَعَمْ بِالْأَمْسِ تَسَبَّبَ سَائِقُ (تَاكْسِي) بِدَهْسِ
طِفْلَةٍ، يَجِبُ اسْتِبْدَالُهُمْ، لَا يُجِيدُونَ التَّعَامُلَ مَعَ الْجُمْهُورِ»،
يَسْمَعُ صَوْتَ صَفَّارَةِ الْإِسْعَافِ، يَدُّ تَمْتَدُّ إِلَيْهِ لَانْتِشَالِهِ، صَوْتُ
يَطْلُبُ إِلَيْهِ مَدَّ يَدِهِ خَارِجًا إِذَا كَانَ يَسْمَعُهُ. يَسْحَبُ يَدَهُ مِنْ تَحْتِ
ثِقَلِ مَا، الْمَقْعَدُ رُبَّمَا، تَصْطِدُّمْ بِشَيْءٍ، يُمَسِّكُ بِهِ، يَتَحَسَّسُهُ، إِنَّهَا
نَظَارَتُهُ، يَتَمَسَّكُ بِهَا، الصَّوْتُ يُنَادِيهِ أَنْ يُمَدَّ يَدُهُ، أَنْ يُفْلِتَ قَبْضَتَهُ،
لَكِنْ لَا، أَبَدًا، لَيْسَ مُجَدِّدًا، لَيْسَ بَعْدَ أَنْ وَجَدَهَا.

حتّى آخر رَمَقٍ عائشة الزعابي

وأخيراً..

رَضَخَ زَوْجِي بَعْدَ طَوَّلِ صِرَاعٍ أَنْ يَسْتَدِينَ لِنَسَافِرَ هَذَا الصَّيْفَ.. وَهَلْ كَانَ
يَتَوَقَّعُ مِنِّي تَحْمُلَ حَرَارَةِ صَيْفِنَا وَشَوَائِهِ اللَّاهِبِ؟

اعْتَمَدْتُ عَلَى خِبْرَتِي الْقِيَمَةِ كَأَثْنَى.. أَخَذْتُ نَفْسًا عَمِيقًا وَأَنَا دَاخِلَ
مَعْرَكَةٍ جَدِيدَةٍ أَعْرِفُ نَتَائِجَهَا سَلَفًا.. تَعَبَأْتُ بِالصَّبْرِ وَطَوَّلِ الْبَالِ.. وَزَادَ
(الدَّقُّ) حَتَّى تَفَكَّكْتُ أَوْ صَالَهُ وَاسْتَجَابَ لِطَلْبِي.. كَالْعَادَةِ!

لَمْ أَكُنْ مِنْ أَوْلَئِكَ النِّسْوَةِ اللَّائِي يَنْسَنَ بِسُرْعَةٍ.. وَبِأَنْفِ امْرَأَةٍ خَبِيرَةٍ
عَرَفْتُ مَدَاخِلَ زَوْجِي وَمَخَارِجَهُ.. وَكَلَّ مَسْرَبٍ مِنْ مَسَارِبِهِ، كُنْتُ أَمْلِكُ
سِدَادَتَهُ وَمِفَاتِيحَهُ بِيَدِي.. أُلَوِّحُ بِهَا مَتَى أَشَاءُ وَكَيْفَمَا أَشَاءُ.

«مَرَحَبًا بِكُمْ عَلَى خُطُوطِ الطَّيْرَانِ الْمَالِيزِيِّ.. رِحْلَتُنَا سَتَكُونُ نَحْوَ مَالِيزِيَا..
الرَّحْلَةُ تَسْتَعْرِقُ سَبْعَ سَاعَاتٍ مَعَ تَوْقُفٍ فِي بَاكِسْتَان».

حِينَ حَلَقْتُ بِنَا الطَّائِرَةَ اسْتَرْخَيْتُ عَلَى الْكُرْسِيِّ.. شَعَرْتُ بِالرَّاحَةِ
الْعَمِيقَةِ بَعْدَ قَلْقٍ عَظِيمٍ.. كُنْتُ خَائِفَةً أَنْ تَشْمَتَ بِي جَارَاتِي وَصَدِيقَاتِي
حِينَ يُلْغِي زَوْجِي فِكْرَةَ السَّفَرِ مِنْ أَجَنْدَتِهِ.. وَأَنَا الَّتِي أَلْهَبْتُ مَشَاعِرَهُنَّ
بِالْغِيَرَةِ وَالْقَهْرِ...

- حَبِيبِي أَحْمَدُ.. أَقْسَمَ عَلَيَّ أَلَّا أَبْقَى تَحْتَ شَمْسِ هَذَا الصَّيْفِ.

- عُمَرِي أَحْمَدُ.. مُحْتَازٌ إِلَى أَيْنَ يُسَافِرُ بِي!!

- هَلْ سَافَرْتُ إِحْدَاكُنَّ إِلَى بَلَجِيكَا أَوْ مَالِيزِيَا؟ مُحْتَازَةٌ بَيْنَهُمَا؟

كُنْتُ أَعْرِفُ أَلَّا ظُرُوفُهُنَّ وَلَا ظُرُوفِي تَسْمَحُ بِالسَّفَرِ حَتَّى إِلَى (صَلَالَةِ)

في عُمان.. ولكنّ طَقَمَ الذَّهَبِ الَّذِي هَرَسْتَنِي بِهِ جَارَتِي (علياء) أشْعَلَ قلبي، وَقَلَبَ كَيَانِي.. جَعَلَنِي أَتَقَلَّى فِي فِرَاشِ الْقَهْرِ وَالْغِيَرَةِ.. كَانَ يَوْمًا كَسِيفًا حِينَ جَاءَتْ وَهِيَ تَتَبَاهَى بِالطَّقَمِ وَتَتَعَمَّدُ بِمَنَاسِبَةٍ أَوْ دُونَهَا إِسْقَاطَ الشَّيْلَةِ وَالْعِبَاءَةِ لِيُظْهَرَ الطَّقَمُ مُتَرَبِّعًا عَلَى صَدْرِهَا الْمَكْشُوفِ أَكْثَرَ مِنَ اللَّازِمِ.. تَلَمَّسْتُ يَدَايَ صَدْرِي الْعَارِي مِنَ الذَّهَبِ.. لَتَشْتَعِلَ النَّيْرَانُ وَتَتَأَجَّجَ فِي صَدْرِي الْمَحْقُونِ بِالْغِيَرَةِ.. وَتَحَوَّلَتْ عَيْنَايَ إِلَى طَلَقَاتٍ نَارِيَّةٍ أَقْدِفُهَا فِي وَجْهِ عَلِيَاءَ.. لَيْلَتَهَا لَمْ أَنْمَ.. تَقَلَّبْتُ عَلَى جَمَرَاتِ الْفِكْرِ وَالتَّخْطِيطِ.. كَيْفَ أَرُدُّ الصَّاعَ صَاعِينَ؟ لَوْ اشْتَرَيْتُ طَقْمًا مِثْلَهَا سَتَقُولُ غَارَتْ وَقَلَّدْتَنِي؟.. لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ ضَرَبْتَنِي شَيْئًا مُخْتَلِفًا وَغَيْرَ مَعْهُودٍ بِالنَّسَبَةِ لَهُؤَلَاءِ النَّسْوَةِ الثَّرَاثَاتِ.

فِي الصَّبَاحِ.. كُنْتُ أَوَّلَ الْمُسْتَيْقِظِينَ.. وَقَفْتُ عِنْدَ حُلُقُومِهِ.. كُنْتُ أَرُدُّ عِبَارَةً وَاحِدَةً لَا غَيْرَهَا:

- أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ.

فَرَكَّ عَيْنَيْهِ.. ارْتَسَمَ الْإِنْدهَاشُ فِي وَجْهِهِ.. قَالَ وَهُوَ يُعْضُ عَلَى شَفَتَيْهِ:

- مِنْ أَيْنَ يَحْسُرَتِي؟

- لَا أَعْرِفُ.. تَحَسَّرَ عَلَى رَاحَتِكَ.. أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ.

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ بَدَأَتْ مَعْرَكَةٌ أَشَدُّ مِنْ (دِرْعِ الْجَزِيرَةِ). كَانَ هُجُومًا لَا تَقِفُ أَمَامَهُ لَا الْمُدَرَّعَاتُ الْحَرَبِيَّةُ وَلَا جَنَازِيرُهَا.. سَقَطَتْ رَايَتُهُ.. وَانْبَسَطَتْ قِلَاعُهُ وَخُصُونُهُ الْمَنِيعَةُ أَمَامَ هَدِيرِي الْكَاسِحِ الَّذِي دَابَّتْ عَلَيْهِ لَيْلُ نَهَارٍ، مُنْذُ سَاعَاتِ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ حَتَّى آخِرِ نَفْسٍ مِنَ اللَّيْلِ. كَانَ يَطْنُ مُتَوَهِّمًا أَنَّنِي سَأَسْتَسَلِمُ لِلْوَاقِعِ... وَلَكِنَّ الَّذِي حَصَلَ أَنَّهُ رَفَعَ الرَّايَاتِ الْبَيْضَ وَالْحُمْرَ وَكُلَّ الْأَلْوَانِ، وَهَذَا أَنَا فِي مَقْعَدِي فِي الطَّائِرَةِ..

لَا أَصَدِّقُ نَفْسِي!! كَمْ كُنْتُ أَحْلَمُ بِالسَّفَرِ الْبَعِيدِ وَالتَّجَوُّلِ حَوْلَ الْعَالَمِ..

أشاهدُ (دانية الخطيب) وقافلتها في رحلاتها المختلفة فأعْضُ أنا ملي قهراً وغيظاً، وأنظرُ إلى زوجي الفقير، وأتَحَسَّرُ. لماذا لا تتحقق أحلامنا الكثيرة؟ منذُ وعيتُ على الدنيا وأحلامي مسروقة أو مبتورة.. حلمتُ بإكمالِ دراستي وأن أصبحَ طبيبةً مشهورةً، لكنَّ رُسوبي المتكررَ زَجَّ بي بينَ جدرانِ بيتي الكئيب.. تخيلتُ زوجَ المستقبلِ غنياً سيحملني على كُفوفِ الراحةِ فإذا أنا خادمةٌ في بيتِ أبيه الكبير¹.. رضيتُ به وأردنُهُ زوجاً يصنعُ مِنَ المتعِ الصغيرةِ أفرحاً كبيرةً فإذا به لا يعرفُ شرقَ الأرضِ من غربها.. ولا يملكُ سوى قلبٍ طيبٍ للغاية. وعقلِ صديٍّ للغاية²!! كلُّ أحلامي بعيدة.. إلا هذا الحلمَ الوحيدَ الذي انتزعته من سماءاتِ المستحيل.

(1) كيف ترى الشخصية/ الراوية نفسها؟ وعلام يدل ذلك؟

(2) كيف ترى الشخصية/ الراوية زوجها؟ علام يدل ذلك؟

- سعيدةٌ يا حبيبتي؟ لم أكنْ أرغبُ في إشعاره بأنه حقَّقَ مُعْجزةً.. لويتُ شفاهي :

- إلى أينَ يا حسرتي.. ليستُ إلّا ماليزيا.. الناسُ تُسافرُ إلى بلجيكا.. إلى أوروبا.. إلى أستراليا..

أطبقُ يدي على فمي، وهو يُحوّلُ ويَتِمِّمُ بعبارةٍ، لم يرغبِ مزاجي الرائقُ في فكِّ رُموزها كعادتي معه.

ما أجملَ السُّحبَ البيضاء! تبدو ككتفِ القطنِ الناعمة.. هل نحنُ فعلاً مُعلّقونَ بينَ سماءٍ وأرضٍ؟! كُنْتُ كالبلهاءِ أصورُ كلَّ شيءٍ، السُّحبُ.. كراسي الطائرة.. حتّى الوجبة التي تناولتها في الطائرة.. ربّما لا تُصدّقني الجاراتُ؛ فتكونَ دليلَ إثباتٍ!

- كم مَضَى مِنَ الوقتِ؟ سألتُهُ مُتلهّفةً..

- ثلاثُ ساعاتٍ وأكثر..

ياه.. رحلةٌ طويلة. لا بأس، كلُّ شيءٍ يهونُ من أجلِ إغَاظَةِ (علياء)

وتوابعها. فكّرتُ في أن أتصل بها فور وصولي المطار.. لكن تُصدّق أنني فعلاً سافرتُ.. أريدُ أن يتعكّر مزاجها ويسوء يومها.

كانت دائماً ندياً لي، في المدرسة والحَيّ، تتباهى بجمالها الأخاذ وطولها الفارع، وحين تزوّجت، خطفت من مأل له قلبي منذ صغري.. لم يشعر بوجودي في ظلّ (علياء) كانت العيون لا ترى إلا جمالها.. ولا تتبّع إلا أخبارها، من أخواتهم وأمهاتهم الدّاخلات والخارجات من بيتهم الكبير.

وحين تزوّجت.. كان زواجها حلم كل فتاة.. أمّا أنا فكان زواجي تقليدياً.. لم أفرح ولم أحزن.. حتى زوجي لم يظهر أي شعور بنشوة الانتصار، بأنّه فاز بي من دون شباب الحَيّ، وأنّه استحقني بجدارة كما فعل زوج (علياء)، لو كان فعلها لما جعلتها ندياً لي في عقلي وحياتي. كانت تتعمّد زيارتي دائماً لإغاظتي والنكايّة بي.. وقرّرتُ أن أعاملها بالمثل³.

(3) كيف ترى
الشخصيّة/الراويّة
صديقته/علياء؟
علام يدل ذلك؟

انتبهنا على صوت قائد الطائرة.. طلب إلينا ربط الأحزمة فهناك مطبات هوائية.. صرختُ في زوجي:

- هل نحن نسير في الشارع؟ من أين جاءت هذه المطبات؟

- اذكرني الله.. لقد فضحتنا.

لم أنتظر الرد.. بدأت الطائرة تقفز كضفدعة فزعة.. ثم ارتجت رجّة عيفة.. بدأت أسمع صراخاً ولغطاً.. ورأيت المضيفات يتراكن لتهدئة الأطفال الذين شرعوا في البكاء.. وساد المكان توتر شديد.

عاد صوت قائد الطائرة يدعونا للتمسك جيّداً.. مطبّ هوائي جديد.. الرجل الذي يجلس أمامي بدأ يقرأ سورة البقرة من مصحفه.. بعض الركاب بدؤوا يسمّون ويحوقلون.. وزوجي يردّد الشهادتين ويقرأ آية الكرسي.. إذن.. الأمر خطير!! اهتزت الطائرة اهتزازاً أقوى من المرة

السَّابِقَةِ.. شَعَرْنَا بِالْمَيْلَانِ.. بَدَأَ الْجَفَافُ يَرْحَفُ إِلَى حَلْقِي.. انْحَبَسَ صَوْتِي.. كَانَ الْمَطَرُ يَهْطُلُ فِي الْخَارِجِ.. وَنَحْنُ الْآنَ بَيْنَ سَمَاءٍ وَأَرْضٍ فِي عُلْبَةٍ حَدِيدِيَّةٍ.. تَتَمَايَلُ كَسَفِينَةٍ وَرَقِيَّةٍ فِي بِرْكَةِ مَاءٍ.. رَكِبَ الْخَوْفُ صَدْرِي وَالتَّصَقَّ بِضُلُوعِي.. انْكَمَشَتْ كَفَّارَةٌ مَذْعُورَةٌ.. كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى زَوْجِي بَعَيْنَيْنِ قَفْزَتَا مِنْ مُحْجَرَيْهِمَا.. مَاذَا لَوْ؟ مَاذَا لَوْ كَانَ هَذَا آخِرُ الْمَطَافِ؟ طَارَ لَوْنٌ وَجْهِي، وَتَلَوَّنَ بِكُلِّ الْأَلْوَانِ إِلَّا لَوْنَ الْحَيَاةِ.. قَرَأْتُ الْخَوْفَ وَالذُّعْرَ عَلَى وَجْهِ زَوْجِي الَّذِي أَمْسَكَ بِيَدِي، وَبَدَأَ يَقْرَأُ وَيُرَدِّدُ الْآيَاتِ وَالْأَدْعِيَةَ. أَمْسَكَ بِي الذُّعْرُ وَقَلْبَنِي كَيْفَ شَاءَ.. نَبَتَ النَّدَمُ، وَتَجَدَّرَ، وَأَوْرَقَ فِي صَدْرِي الْمَرْعُوبِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي... سَيَغْفِرُ مَاذَا؟ مَا أَكْثَرَ ذُنُوبِي وَأَبْشَعَهَا؟ أَهْ.. لَيْتَنِي مَا تَكَاسَلْتُ عَنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ حَتَّى خَرَجَ وَقْتُهَا.. لَيْتَنِي مَا تَطَاوَلْتُ عَلَى زَوْجِي الْمُسْكِينِ، وَلَمْ أُجْبِرْهُ عَلَى الْاسْتِدَانَةِ.. يَقُولُونَ إِنَّ رُوحَ الْمَيِّتِ الْمَدِينِ لَا تَصْعَدُ إِلَى سَمَاءِ رَبِّهَا، فَذِيُونُهُ تُكَبِّلُهُ وَتَقْيِيْدُهُ حَتَّى لَوْ كَانَ شَهِيدًا. لَكِنَّهُ سَيَكُونُ شَهِيدًا.. فَلَقَدْ صَبَرَ عَلَيَّ كَثِيرًا.. وَاحْتَمَلَ سَلَاطَةَ لِسَانِي وَقَلَّةَ عَقْلِي. لَا أَذْكُرُ أَنَّهُ ضَرَبَنِي يَوْمًا أَوْ أَهَانَنِي.. بَلْ عَلَى الْعَكْسِ كَانَ يَتَمَنَّى إِرْضَائِي.. لَيْتَهُ فَعَلَ وَضَرَبَنِي.. فَمَا كَانَ سَيَحْدُثُ مَا حَدَثَ.. لَيْتَهُ أَوْقَفَنِي عِنْدَ حَدِّي، وَفَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ أَبِي بَأْمِي حِينَ عَانَدْتُهُ، إِذْ أَمْسَكَ بِحِزَامِي، وَجَلَدَهَا عَلَى ظَهْرِهَا حَتَّى اسْتَكَانَتْ. آخْ.. مَا أَكْثَرَ أَخْطَائِي! تَذَكَّرْتُ يَوْمَ نَهَرْتُ جَارَتَنَا الْأَرْمَلَةَ وَوَصَمْتُهَا بِأَقْبَحِ الصِّفَاتِ حِينَ جَاءَتْ تَطْلُبُ مُسَاعَدَةً مِنْ زَوْجِي.. كُنْتُ أَظْنُهَا تُخَطِّطُ لِخَطْفِ زَوْجِي.. أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْأَفْلَامِ وَالْمُسْلَسَلَاتِ الَّتِي أَسْهَرَ عَلَيْهَا كُلَّ لَيْلَةٍ! وَ(عَلِيَاءُ) لِمَاذَا أَضَعُهَا فِي رَأْسِي مِسْمَارًا؟! هَلْ فَعَلْتَ بِي شَيْئًا مُحَدَّدًا؟ «لَا».. أَنَا مَنْ بَدَأَ الْمَعْرَكَةَ وَأَشْعَلَ أَوَارَهَا.. سَامِحْنِي يَارَبُّ.. سَامِحْنِي يَا عَلِيَاءُ.. لَوْ كُنْتُ صَادَقْتُهَا⁴..

سَقَطَتْ عَيْنَايَ عَلَى زَوْجِي.. لَا يَزَالُ يَقْرَأُ الْآيَاتِ.. مَطَبُّ هَوَائِي جَدِيدٌ.. اضْطَرَبَتْ مَعِدَتِي.. شَعَرْتُ بِمَغْصٍ شَدِيدٍ وَرَغْبَةٍ فِي التَّقْيُّؤِ.. رَجَّةٌ جَدِيدَةٌ.. كَأَنَّا نَسِيرُ عَلَى دَرَبٍ وَعِزِّ مَلِيٍّ بِالْحَقْرِ وَالشُّقُوقِ.. حَتَّى

(4) لِمَاذَا تَغَيَّرَ رَأْيِي
الشَّخْصِيَّةُ / الرَّأْيِيَّةُ
فِي نَفْسِهَا وَزَوْجِهَا
وَصَدِيقَتِهَا عَلِيَاءُ؟
أَيُّ الرَّأْيَيْنِ أَصْدَقُ؟
وَلِمَاذَا؟

السَّمَاءُ! سُبْحَانَ اللَّهِ!! سَامِحْنِي يَا رَبُّ.. أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.. تَذَكَّرْتُ حَدِيثًا نَبَوِيًّا، «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ» هَلْ سَادَّخُلُهَا؟ وَذُنُوبِي؟! وَأَفْكَارِي الشَّيْطَانِيَّةُ؟! سَمِعْتُ خَطِيبَ الْجُمُعَةِ يَقُولُ: إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ.. وَأَنَّهَا وَسِعَتْ بَغْيًا سَقَتْ كُلَّهَا الْمَاءَ، فَدَخَلَتِ الْجَنَّةَ. وَلَكِنِّي لَمْ أَسِقِ زَوْجِي سِوَى الْهَمِّ وَالنَّكَدِ وَالذُّلِّ!⁵

(5) كيف تصفُ شعور الشخصية في هذه النقطة من القصة؟

يَا رَبُّ سَامِحْنِي.. سَأَتُوبُ وَأُنِيبُ يَا رَبُّ.. تَوْبَةً نَصُوحًا لَا أَعُودُ بَعْدَهَا أَبَدًا.. يَا وَيْلِي لَوْ مِتُّ وَأَنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ.. بَدَأْتُ أَتَشَهَّدُ.. لَا أَذْرِي كَمْ مَرَّةً مِنَ الْوَقْتِ حَتَّى انْسَابَ صَوْتُ قَائِدِ الطَّائِرَةِ يُبَشِّرُنَا بِتَجَاوُزِ الْمَطْبَاطِ الْهَوَائِيَّةِ.

عَادَتِ الدَّمَاءُ تَجْرِي فِي أَوْصَالِنَا مِنْ جَدِيدٍ.. السَّيِّدَةُ الَّتِي تَقْبَعُ خَلْفِي أَقْسَمَتْ أَلَّا تَرْكَبَ طَائِرَةً أَبَدًا.. تَنَفَّسْتُ الصُّعْدَاءَ.. شَعَرْتُ بِخُنُوٍّ غَرِيبٍ عَلَى زَوْجِي الْحَبِيبِ.. كَانَ خَائِفًا عَلَيَّ وَظَلَّ يَرْقِنِي بِآيَاتِ اللَّهِ وَيُهْدِي مِنْ رَوْعِي. حَاوَلْتُ أَنْ أُغْمِضَ عَيْنَيَّ.. لَا يَزَالُ بَعْضُ الْقَلَقِ وَالْخَوْفِ يَسْرِي فِي أَوْصَالِي..

السَّاعَةُ جَاوَزَتِ الرَّابِعَةَ فَجَرًّا.. وَوُصَلْنَا لِماليزيا سَيَكُونُ فِي السَّاعَةِ السَّادِسَةِ صَبَاحًا. بَدَأَتِ الطَّائِرَةُ تَقْتَرِبُ مِنْ أَجْوَاءِ الْعَاصِمَةِ.. كَانَتْ مَدِينَةً مُسْتَقِظَةً تَحْتَ رَذَاذِ النَّدَى، وَقَطَرَاتِ الْمَطَرِ الْمُبَكَّرِ.. كَانَ مَنْظَرًا خَلَابًا.. الْبَسَاطُ الْأَخْضَرُ يَمْتَدُّ هُنَا وَهُنَا.. الْبُيُوتُ الْخَشِيبَةُ بِأَسْقُفِهَا الْحُمْرِ.. وَالضَّبَابُ الَّذِي يُلْفُ خَصَرَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الرَّائِعَةِ.. دَبَّ النَّشَاطُ فِي أَوْصَالِنَا جَمِيعًا.. حَمَلْتُ (الكاميرا) وَبَدَأْتُ أُصَوِّرُ.. هَبَطَتِ الطَّائِرَةُ فِي مَطَارِ الْعَاصِمَةِ.. أَخَذَتِ عَجَلَاتُهَا تَنْزِلُ عَلَى أَرْضِ الْمُدْرَجِ الْوَاسِعِ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ.. كُنْتُ أَسْبِقُ زَوْجِي فِي النُّزُولِ وَمُعَانَقَةِ هَوَاءِ الْمَدِينَةِ الْغَافِيَةِ فِي مِثْلِ هَذَا الصَّبَاحِ النَّظِيفِ..

انْتَقَلْنَا بِوَسِطَةِ الْقِطَارِ لِلْجِهَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْمَطَارِ.. كَانَ مَطَارًا وَاسِعًا

وَنَظِيفًا.. كَانَتْ عَيْنَايَ تَجُوبَانِ الْمَكَانَ شَمَالًا وَجَنُوبًا بَحْثًا عَنْ غَايَتِي..
لَا حَظَّ زَوْجِي انْشِغَالِي فِي الْبَحْثِ.. سَأَلْنِي: عَنْ مَاذَا تَبْحَثِينَ. لَمْ أَرُدَّ..
انْطَلَقْتُ نَحْوَ كَبِينَةِ الْهَاتِفِ الْعُمُومِيِّ.. أَدْرْتُ الْأَرْقَامَ الَّتِي أَحْفَظُهَا.. كَانَ
صَوْتِي عَالِيًا يَسْمَعُهُ الْجَمِيعُ:

- عَلِيَاء.. صَبَاحُ الْخَيْرِ.. هَلْ أَنْتِ نَائِمَةٌ؟ سَامِحِينِي.. لَمْ أَنْتَبِهْ لِلْفَرْقِ.. مَا
أَجْمَلَ الْمَدِينَةَ! لَيْتَكَ كُنْتَ مَعِي.. كَانَ اللَّهُ فِي عَوْنِكُمْ وَأَنْتُمْ تَتَلَطَّوْنَ
فِي الْحَرِّ.. أَنَا أَرْتَجِفُ مِنَ الْبَرْدِ.. كَانَتْ رِحْلَةً مُمْتِعَةً... وَ..⁶

(6) ماذا حَدَّثَ
للشخصية هُنا؟ ما
رَأَيْكَ فِي ذَلِكَ؟

وَرَأَيْتُ زَوْجِي.. يَضْرِبُ كَفًّا بِكَفٍّ.. وَيُحَوِّقُلُ كَعَادَتِهِ!!!

غطاء الفراش للكاتبة الإنجليزية / جورج برنارد شو

لَمْ أَزُرْ هولندا مُنْذُ أوائل 1939 حينَ ذهبتُ لأُحْضِرَ منها جدّتي إلى أمريكا، وكانَ المفروضُ وقتئذٍ أَنْ جدّتي ستُتمضي معًا في أمريكا ستة أشهرٍ فحسبُ، بيدَ أَنَّ زيارتها قد امتدّت ثمانية سنواتٍ، حتّى بدا أنّها لنْ تعودَ إلى وطنها هولندا مرّةً أخرى.

وَرَغْمَ أَنَّ جدّتي قد رَضِختْ للأمرِ الواقعِ، إلّا أنّها ظلّت تأملُ في العودةِ يومًا ما، ودأبتُ تُتمضي شَطْرًا كبيرًا مِنْ وقتها تُفكّرُ في منزلها في هولندا.

في صيفِ سنة 1947، عندما أوفدْتَنِي الشَّرِكةُ الَّتِي أَعْمَلُ بها في مُهمّةٍ إلى بروكسل، ناشدْتَنِي أَنْ أنتهِزَ الفرصةَ وأُعرِّجَ على هولندا فأزورَ خالي وزوجتهُ، وأعودَ إليها بتقريرٍ وافٍ عن كُلِّ شيءٍ، وبخاصّةٍ عن غطاءِ فراشٍ مِنْ الصّوفِ كانتْ تَعْتزُّ به كثيرًا!¹

وعندما زُرْتُ خالي وزوجتهُ، وجلستُ أَتحدّثُ إليهما في عُرفةِ الاستقبالِ الهولنديّةِ الطّرازِ، خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ كُلَّ شيءٍ يجري على مألوفٍ عادتهِ، وأنّه لَمْ يطرأ أيُّ تغييرٍ مطلقًا طولَ هذهِ الأعوامِ الَّتِي تَلَتْ سنةَ 1939، وأنَّ البيتَ مازالَ قائمًا كعَهْدِي بهِ، وحَسْبِي أَنْ أُلقيَ نَظْرَةً واحدةً مِنْ خلالِ النّافذةِ لأرى الفضاءَ المحيطَ بهِ وقد أحاطَتْهُ ظلالٌ، كانتْ يومًا مِنْ الأيامِ ميدانَ مولبورج، قلبَ المدينةِ النَّابضِ.²

وإنْ كانَ خالي وزوجتهُ قد ظَلّا على قيدِ الحياةِ، واجتازا مِحْنَةَ

(1) تَبَيَّنَ بِمَا يُمكنُ أَنْ
يَحْدُثُ؛ هَلْ سَيَجِدُ
الرّاي غطاءَ
الفراشِ؟

(2) اسْتخدَمَ الرّاي فِعْلاً
يَدُلُّ على أَنَّ توقّعاتِهِ
لَمْ تَكُنْ في محلّها،
أذْكَرُهُ.

الحَرْبِ القَاسِيَةِ بِسَلامٍ، فَقَدْ كَانَ يَبْدُو عَلَى قَسَمَاتٍ وَجْهَيْهِمَا مَا يُبْنِيءُ بِأَنَّ الْأُمُورَ لَمْ تَعُدْ كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلُ، وَقَدْ حَاوَلْتُ مِرَارًا، خِلَالَ الْأَيَّامِ الَّتِي أَمْضَيْتُهَا مَعَهُمَا... أَنْ أَعْرِفَ السَّبَبَ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يُسَمِعَانِي شَيْئًا مِنْ قِصَصِ الْحَرْبِ وَالْحَوَادِثِ وَالْأَحْدَاثِ الَّتِي مَرَّتْ بِهِمَا وَعَانِيَا مِنْ وَيلَاتِهَا، فَكُنْتُ أَعْتَقِدُ أحيانًا أَنَّهُمَا يَنْشُدَانِ النِّسيَانَ، وَأَرْجَحُ أحيانًا أُخْرَى أَنَّهُمَا قَدْ سَبَقَ وَتَحَدَّثَا عَنِ الْحَرْبِ بِمَا فِيهِ الْكُفَايَةُ حَتَّى سَمِعَا هَذِهِ الذِّكْرِيَّاتِ الْأَلِيمَةَ، أَوْ أَنَّ هَذِهِ السَّنِينَ الْمَرِيرَةَ تَحْوِي فِي طَيَّاتِهَا مَا لَا يَقْوِيَانِ عَلَى ذِكْرِهِ وَرِوَايَتِهِ.³

(3) كيف يمكن أن
تصف التغيير
الذي طرأ على
وجهي خال الزاوي
وزوجتي؟

لَقَدْ كُنْتُ وَاثِقًا فِي قَرَارَةِ نَفْسِي أَنَّ التَّفْسِيرَ الْحَقِيقِيَّ لَصِمَتَيْهِمَا هَذَا، لَيْسَ شَيْئًا مِمَّا تَخَيَّلْتُهُ أَوْ رَجَّحْتُهُ، وَرُبَّمَا لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ مِنْ مَظَاهِيرِ الْكِيَاسَةِ وَاللَّبَاقَةِ لَشُعُورِهِمَا أَنَّ التَّجَارِبَ الَّتِي مَرَّتْ بِنَا - مَعَشَرَ الْأَمْرِيكِيِّينَ - فِي الْحَرْبِ، لَمْ تَكُنْ سَهْلَةً وَلَا يَسِيرَةً، فَلَيْسَ إِذَا مِنْ الدَّوْقِ السَّلِيمِ أَنْ يَتَشَدَّقَا بِمَا أَبْدَاهُ الْهُولَنْدِيُّونَ مِنْ ضُرُوبِ الشَّجَاعَةِ وَالْبَأْسِ!

وَأخِيرًا، وَجَدْتُ الشَّجَاعَةَ لِأَسْأَلَهُمَا عَنْ غِطَاءِ الْفِرَاشِ الْمَصْنُوعِ مِنَ الصُّوفِ، وَذَكَرْتُ لَهُمَا مَبْلَغَ اهْتِمَامِ جَدَّتِي بِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ صُنْعِ يَدَيْهَا، وَقَدْ فَكَّ سُؤَالِي هَذَا عُقْدَةً لِسَانَيْهِمَا وَرَاحًا يُحَدِّثَانِي عَنْ قِصَّةِ غِطَاءِ الْفِرَاشِ، وَلَعَلَّهُمَا اعْتَقَدَا أَنَّ بَرَسْعِي أَنْ أَفْهَمَهُمَا بِسُهُولَةٍ وَأَقْدَرَهُمَا. قَالَتْ زَوْجَةُ خَالِي:

- أَرْجَحُ أَنْ جَدَّتُكَ أَيْضًا سَتُعْجَبُ بِهَا وَتُقَدِّرُهَا حَقَّ قَدْرِهَا. وَمَضَتْ تَرُوي الْقِصَّةَ.⁴

(4) مَنْ الزاوي في هذا
الجزء، وَمَنْ التروي
لَهُ؟ وما موضوع
القصة؟

- يَجْدُرُ بِكَ أَنْ تُدْرِكَ أَوَّلًا أَنَّنَا كُنَّا فِي مَسِيرِ الْحَاجَةِ إِلَى الشَّحْمِ،

فلا دُهْن ولا زَيْت ولا شيءَ مِنْ هذا القَبِيلِ كَانَ فِي مُتَنَاوَلِ الْيَدِ إِبَانِ
الحَرْبِ، وَعَقَّبَ زَوْجُهَا عَلَى الْكَلَامِ بِصَوْتٍ حَالِمٍ كَمَنْ يَسْتَعِيدُ
ذِكْرِيَاتٍ بَعِيدَةً:

- لَقَدْ كُنْتُ أَحْلُمُ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي بِفَطِيرَةٍ مَصْنُوعَةٍ بِالزُّبْدَةِ... أَلَا
يَبْدُو هَذَا سَخِيفًا الْآنَ؟ لَمْ يَكُنْ سَخْفًا وَقَدْ ذَاكَ. لَقَدْ كُنَّا تَتَلَهَّفُ عَلَى
الشَّحْمِ وَالذَّهْنِ كَمَا يَتَلَهَّفُ الْعَاشِقُ عَلَى حَبِيبٍ غَائِبٍ!
فَأَوْمَأَتْ زَوْجَةُ خَالِي بِرَأْسِهَا، وَكَأَنَّهَُا قَدْ ارْتَاخَتْ إِلَى هَذَا التَّعْيِيرِ،
وَسَرَحَتْ بِنَظَرَاتِهَا إِلَى عَالَمٍ بَعِيدٍ بَيْنَمَا اسْتَطَرَدَّ خَالِي:

- فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ النُّقُودُ عَدِيمَةً الْقِيَمَةِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ فِي
حَاجَةٍ إِلَى مَوَادٍّ... إِلَى أَشْيَاءٍ نَافِعَةٍ مَفِيدَةٍ... أَشْيَاءٍ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا.
لَقَدْ تَخَلَّصْنَا مِنَ الْجَوَاهِرِ وَالْحُلِيِّ الَّتِي نَمْلِكُهَا عَلَى التَّوَالِي...
ثُمَّ تَحَرَّرْنَا تَدْرِيجًا مِنْ كُلِّ مَا لَدِينَا مِنْ كَمَالِيَّاتٍ يُمْكِنُ الْإِسْتِغْنَاءُ
عَنْهَا.. وَأَصْبَحَ الْمَنْزَلُ عَارِيًا تَمَامًا مِنَ الرِّيشِ الَّذِي يُمْكِنُ بَيْعُهُ أَوْ
اسْتِبْدَالُهُ... وَلَمْ يَبْقَ سِوَى غِطَاءِ الْفِرَاشِ⁵.

(5) هُنا تلميح آخر ماذا
تتوقع؟

إِنِّي أَذْكُرُ هَذَا الْغِطَاءَ تَمَامًا... لَقَدْ كَانَتْ أُمِّي تَحْرِصُ أَنْ تَضَعَهُ
مُحَبَّكًا تَمَامًا عِنْدَ الْأَقْدَامِ فَوْقَ سَرِيرِهَا الضَّخْمِ. لَقَدْ كَانَ مِنَ
الصَّوْفِ الْأَسْوَدِ... وَقَدْ حِيكَ عَلَى نَمَطٍ بَدِيعٍ مِنَ الرُّسُومِ الْهَنْدَسِيَّةِ
الْمُسْتَدِيرَةِ وَالْبَيضاوِيَّةِ.

وَأَضَافَتْ زَوْجَةُ خَالِي فِي صَوْتٍ رَقِيقٍ بَدَتْ فِيهِ رَنَّةٌ اعْتِذَارٍ وَأَسْفٍ:
- أَخْشَى أَنْ أَكُونَ السَّبَبَ فِي فَكِّهِ وَحَلِّ حَيَاكَتِهِ... وَلَكِنِّي كُنْتُ
جَائِعَةً... لَقَدْ كُنَّا فِي مِحْنَةٍ. فَرَدَّ خَالِي بِسُرْعَةٍ كَمَنْ يَنْفِي عَنْ نَفْسِهِ
التُّهْمَةَ:

- أَجَلٌ.. لَمْ أَفَكِّرْ أَنَا فِي ذَلِكَ. فَاسْتَطَرَدَّتْ زَوْجَتُهُ:
- كَانَتْ الْجَوَارِبُ لَا تُقَدَّرُ بِشَمَنِ، وَلَمْ يَعُدْ عِنْدَ أَيِّ فَرْدٍ جَوَارِبُ.
ولهذا عَمَدْتُ إِلَى حَلِّ حَيَاكَةِ رُكْنٍ وَاحِدٍ مِنَ الْغِطَاءِ. رُكْنٌ وَاحِدٌ
فَقَطُّ، وَحِكْتُ مِنَ الصَّوْفِ زَوْجًا مِنَ الْجَوَارِبِ الْمَتِينَةِ الثَّقِيلَةِ
السَّودَاءِ... لَقَدْ كَانَ جَوْرَبًا رَائِعًا.

فَقَالَ خَالِي مُعْتَظًا:

- أَجَلٌ، لَقَدْ اسْتَهَيْتُ هَذَا الْجَوْرَبَ لِنَفْسِي صِرَاحَةً... وَلَكِنْ أَشَارَ
بِيَدِهِ فِي حَرَكَةٍ تَسْلِيمٍ وَإِذْعَانٍ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى مَعْدَتِهِ:
- لَقَدْ كُنْتُ جَائِعًا أَنَا الْآخِرُ... فَأَخَذْتُ الْجَوْرَبَ ذَاتَ لَيْلَةٍ إِلَى
مُزَارِعٍ أَعْرِفُهُ، وَعُدْتُ حَامِلًا رَطْلَيْنِ مِنَ الزُّبْدَةِ الطَّازِجَةِ.

فَلَمَعَتْ عَيْنَا زَوْجَةِ خَالِي وَقَالَتْ بِلَهْفَةٍ:

- تَخَيَّلْ.... رَطْلَانِ مِنَ الزُّبْدَةِ... رَطْلَانِ كَامِلَانِ، لَقَدْ احْتَفَظْنَا بِرَطْلٍ
مِنْهُمَا وَاقْتَسَمْنَا الرُّطْلَ الْآخَرَ بَيْنَنَا وَأَكَلْنَاهُ كَمَا هُوَ عَلَى عِلَاتِهِ دُونَ
خُبْزٍ! ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيَّ مُسْتَدْرِكَةً وَقَالَتْ:

- لَا بُدَّ أَنْ هَذَا غَرِيبٌ عَلَى مَسْمَعِكَ.

فَاعْتَرَضْتُ قَائِلًا:

- كَلَّا.. كَلَّا الْبَتَّةَ.

فَقَالَ خَالِي مُؤَكَّدًا:

- لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ عِيدًا مشهودًا عِنْدَنَا... وَوَأَفَقَّتْهُ زَوْجَتُهُ... أَمَّا
الرُّطْلُ الْآخَرُ فَقَدْ كَفَانَا شَهْرًا كَامِلًا.. وَأَخْشَى أَنَّ هَذَا الرُّطْلَ مِنَ
الزُّبْدَةِ قَدْ أَفْسَدَ ذَوْقَنَا، فَقَدْ تَعَوَّدْنَا عَلَيْهِ، وَلَمْ نَعُدْ نَسْتَسِغُ طَعَامًا بِلا
زُبْدَةٍ، وَمِنْ ثَمَّ شَعَرْنَا بِالْحَاجَةِ إِلَى غَيْرِهِ.

فضحك خالي وقال:

- وهكذا يُمكنك أن تتخيل ما حدث... لقد حللنا حياكة غطاء الفراش رُكْنَا رُكْنَا. كُنَّا نَفُكُّ في كُلِّ مرَّةٍ ما يكفي لصنع زوج من الجوارب، وكان المزارع طيبًا معنا، وشريرًا للغاية⁶، فقاطعتُ زوجته قائلةً في حماسة ظاهرة:

(6) ووصولاً إلى هذه النقطة. ما مصير غطاء الفراش؟

- لقد كان يُعطينا دائماً رطلين من الزبدة، ولا تنس أنه كان في مقدوره أن يغشنا ويخدعنا مُستغلاً فرصة خوفنا من الألمان الذين يَمنعون بشدة أمثال هذه المساومات، فوافق خالي قائلاً:

- أجل... لقد كان طيبًا. على كُلِّ حالٍ لقد لبى غطاء الفراش حاجتنا من الزبدة لمدة عامين كاملين... وكم كان يتأبنا الفزع والرعب كلما رأيناه يتقلص ويتضاءل ويقرب من النهاية، بينما الحالة مُستورة من سيء إلى أسوأ ولا يبدو لها نهاية. وأخيراً حللنا آخر قطعة كانت باقية منه. وهنا حدث ما اعتبرناه مأساة أو فجيعة أو سمها كارثة إذا شئت... ذلك أن الخيوط الأخيرة التي فككناها لم تكف إلا لعمل فردة واحدة من الجوارب الأخير.

ولقد احتفظنا بفردة الجوارب ستة أسابيع دون أن نجرؤ على عرضها على المزارع... إلى أن جاء يوم صرنا فيه في يأس مُهلك.. وأخيراً عزمْتُ أن أُجرب حظنا، فإنا لن نخسر شيئاً على كُلِّ حالٍ إذا رَفَضَ المزارع شراء الفردة الواحدة وأعادني صفر اليدين من الزبدة. واعتدل خالي في جلسته واستطرد:

- وهكذا ذهبْتُ إلى صديقنا المزارع وأنا أقدم رجلاً وأوخر رجلاً.. ولا أستطيع أن أصف لك كيف كُنتُ مُرتبكاً ومُضطرباً.

لَمْ أَكُنْ أَسْتَسِيغُ الاستجداء... ولكن لَمْ يَكُنْ لِي حَقُّ الاختيار...
وتشجعتُ أخيراً فأخبرتُهُ بصراحةٍ مُتلعثمًا أَنِّي لَا أَمْلِكُ سِوَى فَرْدَةٍ
واحدة. وتوقفتُ خالي عن الحديثِ وَقَدْ ارتسمتُ على فَمِهِ ابتسامةٌ
عريضة، ثُمَّ استأنف:

- وهنا حَدَثَ أَمْرٌ يَصِلُ إِلَى حَدِّ الْمُعْجَزَاتِ.. لَقَدْ هَجَمَ عَلَيَّ
الْمُزَارِعُ يُعَانِقُنِي وَهُوَ يُزْجِي عِبَارَاتِ الشُّكْرِ وَالْعِرْفَانِ بِالْجَمِيلِ،
وَهَزَّوَلَ إِلَى دَارِهِ، وَأَحْضَرَ رَطَلَيْنِ كَامِلَيْنِ مِنَ الزُّبْدَةِ نَظِيرَ هَذِهِ الْفَرْدَةِ
الوحيدة⁷.

(7) لماذا فَرِحَ الْمُزَارِعُ
فِي رَأْيِكَ؟

وهنا شَعَرْتُ بِالذَّهْشَةِ فَتَسَاءَلْتُ:

- ولكن لماذا؟ وكيف؟

- هَذَا هُوَ نَفْسُ السُّؤَالِ الَّذِي وَجَّهْتُهُ لِلْمُزَارِعِ.

فَأَجَابَنِي بِقَوْلِهِ:

- لَقَدْ كَانَتْ زَوْجَتِي تَحُلُّ حَيَاكَةَ الْجَوَارِبِ الَّتِي أَبْتَاغُهَا مِنْكَ،
وَتَحِيكُ مِنْ صَوْفِهَا غِطَاءً لِلْفِرَاشِ.... وَهِيَ تَحْتَاجُ فَقَطْ لِهَذِهِ الْفَرْدَةِ
لِتُتِمَّ الْغِطَاءَ... وَلِهَذَا فَهِيَ وَحْدَهَا تُسَاوِي عِنْدِي رَطَلَيْنِ مِنَ الزُّبْدَةِ؛
لَأَنَّهُمَا سَتَجْعَلُهَا سَعِيدَةً لِحُصُولِهَا عَلَى الْغِطَاءِ كَامِلًا⁸.

(8) هَلْ جَاءَتْ النِّهَايَةُ
كَمَا تَوَقَّعْتُ؟

وَسَادَ صَمْتُ طَوِيلٌ ثُمَّ قَالَ خَالِي:

- وَهَكَذَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تُخْبِرَ جَدَّتَكَ أَنَّ غِطَاءَهَا سَلِيمٌ، وَلَكِنَّ الْحَرْبَ
غَيَّرَتْ رُسُومَهُ وَهَنْدَسَتَهُ...!!

صَوْرٌ خَارِجَ الْإِطَارِ ابْتِسَامُ الْمُعَلَّا

عِنْدَمَا أَفْشَلُ فِي تَذَكُّرِ بَعْضِ الْحَوَادِثِ اخْتَلَقَهَا:

أَذْكُرُ أَنَّ فِضَّةَ رَحَلَتْ بَعْدَ تَعَرُّضِهَا لِحَادِثِ سَيَّارَةٍ، وَأَنَّ رَذَاذَ الْخَبَرِ وَصَلَنِي عَبْرَ حَدِيثٍ بَيْنَ أُمِّي وَإِحْدَى صَدِيقَاتِهَا، وَكُنْتُ فِي طَرِيقِي إِلَى الْجَامِعَةِ.

أَتَذَكَّرُ أَنَّ فِضَّةَ كَانَتْ امْرَأَةً طَوِيلَةً سَمْرَاءَ، حُضُورُهَا أَكْثَرُ صَمْتًا مِنَ النَّوْمِ، وَإِذَا تَحَدَّثَتْ فَإِنَّ لَهَا صَوْتًا، لَا يَتَنَاسَبُ وَامْرَأَةً فِي عُمْرِهَا. كَانَ خَفِيفًا وَعَمِيقًا، وَكَأَنَّهُ آتٍ مِنْ غُورٍ بَثْرٍ، وَغَالِبًا مَا تُرَافِقُهُ ابْتِسَامَةٌ طَوِيلَةٌ طُفُولِيَّةٌ خَجُولَةٌ، وَكَانَتْ لِاثْوَابِهَا أَلْوَانٌ نَارِيَّةٌ جَمِيلَةٌ وَلَا فِتْنَةَ لِعَيْنِي طِفْلَةٍ مَوْلَعَةٍ بِالرَّسْمِ مِثْلِي.

الآنَ عِنْدَمَا أَسْتَحْضِرُ صُورَتَهَا أَتَخَيَّلُهَا امْرَأَةً، كَانَتْ تَحْتَالُ عَلَى سَنَوَاتِ عُمْرِهَا وَعَلَى وَحْدَتِهَا مَعَ زَوْجٍ يُدْمِنُ سَمَاعَ الْأُسْطُوانَاتِ الْقَدِيمَةِ، وَيَتَوَعَّدُ أَطْفَالَ الْحَيِّ كُلَّمَا سَمِعَهُمْ يَتَضَاحُونَ عَلَى قَامَتِهِ الْقَصِيرَةِ. لَقَدْ رَحَلَ بَعْدَ بَضْعَةِ أَعوَامٍ مِنْ انْتِقَالِنَا إِلَى مَنْزِلِنَا الْجَدِيدِ، وَتَرَكَ فِضَّةَ وَحْدَهَا فِي الْبَيْتِ مِثْلَمَا تَرَكْنَاهُمَا فِي الْحَيِّ الْقَدِيمِ.

لَمْ أَرِ فِضَّةَ بَعْدَ انْتِقَالِنَا إِلَى بَيْتِنَا الْجَدِيدِ، لَمْ تَزُرْنَا، وَلَمْ نُفَكِّرْ مَرَّةً فِي زيارَتِهَا، لَكِنْ أَخْبَارُهَا كَانَتْ تَصِلُنَا عَلَى فتراتٍ مُتَبَاعِدَةٍ إِلَى أَنْ سَمِعْتُ خَبَرَ الْحَادِثِ الَّذِي تَعَرَّضَتْ لَهُ، وَهِيَ تَجْتَازُ الشَّارِعَ، وَيُقَالُ: إِنَّ صَوْتَ طَائِرَةٍ كَانَتْ تَسْتَعِدُّ لِلْهُبُوطِ عَطَى عَلَى صُرَاخِ النَّاسِ الَّذِينَ تَجَمَّعُوا حَوْلَ جُثَّةِ الْمَرْأَةِ.

سَأَلْتُ أُمِّي: هَلْ كَانَتْ جَارَتُنَا الْقَدِيمَةُ فِضَّةُ عَرَجَاءَ؟

كَأَنَّ السُّؤَالَ بَاغَتْهَا:

- مَا الَّذِي ذَكَرْتُ بِهَا الْآنَ؟

- زُجَاجَةٌ عِطْرٍ صَغِيرَةٌ كَانَتْ قَدْ أَعْطَتْنِي إِيَّاهَا مَرَّةً.

رَسَمْتُ أُمِّي عَلَى وَجْهِهَا دَهْشَةً أَكْبَرَ مِنْ أَنْ تَقْوَى مَلَامِحُهَا عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْهَا دُونَ صَوْتٍ:

زُجاجة عِطْرٍ؟ متى؟ لَمْ تُخْبِرْنِي بِذَلِكَ مِنْ قَبْلُ.

قُلْتُ لَهَا: إِنِّي نَسِيتُ أَمْرَهَا، وَقَدْ عَثَرْتُ عَلَيْهَا الْيَوْمَ، وَأَنَا أَعْبَثُ بِمُحْتَوَيَاتِ خِزَانَتِي الْقَدِيمَةِ.

صَمَتَتْ أُمِّي تُفَكِّرُ بُرْهَةً، وَتَمَعَّنَتْ فِي مَلَامِحِ وَجْهِهَا الْجَمِيلِ، لِأَصَبَّ نَقْمَتِي مِثْلَ كُلِّ مَرَّةٍ عَلَى الْحِطِّ الَّذِي جَعَلَنِي لَا أَشْبَهُهَا فِي شَيْءٍ. قَالَتْ، وَكَأَنَّهَا لَا تُرِيدُ أَنْ يَنْهَى الْمَوْضُوعَ: نَعَمْ، كَانَتْ إِحْدَى رِجْلَيْهَا أَقْصَرَ مِنَ الْأُخْرَى.

عِنْدَمَا اسْتَدْرَجْتُ عَنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ لَا بُدَّ أَنَّهَا تَسَاءَلَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا: كَيْفَ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَذَكَّرَ عَاهَةَ الْمَرْأَةِ وَهَدِيَّةَ زُجَاجَةِ الْعِطْرِ الصَّغِيرَةِ، وَأَنَا لَا أَكَادُ أَعْرِفُهَا، لِأَنَّا غَادَرْنَا حَيَّا الْقَدِيمَ، وَأَنَا لَمْ أَتَجَاوِزِ السَّادِسَةَ، لَا أَتَذَكَّرُ يَوْمِي الْأَوَّلَ فِي الْمَدْرَسَةِ وَلَا سَنَوَاتِي الْمَدْرَسِيَّةَ الْأُولَى وَلَا حَتَّى مُدْرَسَاتِي وَلَا صَدِيقَاتِي وَلَا شَكْلَ مَبْنَى الْمَدْرَسَةِ وَلَا أَوَّلَ صُورَةٍ، التَّقَطَّتْ لِي فِي الْأُسْتُذِيو بَعْدَسَةِ مُصَوِّرٍ مُحْتَرِفٍ، وَبَدَتْ أَكْثَرُ وَضُوحًا وَأَقْلَّ عَفْوِيَّةً مِنَ الصُّورِ الْمَنْزِلِيَّةِ الْأُخْرَى، وَفِيهَا أَجْلِسُ بِقَامَةٍ صَغِيرَةٍ مُمْتَلِئَةٍ وَعَيْنَيْنِ عَسَلِيَّتَيْنِ وَاسْعَتَيْنِ وَوَجْهٍ دَائِرِيٍّ، نِصْفُهُ ابْتِسَامَةٌ مُتَكَلِّفَةٌ، مُحَاطٌ بِشَعْرٍ لَامِعٍ عَلَى شَكْلِ جَدِيلَتَيْنِ قَصِيرَتَيْنِ مَعْقُودَتَيْنِ فِي نِهَائَيْهِمَا بِشَرَائِطَ بَيَضاء. أَنْظُرُ إِلَى الصُّورَةِ الْمُعْلَقَةِ فِي غُرْفَةِ أُمِّي، وَأُقْسِمُ بِأَنِّي لَا أَتَذَكَّرُهَا:

- لَا أَتَذَكَّرُهَا، يَا أُمِّي، لِمَاذَا لَا تُصَدِّقْنِي؟ إِنِّي لَا أَتَذَكَّرُ أَيُّضًا حَتَّى السَّنَوَاتِ اللَّاحِقَةِ لِلصُّورَةِ.

أَحْيَانًا أَتَخَيَّلُ صَوْتَهَا يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ ضَبَابٍ كَثِيفٍ، لِيُْمَعِنَ فِي تَذْكِيرِي، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقَتِي: لَكِنَّكَ أَنْتِ مَنْ أَصَرَ عَلَى التَّقَاطُ هَذِهِ الصُّورَةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّي كُنْتُ ضِدَّ خُرُوجِكَ إِلَى (الْأُسْتُذِيو)، وَأَنْتِ مَحْمُومَةٌ. كَانَتْ حَرَارَتُكَ مَرْتَفَعَةً، وَكُنْتَ تَهْدِينِ فِي نَوْمِكَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي سَبَقْتُهَا، وَمَعَ ذَلِكَ كُنْتَ مَصْرَّةً عَلَى مِرَافِقَةٍ وَالدِّكِ وَأَخِيكَ إِلَى (الْأُسْتُذِيو)؛ لِأَنَّكَ كُنْتَ طِفْلَةً غَيُورَةً جِدًّا. لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ تُؤْخَذَ صُورَةٌ لِخَالِدٍ دُونَ أَنْ تُزَاحِمِيهِ عَلَى كُرْسِيِّ التَّصْوِيرِ. أَنْظُرِي إِلَى أَثَرِ الْحُمَّى عَلَى خَدَّيْكَ وَعَيْنَيْكَ.

أَحْيَانًا تَكُونُ الرِّوَايَةُ هَكَذَا: لَقَدْ التَّقَطَّ لَكَ هَذِهِ الصُّورَةُ صَدِيقٌ وَالدِّكِ الْأَجْنَبِيُّ الَّذِي كَانَ قَدْ فَتَحَ (الْأُسْتُذِيو) جَدِيدًا، وَأَرَادَ التَّبَرُّكَ بِتَّصْوِيرِ الطِّفْلِ الْجَمِيلَةِ كَمَا كَانَ يُطْلَقُ عَلَيْكَ.

وَأَحْيَانًا كَانَ الْحَدِيثُ مُغَايِرًا تَمَامًا، فَتَقُولُ أُمِّي: لِأَنَّ يَوْمَ الصُّورَةِ كَانَ أَوَّلَ أَيَّامِ الْعِيدِ، وَقَدْ وَافَقَ عِيدَ مِيلَادِكَ الْخَامِسَ، وَكُنْتَ رَاغِبَةً فِي أَنْ تُلْتَقَطَ لَكَ صُورَةٌ بِفُسْتَانِكَ الْأَحْمَرَ الْجَدِيدِ.

أما خالد الذي كان في مثل عمري تقريباً، والذي يُزاحمني أحلامي الليلية، فربما يتذكر يوم الصورة بكثير من تفاصيله بما في ذلك مرورنا مع أبي على المحل الصغير الملائق (للاستديو) لشراء بعض الحلويات ومجلة (ماجيد).

- بعد كل ذلك الإصرار على الذهاب لم تُعجبك الصورة عندما رأيته، وصارت مصدرًا لغضبك كلما أردنا أن نريها أحد أقاربك.

- لماذا تعلقينها في غرفتك إذن؟

- لتقوي ذاكرتك النسيئة.

أريد أن أسمع أكثر، لأملاً الغرف الخالية في ذاكرة طفولتي، لكن كل حديث عن طفولتي أسمعُه من أمي كان يؤلمني، ويخلف عندي إحساساً بالغربة.

كنت مثل من يقف خلف النافذة، ليتأمل الآخرين محاولاً أن يتذكر أين رآهم من قبل، قبل أن يكشف أنه أحد الموجودين بينهم، يشاركهم المكان والكُرسي والحديث والضحك، وأن الواقف خلف النافذة هو الذاكرة المفقودة.

بعدها بسنوات عندما ضقت ذرعاً بأحاديث صديقاتي عن ألعابهن المفضلة وعن الحماقات الصغيرة التي ارتكبنها، ولنن عليها العقاب وعن صباحات حافلة بأمراض مختلفة كي يكسبن ساعات إضافية من النوم، ويتهربن من المدرسة، وعندما امتلأ رأسي بحكايات ميسون كلما خلونا معاً في سيارتها عن طفولتها وحصل الموسيقى التي كانت تدمنها وكتب الأطفال التي قرأتها قبل أن تُشاهد أفلام (ديزني) ..

بدأت أشعر بغيرة حقيقية من شأنها أن تجعلني أمسك رأسي بكليتي يدي، وأبكي. لم يعد خالد منافساً، أغار منه، بل كان أخاً غائباً عن المنزل وعن أحاديثي مع الصديقات وعن حياة أمي وأبي. كان مصدر غيرتي الجديدة هو تلك الأحاديث المليئة بعوالم، لا أثر لقدمي فيها.

قال لي أستاذ علم النفس في الجامعة إن هذا يحدث للبعض، يفقدون ذاكرة طفولتهم لأسباب عديدة منها أن الطفل تعرض لحالات متكررة من قمع المشاعر في فترة مبكرة من عمره، أو لأنه لم يأخذ كفايته من اهتمام أمه بسبب مواليد أخرى تلتها مباشرة، أو لأنه كان

عُرْضَةً لِحَوَادِثَ تَرِيدُ الذَّاكِرَةُ إلْغَاءَهَا تَمَامًا، وَأَكَّدَ لِي أَنَّ الْحَالَةَ تَعْتَبَرُ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ فَقْدَانِ الذَّاكِرَةِ (فَقْدَانِ الذَّاكِرَةِ الطَّفُولِيَّةِ)، قَالَ ذَلِكَ، وَانْتَظَرَ رَدَّةَ فَعْلِي.

خَجَلْتُ آنَذَاكَ مِنْ طَرَحِ السَّوَالِ بِذَلِكَ الشَّكْلِ الْمُبَاشِرِ، وَحَاولْتُ أَنْ أَبْعِدَ التَّهْمَةَ عَنْ ذَاكِرَتِي. قُلْتُ إِنَّ الْأَمْرَ بِالنَّسْبَةِ لِي لَيْسَ غِيَابًا تَامًّا لِأَحْدَاثِ الطَّفُولَةِ فَأَنَا أَتَذَكَّرُ بَعْضَ الْحَوَادِثِ الصَّغِيرَةِ، وَبَعْضَ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ لَمْ يَعْذُ لَهُمْ وَجُودُ الْآنَ، وَأَتَذَكَّرُ بَيْتَنَا الْقَدِيمَ وَالنَّخْلَةَ الْعِمْلَاقَةَ فِي الْفَنَاءِ وَبَعْضَ جِيرَانِنَا، وَقَدْ نَظَرَ إِلَيَّ وَابْتَسَمَ قَائِلًا: أَنْتِ إِذَنْ تَتَذَكَّرِينَ أَغْلَبَ الْأُمُورِ تَقْرِيبًا فَلَا تَكُونِي طَمَاعَةً. دَعِي فَسْحَةً لِمَا سَيَأْتِي مِنْ أَحْدَاثٍ...

لَا أَدْرِي هَلْ قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ صَدَّقَ دِفَاعِي عَنْ ذَاكِرَتِي أَمْ لِأَنَّهُ كَانَ يُحَاوِلُ مَدَاوَاتَهَا، لَكِنِّي عِنْدَمَا عُدْتُ إِلَى غُرْفَتِي حَاولْتُ أَنْ أَعْصِرَ ذَهْنِي؛ لِتَسْقُطَ مِنْهُ قَطْرَةٌ ذَكَرَى حَقِيقَتَهُ وَاحِدَةً تَخْصُ بَيْتَنَا الْقَدِيمَ أَوِ النَّخْلَةَ الْعِمْلَاقَةَ أَوْ أَحَدَ وَجُوهِ الْجِيرَانِ..

كَانَتْ أَغْلَبُ الْأَحْدَاثِ الَّتِي أَتَذَكَّرُهَا هِيَ أَحْدَاثُ تَعَوُّدِي إِلَى طُفُولَتِي الْمُتَأَخَّرَةِ. رُبَّمَا كُنْتُ فِي الْعَاشِرَةِ أَوْ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِي، وَرُبَّمَا كُنْتُ أَكْبَرَ، وَهِيَ حَوَادِثُ جَمِيلَةٍ كَتَعَلَّمِي قِيَادَةَ الدَّرَاجَةِ ذَاتِ الْعَجَلَاتِ الْكَبِيرَةِ، وَإِذْ مَاني عَلَى الْجِهَازِ الْإِلِكْتَرُونِيِّ النَّاطِقِ الَّذِي اشْتَرَاهُ لِي أَبِي مِنْ مَحَلِّ أَلْعَابٍ، ذَهَبْنَا إِلَيْهِ فِي لَيْلَةٍ مُمَطَّرَةٍ، وَتِلْكَ الْمَرْأَةُ الَّتِي اسْتَوْفَقْتَنَا فِي أَحَدِ شَوَارِعِ بَارِيسَ، لِتَقُولَ إِنَّنِي أَشْبَهُ مُمَثِّلَةً صَغِيرَةً، يُجِبُّهَا ابْنُهَا، وَذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي فُزْتُ فِيهِ بِمُظَلَّةٍ، عَلَيْهَا إِحْدَى لَوْحَاتِ (كُلُودَ مُونِيه) فِي مَدِينَةِ مَلايهِ بَعِيدَةٍ، وَعُلْبَةِ الْأَلْوَانِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي تَحْتَوِي عَلَى ثَمَانِيَةِ وَأَرْبَعِينَ لَوْنًا، رَسَمْتُ بِهَا وَجْهَ أُمِّي عَشْرَاتِ الْمَرَّاتِ، وَكِتَابِ (حَوْلَ الْعَالَمِ فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا) الَّذِي قَرَأْتُهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ عَلَى التَّوَالِي.

كَانَتْ السَّاعَةُ تُقْتَرِبُ مِنَ الْوَاحِدَةِ بَعْدَ مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ، وَانْتَبَهْتُ إِلَى لَسَعَةِ الْبَرْدِ تَتَخَلَّلُ جَسَدِي. أَغْلَقْتُ النَّافِذَةَ، وَاسْتَخْرَجْتُ زُجَاجَةَ الْعِطْرِ مِنَ الْخِزَانَةِ، وَتَأَمَّلْتُهَا قَبْلَ أَنْ أَفْتَحَهَا، وَتَنَشَّرَ رَائِحَتُهَا الْقَوِيَّةُ فِي هَوَاءِ الْغُرْفَةِ، كُنْتُ أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ فِضَّةَ هِيَ الَّتِي أَهْدَتْهَا إِلَيَّ حَقًّا، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مُجَرَّدَ حُلْمٍ.

كُنْتُ أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ فِضَّةَ ظَلَّتْ جَارَتَنَا، وَلَمْ تَرْحَلْ عَنَّا، وَأَنَا فِي ذَلِكَ الْعُمْرِ الْغَضِّ، كُنْتُ أَتَمَنَّى لَوْ كَانَتْ أُمِّي تَحْفَظُ فِعْلًا بِصُورَةٍ مِنْ طُفُولَتِي مَعَ أَخِي خَالِدٍ مُعَلَّقَةً فِي غُرْفَتِهَا، وَكُنْتُ دَوْمًا أَتَمَنَّى لَوْ كَانَ لِي أَخٌ.

ورقة من الرملة

غسان كنفاني

أوقفونا صفين على طرفي الشارع الذي يصل الرملة بالقدس، وطلبوا منا أن نرفع أيدينا متصالبة في الهواء، وعندما لاحظ أحد الجنود اليهود أن أمي تحرص على وضعي أمامها كي أتقي بظلها شمس تموز، سحبني من يدي بعنف شديد، وطلب مني أن أقف على ساق واحدة، وأن أصالب ذراعي فوق رأسي في منتصف الشارع التراب..

كنت في التاسعة من عمري يومذاك، ولقد شهدت قبل أربع ساعات فقط كيف دخل اليهود إلى الرملة، وكنت أرى وأنا واقف هناك في منتصف الشارع الرمادي كيف كان اليهود يفتشون عن حلى العجائز والصبايا، ويتزعونها منهن بعنف وشراسة، وكان ثمة مجندات سمراوات يقمن بنفس العملية، ولكن في حماس أشد. وكنت أرى أيضًا كيف كانت أمي تنظر باتجاهي وهي تبكي بصمت، وتمنيت لحظة ذاك لو أستطيع أن أقول لها أنني على ما يرام، وأن الشمس لا تؤثر فيّ، بالشكل الذي تتصوره هي..

كنت أنا من تبقى لها، فأبي قد مات قبل بدء الحوادث بسنة كاملة، وأخي الكبير أخذه أول ما دخلوا الرملة، لم أكن أعرف بالضبط ماذا كنت أعني بالنسبة لأمي، لكنني الآن لا أستطيع أن أتصور كيف كانت الأمور ستجري لو أنني لم أكن عندها ساعة وصلت دمشق، لأبيع لها جرائد الصباح وأنا أنادي وأرتجف قرب مواقف الباصات..

لقد بدأت الشمس تذيب صمود النساء والشيوخ.. وارتفعت من هنا وهناك بعض الاحتجاجات اليائسة البائسة، كنت أرى بعض الوجوه التي اعتدت أن أراها في شوارع الرملة الضيقة وتبعث في الآن شعورًا دقيقًا من الأسى، لكنني أبدًا لن أستطيع تفسير ذلك الشعور العجيب الذي تملكني، ساعة رأيت مجندة يهودية تعبت ضاحكة بلحية عمي أبي عثمان..

وعمي أبو عثمان ليس عمي بالضبط، ولكن حلاق الرملة وطبيها المتواضع، ولقد تعودنا على أن نجبه منذ وعيناه وأن نناديه بعمي احترامًا وتقديرًا، كان واقفًا يضم إلى جنبه ابنته الأخيرة، فاطمة، صغيرة سمراء تنظر بعينها السوداوين الواسعتين إلى اليهودية السمراء..

- ابتك؟! -

وهز أبو عثمان رأسه بقلق؟ ولكن عينيه كانتا تلتمعان بتمعنٍ قائم عجيب، وببساطة شديدة رفعت اليهودية مدفعها الصغير، وصوبته إلى رأس فاطمة، الصغيرة السمراء ذات العيون السوداء المتعجبة دائماً..

في تلك اللحظة، وصل أحد الحراس اليهود في تجواله أمامي، ولفت نظرة الموقوف، فوقف حاجباً عني المنظر، ولكنني سمعت صوت ثلاث طلقات متقطعة دقيقة، ثم تيسر لي أن أرى وجه أبي عثمان يتموج بأسى مريع، ونظرت إلى فاطمة، مدلى رأسها إلى الأمام، ونقاط من الدم تتلاحق هابطة خلال شعرها الأسود إلى الأرض البنية الساخنة.

وبعد هنيهة، مر أبو عثمان من جانبي، حاملاً على ساعديه الهرمتين جثة فاطمة، الصغيرة السمراء: كان صامتاً جامداً ينظر أمامه بهدوء بين الصفين إلى أول منعطف، وعدت أنظر إلى زوجته جالسة على الأرض ورأسها بين كفيها تبكي بأنين مقطوع حزين، وتوجه جندي يهودي نحوها، وأشار لها أن تقف.. ولكن العجوز لم تقف، كانت يائسة إلى آخر حدود اليأس.

هذه المرة، استطعت أن أرى بوضوح كل ما حدث، ورأيت بعيني كيف رفسها الجندي بقدمه، وكيف سقطت العجوز على ظهرها ووجهها ينزف دمًا، ثم رأيت، بوضوح كبير، يضع فوهة بندقيته في صدرها، ويطلق رصاصة واحدة.

في اللحظة التالية، توجه الجندي ذاته نحوي، وبهدوء شديد طلب مني أرفع ساقي التي أنزلتها للأرض دون أن أشعر وعندما رفس ساقي صفعني مرتين، ومسح ما علق على ظاهر يده من دم فمي، بقميصي، وشعرت بإعياء مدمر لكنني نظرت إلى أمي، هناك بين النساء، رافعة ذراعيها في الهواء كانت تبكي بصمت ولكنها في تلك اللحظة ضحكت من خلال بكائها ضحكة صغيرة دامعة، وشعرت بساقي تلتوي تحت ثقلي، وبألم فظيع يكاد يقطع فخذي، لكنني ضحكت أيضاً، وتمنيت مرة أخرى لو أنني أستطيع أن أركض إلى أمي، فأقول لها إنني لم أتألم كثيراً من الصفعتين، وإنني على ما يرام، وأرجوها باكياً ألا تبكي، وأن تتصرف كما تصرف أبو عثمان قبل هنيهة.

وقطع أفكاري مرور أبي عثمان من أمامي عائداً إلى مكانه بعد أن دفع فاطمة، وعندما حاذاني، غير ناظر إلي البتة، تذكرت أنهم قتلوا زوجته، وأن عليه أن يواجه مصاباً جديداً الآن، وتابعته مشفقاً، خائفاً بعض الشيء، إلى أن وصل إلى مكانه فوقف هنيهة مولياً ظهره المحدودب المبلول بالعرق، لكنني استطعت أن أتصور وجهه: جامداً صامتاً مزروعاً بحبيبات من العرق اللامع، وانحنى أبو عثمان ليحمل على ذراعيه الهرمتين جثة زوجته التي طالما رأيتها متربعة أمام دكانه تنتظر انتهاءه من الغداء كي تعود إلى الدار بالأواني الفارغة، وما لبث أن مر بي، وللمرة الثالثة، لاهثاً لهاثاً رفيعاً متواصلاً وحبيبات العرق مزروعة في وجهه المغضن، وحاذاني، غير ناظر إلي البتة، وعدت مرة أخرى أراقب ظهره المنحني المبتل بالعرق وهو يسير الهوينى بين الصفين.

لقد كف الناس عن البكاء، وخيم سكون فاجع على النساء والشيوخ وبدا كأنما ذكريات أبي عثمان تنخر في عظام الناس بإصرار، هذه الذكريات الصغيرة التي حكاها أبو عثمان لكل رجال الرملة وهم مستسلمون له على كرسي الحلاقة.. هذه الذكريات التي بنت لنفسها عالماً خاصاً في صدور كل الناس هنا.. هذه الذكريات بدت كأنما تنخر في عظام الناس بإصرار.

لقد كان أبو عثمان، كل عمره، رجلاً مسالماً محبوباً، كان يؤمن بكل شيء، وأكثر ما آمن بنفسه، لقد بنى حياته من اللاشيء، فعندما قذفته ثورة جبل النار إلى الرملة كان قد فقد كل شيء، وبدأ من جديد: طبيياً كأى غرسة خضراء في أرض الرملة الطيبة، وكسب حب الناس ورضى الناس، وعندما بدأت حرب فلسطين الأخيرة، باع كل شيء، واشترى أسلحة كان يوزعها على أقاربه ليقوموا بواجبهم في المعركة، لقد انقلبت دكانه إلى مخزن للمتفجرات والأسلحة، ولم يكن يريد لهذه التضحية أي ثمن، كل ما كان يطلب هو أن يدفع في مقبرة الرملة الجميلة المزروعة بالأشجار الكبيرة، هذا كان كل ما يريده من الناس.. كل رجال الرملة يعرفون أن أبا عثمان لا يريد أن يدفن في مقبرة الرملة عندما يموت.

هذه الأشياء الصغيرة هي التي أسكتت الناس، كانت وجوههم المبلولة بالعرق تنوء تحت ثقل هذه الذكرى.. ونظرت إلى أمي، واقفة هناك، رافعة ذراعيها في الهواء، شادة قامتها كأنها وقفت الآن، تتابع أبا عثمان بنظرها.. صامتة كأنها كوم رصاص، وعدت أنظر إلى

بعيد، ورأيت أبا عثمان واقفاً أمام حارس يهودي يحادثه ويشير إلى دكانه، وما لبث أن سار وحيداً باتجاه الدكان، وعاد حاملاً فوطة بيضاء لف بها جثة زوجته.. وتابع طريقه إلى المقبرة.

ثم لمحته عائداً من بعيد، بخطواته الثقيلة وظهره المنحني وساعديه الساقطين إلى جنبه بإعياء، واقترب مني بطيئاً كما كان يسير، شيخاً أكثر مما كان، معفراً مغبراً يلهث لهاثاً طويلاً ربيعاً، وعلى صدره نقاط كثيرة من الدم الممزوج بالتراب..

ولما حاذاني، نظر إليّ كأنه يمر بي للمر الأولى ويرياني، واقفاً هناك، في منتصف الشارع تحت سطح شمس تموز المحرقة: معفراً مبلولاً بالعرق، بشفة مجروحة مدلاة تجمد عليها الدم، وأطال النظر وهو يلهث، كانت في عينيه معان كثيرة لم أستطع فهمها ولكنني أحسستها وما لبث أن عاد إلى مسيره، بطيئاً مغبراً لاهثاً، فوقف، وأدار وجهه للشارع، ورفع ذراعيه وصالبهما في الهواء.

لم يتيسر للناس أن يدفنوا أبا عثمان كما أراد، ذلك أنه عندما ذهب إلى غرفة القائد ليعترف بما يعرف، سمع الناس انفجاراً هائلاً هدم الدار وضاعت أشلاء أبي عثمان بين الأنقاض. وقالوا لأمي، وهي تحملني عبر الجبال إلى الأردن، أن أبا عثمان عندما ذهب إلى دكانه قبل أن يدفن زوجه، لم يرجع بالفوطة البيضاء، فقط.

لؤلؤ في الطريق غسان كنفاني

صمت المذياع فجأة، وسمعت دقات ساعة منهوكة تأتي من أقصى المدينة، ثم اندلق الصوت دفعة واحدة فدقت أغنية ماجنة قطعها صوت يهنئ بحلول العام الجديد.

ولكن الغرفة بمن فيها بقيت صامتة كما كانت، كان صمتًا من ذلك الطراز الذي يختار الإنسان في تفسيره: أنصمت، يا ترى، لأننا ودعنا عامًا حافلًا بالعذاب؟ أم لأننا سوف نستقبل عامًا آخر، لا يبدو أقل عذابًا؟ أم للأمرين معًا؟

كان من الضروري أن يحرك إنسان ما الجو المخنوق، وهكذا اقترح حسن أن نخرج إلى الشرفة، حيث تنتشق هواء العام الجديد قبل أن تبذله أنوف الآخرين، كان الظلام مخيمًا بقسوة، وكان لهب أحمر في نهاية الأفق، حيث تحرق شركات النفط الغاز المتبقي عن حاجتها، كان اللهب يترنح في محاولة يائسة لإنارة الأفق كله، وكان يتهاوى بين الفينة والأخرى حتى يغسل الأرض بذوبه، ثم ينطلق من جديد.

- (إننا نربح كثيرًا، كثيرًا جدًا، ولكن هنالك من لا يستطيع أن يشم رائحة طعام طهي جيدًا).

قال حسن ذلك فيما يتكئ على حاجز الشرفة، بينما اقتعد الباقون حواف النوافذ الواطئة.

كنا قد عفنا مثل هذا النوع من دروس الأخلاق، كنا نعرف كل شيء عن الناس الذين يذوبون فيما هم يفتشون عن وسيلة للعيش، وكما نعرف، أيضًا، أدق التفاصيل عن بطولة الذين أتوا من بعيد كي يعيشوا، فماتوا من فرط ما تاقوا إلى العيش.. ولم نكن في حاجة لدرس جديد في الأخلاق، يأتي من إنسان حالم، يأكل الأفق بعيون متجهمة، ويتكئ كالشعراء على حاجز الشرفة.

إلا أن صوت حسن ما لبث أن وصل من جديد، محتويًا على شيء من التحدي:

- (أعرف قصة حدثت قبل عام، في مطلع العام الماضي. وكنت أنا أحد أبطالها).

وعاد إلى صمته، وبدا لنا أنه قد كف عن رغبته في التحدث، ولكنه عاود من جديد:

- يجب أن يموت الإنسان في مطلع عام، أو في نهاية عام، فذلك أدعى لحفظ تاريخ موته من إنسان يموت في يوم من الأيام.. لقد مات صاحبي، وبطل قصتي، في مطلع العام، وهكذا فإنه من الصعوبة بمكان أن ننسى موته، ولذلك فنحن مجبرون على ألا ننسى قصته أيضًا!

لقد أصبح من الواجب، الآن، أن يسأل أحدنا، ولو دون أن يرغب في ذلك:

- (وما هي القصة؟)

- (القصة يا سيدي غريبة حقًا.. وإن كنت أتعمد نسيانها أثناء العام، كي لا يكذبني الناس، أو أكذب نفسي، فإنه لمن العبث أن أنساها الآن.. ونحن في مطلع عام.. لماذا؟ آه.. إنني لا أدري على الإطلاق.. ولكنني أشعر أنه من العبث أن أنساها أكثر مما فعلت، ولذلك، فلا بد أن تسمعوها مني، وقد يخفف هذا عني بعض الشيء، أيضًا..)

واستدار حسن، فواجهنا وجه مظلّل بمأساة متلبدة كتقاطيعه، كان اللهب الأحمر قد ارتفع في نهاية الأفق حتى أقصاه، ثم انخفض إلى الأرض من جديد، وقال حسن:

- (لم أكن أدري أنّ سعد الدين سوف يلحق بي إلى هنا.. صحيح أننا عشنا طفولتنا سوياً، لكنني حصلت من الشهادات، فيما بعد، ما عجز هو عن تحصيله، ولذلك فإن إمكانية الكسب كانت متوفرة في حالتي أكثر مما هي في حالته، ولكنه رغم ذلك أتى إلى هنا، طامحًا طموحًا شديدًا في أن يربح شيئًا ما، وكان هذا الطموح، يورثه حماسة لا تهدأ.

لقد رحبت به ضيفًا في منزلي، وكنت أعني به قدر طاقتي، ولكنني لم أكن أستطيع تقديم أي شيء سهل له طريق وظيفة ما، لم يكن الصراع على أبواب دوائر الدولة في صالحه أبدًا، وكانت شهادة أي إنسان تعني بالنسبة له كفاً مبسوطة توشك أن تصفعه بقوة لا ترحم، وكنت على استعداد لتحمل سعد الدين أطول مدة مقدرة، ولكنني لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من أن أشرح له بين الفينة والأخرى أن الوظيفة بالنسبة له بعيدة، وأن عليه أن يعود إلى بلدته حيث يمكن للمشكلة أن تحل بطريقة أو بأخرى، قلت له في مرة إن العجلة التي تدور هنا شرسة إلى حدود أسطورية، وإنها لا تهتم بالإنسان الفرد على الإطلاق، وإن الجوع بالنسبة للبذخ المائل لا يمكن أن يكون إلا منظرًا مسليًا فحسب، وإن الناس هنا يلهثون

راكضين وراء القرش إلى حد أنهم لا يلتفتون خلفهم كي يشاهدوا الزاحفين.. ولكن سعد الدين لم يكن يهتم من الأمر شيء، ولقد قال لي مرة إنه لا يمكن له أن يعود بلا عمل، وبلا مال، وإنه لا يستطيع أن يتحمل على الإطلاق نظرة صديق أو عدو، يقول له، أو يهمس، أو يشير، أو لا يقول ولا يهمس ولا يشير، كيف يعود من وادي الذهب بلا ذهب؟

- يا سعد الدين...

كنت أقول له بين الفينة والأخرى.

- يا سعد الدين، غدًا سوف ينتهي ما جلبته معك من مال، فكيف تريد أن تتصرف؟ هل تتوقع من أصدقائك أن يربوك في بيوتهم كأنك مدلل ضائع؟ إن صحتك لا تساعدك على العيش اعتبارًا، أنت تشكو ضعفًا مرًا في قلبك يستلزم راحة مطلقة.. وغذاء جيدًا.. وهكذا فإن جو العائلة يناسبك أكثر من انفراط جو العازب.. يجب أن تعود إذا وجدت في جييك أجرة العودة.

ولكن سعد الدين لم يستمع، كان يريد أن يبقى في المدينة الصاخبة، السائرة رغم كل شيء، يفتش، ويلف، ويدور، ويبحث عن شيء ما.

ولكن، يا أصدقائي، لن أطيل عليكم، لقد أتانني ذات يوم فقال: إن ما معه من المال يوشك أن ينفد، وأنه قد وقع في الفخ حيث لا يستطيع أن يستمر أكثر، ولا أن يتراجع، وطلب مني المشورة.. ماذا كنت استطيع أن أقدم له سوى ثمن العودة؟ ولكنه رفض، وكان يريد معجزة ما شأن كل من يأتي إلى هنا.. معجزة تملأ جيوبه بالذهب، وتمسك بيده تقوده بلطف شديد إلى داره على بسط ممدودة.. ولقد بذلت، يشهد الله، جهدًا هائلًا من أجل أن أجتث من رأسه أية فكرة تدفعه للتردد.. ولقد اقتنع أخيرًا.. ثم، وخوف أن يتراجع كعاداته، طلبت منه أن يسير معي فورًا إلى أقرب مكتب سفر كي يرتبط نهائيًا بموعد إقلاع وشيك.

لقد سرنا سوية، كما أذكر، تلك الظهيرة، كان الجو غائمًا باردًا، وكان صمت سعد الدين يورثني حرجًا لا قبل لي به، وهكذا قررت أن أصمت أنا الآخر، ولكن صوت سعد الدين ما لبث أن انقض متلهفًا، وأحسست بكفه تشد ذراعي بعنف، وحين التفت إليه كان نداءً مرًا يلتصق في عيونه، ويختلج برجاء أخير، وقال لي شبه متوسل:

- اسمع يا حسن.. أنا أؤمن أن خلف هذه الزرقة يوجد أملٌ ما.. ولذلك فأنا لا أظن مطلقاً أنه سوف يتخلى عني، لقد وضحت أمامي طريق جديدة.. ولا بد لي من سلوكها.

- أي طريق؟

- انظر هناك.. أترى ذلك الجالس أمام القفص في وسط الساحة؟ أتعرف ماذا يبيع؟؟

ونظرت عبر الساحة، فرأيت رجلاً بائساً يجلس القرفصاء أمام قفص صغير، ولم يكن هناك أي زبون، ثم إن الطقس كان بردًا:

- لا أعرف!

- أنه يبيع محارًا.. هذا القفص مليء بالمحار.. إنه يجمع المحار ويبيع كل أربع بروية واحدة.. إن الله وحده يعرف فيما إذا كانت المحارة حبلً بلؤلؤة أم لا.. هذا أبداع (يانصيب) يمكن للواحد منا أن يشاهده عمره كله.

- وماذا في ذلك؟

- لا بد أن أجرب حظي.

- أي حظ؟

- الحظ المدفون تحت ركام عذاب عشرة أعوام، سوف أشتري محارًا بكل ما معي، ولا بُد من أن أجِد لؤلؤة.

إيه! لقد فقد سعد الدين كل توازنه، العذاب الطويل الذي أمضّ كل خلايا جسده، المجهود اليائس الذي كان يبذله في سبيل أن يعيش، كل هذا جعله يعتقد أن النجاح يكمن في خدعة ما.. في طريق مبطن تحت مظهر ساذج، موجود على أي حال هنا أو هناك. ولهذا كله، كان يصبر على أن الثروة والراحة وكل ما طمح له يكمن في بطن محارة مجهولة..

أتريدون الحقيقة؟ لقد كانت تجربة رائعة بالنسبة لي، أنا، أيضًا.. من يدري؟ ربما وجدنا لؤلؤة! وربما كانت لؤلؤة كبيرة مدورة، مزرققة بهدير محيط مجهول متباعد.. أليس من الممكن أن يجد سعد الدين لؤلؤة وأن يستمر في النضال هنا، فترة أطول.. أو أن يعود إلى

منزله وفي جيبه شيء ما؟

وهكذا توجهنا إلى الرجل المقرفص.. ولكنني رغم كل شيء كنت أخاف أن يسحق سعد الدين فشل آخر، فقامت بمحاولة أخيرة، ولكنها مستسلمة سلفاً:

- سعد الدين! هل تعرف أن فرصتك واحدة من ألف؟ هل تعرف أن بين كل ألف محارة توجد محارة واحدة حبل بلؤلؤة؟ وقد يكون الجنين الثمين صغيراً كحبة عدس؟ فقال:

- هناك ملايين من المحارات في قاع البحر، يا حسن أستطيع أن تؤكد أن صاحبنا الغواص لم يحمل المحارات المحظوظة، ويترك كل المحارات الفارغة هناك؟ وجلسنا أمام الرجل، ودفع له سعد الدين كل ما في جيبه، واختار كومة صغيرة من كومة المحار، وبدأ لي في تلك اللحظة أن وجود بلؤلؤة في هذا الكوم من القاذورات المبتلة، طموح لا مبرر له.

وبدأت سكين الرجل تعمل بالمحارات.. كان يدخلها ببراعة فائقة في رأس المحارة، حيث شقت الشمس نافذة صغيرة تكفي لرأس النصل، ثم يرفعها بحركة دائرية فتفتح المحارة عن كتلة لزجة شبيهة باللحم الطري، كأنها أحشاء حيوان صغير، وتعمل السكين تنقيباً في قطعة اللحم، ثم تُلقي المحارة العاقرة في سلة النفايات، وترتسم الخيبة في عيني سعد الدين، ثم تمحى تحت إصرار أمل جديد، وتعود السكين تعمل، من جديد، أيضاً.

وبدأ كوم المحارات يتصاغر شيئاً فشيئاً، ثمة غمامة مجهولة كانت تهيمن على الموقف، كانت عيون سعد الدين تتشبث لاهثة بالسكين المعقوفة وهي تفتح المحارات الفارغة، وكان الرجل يقوم بعمله بكل بساطة، وكنت قد بدأت أتابع سعد الدين، وأكاد أشاهد الغصة تمتص صموده بألف خرطوم هلامي.

أيها الأصدقاء.. ما تم، بعد، كان غريباً إلى حدود مذهلة، لقد تبقت، ثمة، محارة واحدة لا غير، وكان الإجهاد قد وضح على وجه سعد الدين، فأخذت أرقبه وجلاً، ومغفلاً مراقبة أنامل الرجل وهي تفك غموض المحارة.. لقد بدا شكل سعد الدين مخيفاً.. شكل إنسان

على وشك السقوط في هوة، وكان يبدو أنه قد تعلق نهائياً بهذه المحارة، وأن كل المستقبل لا بد وأن يكون هناك. وفجأة، التمع في العينين الملهوفتين بريق راعب، وخيل إلي أن الحياة قد تمثلت لمعاناً في العينين العميقتين، لمعاناً غريباً فحسب، كان يحدق في المحارة، وكنت أحدق في وجهه، ثم، وقبل أن أدرك شيئاً، سقط سعد الدين على وجهه في الوحل، وعندما حاولت رفعه، وجدته ميتاً!

كان الظلام ما زال يخيم بقسوة، واللهب الأحمر يرتفع بقوة نحو الأفق ثم يهمد فجأة، ومررت لحظات من الصمت الميت، لم يكن أحد منا يرغب في التعليق أو الحديث، ولم يكن يهمننا ساعتها أن نناقش حسن فيما إذا كان واهماً أو مبالغاً أو كاذباً، ولكننا لم نكن نستطيع أن نخلع أنفسنا عن القصة. ووصل صوت حسن مرة أخرى، راجفًا متوترًا:

- كان المسكين يشكو ضعفًا في القلب، ولم يستطع أن يتحمل، ولكن يتحمل ماذا؟ صدقوني أنني لا أعرف أيها الأخوة لماذا مات سعد الدين؟ هل كانت، ثمة، لؤلؤة داخل تلك المحارة الأخيرة الملعونة فمات فرحاً، أم كانت فارغة كأخواتها العاقرات، فمات غمماً؟ لقد مضى كل شيء بسرعة، ودون أن أفطن لهذا الموضوع، لقد أنساني الجسد المطروح في الوحل كل شيء عن المحار واللؤلؤ.. وعندما انتهينا من نقل الميت، كان صاحب المحار قد اختفى، بطبيعة الحال.

الصغير يذهب إلى المخيم

غسان كنفاني



تم ترشيح هذا النص من قبل الطالبة فاطمة عبدالله احمد عبدالله اليماني
مدرسة الماسة للتعليم الثانوي للبنات في الفجيرة.

كان ذلك زمن الحرب. الحرب؟ كلا، الاشتباك ذاته.. الالتحام المتواصل بالعدو لأنه أثناء الحرب قد تهب نسمة سلام يلتقط فيها المقاتل أنفاسه. راحة. هدنة. إجازة تفهقر. أما في الاشتباك فإنه دائماً على بعد طلقة. أنت دائماً تمرّ بأعجوبة بين طلقتين، وهذا ما كان، كما قلت لك، زمن الاشتباك المستمر.

كنت أسكن مع سبعة أخوة كلهم ذكور شديدي المراس، وأب لا يحبّ زوجته ربما لأنه أنجبت له زمن الاشتباك ثمانية أطفال. وكانت عمّتنا وزوجها وأولادها الخمسة يسكنون معنا أيضاً، وجدنا العجوز الذي كان إذا ما عثر على خمسة قروش على الطاولة أو في جيب أحد السراويل الكثيرة المعلقة مضى دون تردد واشترى جريدة، ولم يكن يعرف، كما تعلم، القراءة، وهكذا كان مضطراً للاعتراف دائماً بما اقترف كي يقرأ أحدنا على مسمعه الثقيلين آخر الأخبار.

في ذلك الزمن - دعني أولاً أقلّ لك أنه لم يكن زمن اشتباك بالمعنى الذي يخيّل إليك، كلاً لم تكن ثمة حرب حقيقية. لم تكن ثمة أي حرب على الإطلاق. كل ما في الأمر أننا كنا ثمانية عشر شخصاً في بيت واحد من جميع الأجيال التي يمكن أن تتوفر في وقت واحد. لم يكن أي واحد منا قد نجح بعد في الحصول على عمل، وكان الجوع - الذي تسمع عنه - همنا اليومي. ذلك أسميه زمن الاشتباك. أنت تعلم. لا فرق على الإطلاق.

كنا نقاتل من أجل الأكل، ثم نقاتل لنوزعه فيما بيننا، ثم نقاتل بعد ذلك. ثم في أية لحظة سكون يخرج جدّي جريدته المطوية باعتناء من بين ملابسه ناظراً إلى الجميع بعينيه الصغيرتين المتحفّزتين، معنى ذلك أن خمسة قروش قد سرقت من جيب ما - إذا كان فيه هناك خمسة قروش - أو من مكان ما. وأن شجاراً سيقع. ويظل جدّي متمسكاً بالجريدة وهو يتصدّى للأصوات بسكون الشيخ الذي عاش وقتاً كافياً للاستماع إلى كل هذا الضجيج

والشجار دون أن يرى فيها ما يستحق الجواب أو الاهتمام.. وحين تهدأ الأصوات يميل أقرب الصبيان إليه (ذلك أنه لم يكن يثق بالبنات) ويدفع له الصحيفة وهو يمسك طرفها، كي لا تخطف.

وكنت مع عصام في العاشرة - كان أضخم مني قليلاً كما هو الآن.. وكان يعتبر نفسه زعيم إخوته أبناء عمتي - كما كنت أعتبر نفسي زعيم إخوتي.. وبعد محاولات عديدة استطاع والدي وزوج عمّتي أن يجدا لنا مهنة يومية: نحمل السلّة الكبيرة معاً ونسير حوالي ساعة وربع، حتى نصل إلى سوق الخضار بعد العصر بقليل. في ذلك الوقت أنت لا تعرف كيف يكون سوق الخضار: تكون الدكاكين قد بدأت بإغلاق أبوابها وآخر الشاحنات التي تعبر بما تبقى، تستعد لمغادرة ذلك الشارع المرحوم. وكانت مهمتنا - عصام وأنا - هيّة وصعبة في آن واحد. فقد كان يتعيّن علينا أن نجد ما نعبئ به سلتنا: أمام الدكاكين. وراء السيارات، وفوق المفارش أيضاً إذا كان المعنيّ في قيلولة أو داخل حانوته.

أقول لك أنه كان زمن الاشتباك: أنت لا تعرف كيف يمرّ المقاتل بين طلقتين طوال نهاره. كان عصام يندفع كالسهم ليخطف رأس ملفوف ممزّق أو حزمة بصل، وربما تفاحة من بين عجالات الشاحنة وهي تتأهب للتحرك. وكنت أنا بدوري أتصدّي للشياطين - أي بقية الأطفال - إذا ما حاولوا تناول برتقالة شاهدتها في الوحل قبلهم. وكنا نعمل طوال العصر: نتشاجر عصام وأنا من جهة، مع بقية الأطفال أو أصحاب الدكاكين أو السائقين أو رجال الشرطة أحياناً، ثم أتشاجر مع عصام فيما تبقى من الوقت.

كان ذلك زمن الاشتباك. أقول هذا لأنك لا تعرف: إن العالم وقتئذ يقرب على رأسه، لا أحد يطالبه بالفضيلة. سيبدو مضحكاً من يفعل.. أن تعيش كيفما كان وبأية وسيلة هو انتصار مرموق للفضيلة. حسناً. حين يموت المرء تموت الفضيلة أيضاً. أليس كذلك؟ إذن دعنا نتفق بأنه في زمن الاشتباك يكون من مهمتك أن تحقق الفضيلة الأولى، أي أن تحتفظ بنفسك حيّاً. وفيما عدا ذلك يأتي ثانياً. ولأنك في اشتباك مستمر فإنه لا يوجد ثانياً: أنت دائماً لا تنتهي من أولاً.

وكان يتعيّن علينا أن نحمل السلّة معاً حين تمتلئ ونمضي عائدين إلى البيت: ذلك كان طعامنا جميعاً لليوم التالي.. بالطبع كنا أنا وعصام متفقين على أن نأكل أجود ما في السلّة

على الطريق. ذلك اتفاق لم نناقشه أبداً، لم نعلن عنه أبداً. ولكنه كان يحدث وحده. ذلك أننا كنا معاً في زمن الاشتباك.

وكان الشتاء شديد القسوة ذلك العام، وكنا نحمل سلة ثقيلة حقاً، (هذا شيء لا أنساه، كأنك وقعت أثناء المعركة في خندق فإذا به يحوي سريراً) وكنت آكل تفاحة، فقد كنا خرجنا من بوابة السوق وسرنا في الشارع الرئيسي. قطعنا ما يقرب من مسير عشر دقائق بين الناس والسيارات والحافلات وواجهات الدكاكين دون أن نتبادل كلمة (لأن السلة كانت ثقيلة حقاً وكنا نحن الإثنين منصرفين تماماً إلى الأكل) وفجأة..

لا. هذا شيء لا يوصف. لا يمكن وصفه: كأنك على نصل سكين من عدوك وأنت دون سلاح وإذا بك في اللحظة ذاتها تجلس في حضن أمك..

دعني أقل لك ما حدث: كنا نحمل السلة كما قلت لك، وكان شرطي يقف في منتصف الطريق، وكان الشارع مبتلاً، وكنا تقريباً دون أحذية. ربما كنت أنظر إلى حذاء الشرطي الثقيل والسميك حين شهدتها فجأة هناك، كان طرفها تحت حذائه، أي كنت بعيداً حوالي ستة أمتار ولكنني عرفت، ربما من لونها أنها أكثر من ليرة واحدة.

نحن في مثل هذه الحالات لا نفكر. يتحدثون عن الغريزة. طيب. أنا لا أعرف ما إذا كان لون الأوراق المالية شيئاً له علاقة بالغريزة. له علاقة بتلك القوة الوحشية، المجرمة، القادرة على الخنق في لحظة، الموجودة في أعماق كل منا. ولكن ما أعرفه هو أن المرء في زمن الاشتباك لا ينبغي له أن يفكر حين يرى ورقة مالية تحت حذاء الشرطي وهو يحمل سلة من الخضار الفاسد على بعد ستة أمتار. وهذا ما فعلته: ألقيت ببقايا التفاحة وتركت السلة في اللحظة ذاتها. ولا شك أن عصاً تمايل فجأة تحت ثقل السلة التي تركت في يده ولكن كان قد شاهدها بعدي بلحظة واحدة. إلا أنني بالطبع كنت قد اندفعت تحت وطأة تلك القوة المجهولة التي تجبر وحيد القرون على هجوم أعمى، غايته آخر الأرض، ونطحت ساقي الشرطي بكتفي فترجع مذعوراً. وكان توازني أنا الآخر قد اختل. ولكنني لم أقع على الأرض وفي تلك اللحظة التي يحسب فيها الأغبياء أن لا شيء يمكن له أن يحدث شاهدها: كانت خمس ليرات. لم أشاهدها فحسب بل التقطتها واستكملت سقوطي. إلا أنني وقفت بأسرع مما سقطت وبدأت أركض بأسرع مما وقفت.

ومضى العالم بأجمعه يركض ورائي: صفارة الشرطي، وصوت حذائه يقرع بلاط الشارع ورائي تمامًا. صراخ عصام، أجراس الحافلات. نداء الناس.. هل كانوا حقًا ورائي؟ ليس بوسعك أن تقول وليس بوسعي أيضًا. لقد عدت متأكدًا حتى صميمي أن لا أحد في كل الكواكب السيارة يستطيع أن يمسكني.. وبعقل طفل العشر سنوات سلكت طريقًا آخر.

ربما لأنني حسبت أن عصامًا سيدلّ الشرطي على طريقي. لست أدري. لم ألتفت. كنت أركض ولا أذكر أنني تعبت.. كنت جنديًا هرب من ميدان حرب أجبر على خوضها وليس أمامه إلا أن يظل يعدو والعالم وراءه كعبي حذائه.

ووصلت إلى البيت بعد الغروب، وحين فتح لي الباب شهدت ما كنت أشعر في أعماقي أنني سأشاهده: كان السبعة عشر مخلوقًا في البيت ينتظرونني. وقد درسوني بسرعة، ولكن بدقة، حين وقفت في حلق الباب أبادلهم النظر: كفي مطبقة على الخمس ليرات في جيبي، وقدماي ثابتتان في الأرض.

كان عصام يقف بين أمه وأبيه، وكان غاضبًا. لا شك أن شجارًا قد وقع بين العائلتين قبل مقدمي. واستنجدت بجدي الذي كان جالسًا في الركن ملتحفًا بعباءته البنية النظيفة ينظر إليّ بإعجاب: كان رجلًا حكيمًا. رجلًا حقيقياً يعرف كيف ينبغي له أن ينظر إلى الدنيا.

وكان كل ما يريده من الخمس ليرات: جريدة كبيرة هذه المرة.

وانتظرت الشجار بفارغ الصبر. كان عصام بالطبع قد كذب: قال لهم أنه هو الذي وجد الخمس ليرات وأنني أخذتها منها بالقوة. ليس ذلك فقط، بل أجبرته على حمل السلة الثقيلة وحده طوال المسافة المنهكة: ألم أقل لك أنه زمن الاشتباك؟ لم يكن أي واحد منّا مهتمًا فقط بل كان متأكدًا من أن أحدًا لم يهتم بالحقيقة. ليس ذلك فقط بل إنه ارتضى أن يذل نفسه ويعلن ربما للمرة الأولى أنني ضربته وأني أقوى منه.. ولكن ما قيمة ذلك كله أمام المسألة الحقيقية الأولى.

كان أبوه يفكر بشيء آخر تمامًا: كان مستعدًا لقبول نصف المبلغ وكان أبي يريد النصف الآخر لأنني لو نجحت في الاحتفاظ بالمبلغ كله لصار من حقي وحدي، أما إذا تخلّيت عن هذا الحق فأفقد كل شيء وسيتقاسمون المبلغ.

ولكنهم لم يكونوا يعرفون حقاً معنى أن يكون الطفل ممسكاً بخمس ليرات في جيبه زمن الاشتباك.. وقد قلت لهم جميعاً بلهجة حملت لأول مرة في حياتي طابع التهديد بترك البيت وإلى الأبد: إن الخمس ليرات لي وحدي.

وأنت تعرف لا شك: جنّ جنونهم، ضاع رابط الدم فوقفوا جميعاً ضدي. لقد أذروني أولاً. ولكنني كنت مستعداً لما هو أكثر من ذلك ثم بدأوا يضربونني. وكان بوسعي بالطبع أن أدافع عن نفسي، ولكن لأنني أردت أن أحتفظ بكفي داخل جيبي مطبقة على الخمس ليرات فقد كان من العسير حقاً أن أتجنب الضربات المحكمة. وقد تفرّج جدّي على المعركة باستثناء بادئ الأمر، ثم لما بدأت المعركة تفقد طرافتها قام فوقف أمامهم، وبذلك يسر لي أن ألصق به. اقترح تسوية. قال إن الكبار لا حق لهم بالمبلغ. ولكن من واجبي أن آخذ كل أطفال البيت ذات يوم صحو إلى حيث نصرف جميعاً مبلغ الخمس ليرات كما نشاء.

عندها تقدّمت إلى الأمام معتزماً الرفض، إلا أنني في اللحظة ذاتها شهدت في عينيه ما أمسكني. لم أفهم بالضبط آنذاك ما كان في عينيه، ولكنني شعرت فقط أنه كان يكذب وأنه كان يرغوني أن أصمت.

أنت تعرف أن طفل العشر سنوات - زمن الاشتباك - لا يستطيع أن يفهم الأمور (إذا كان ثمة حاجة لفهمها) كما يستطيع عجوز مثل جدّي. ولكن هذا هو ما حصل. كان يريد جريدته ربما كل يوم لمدة أسبوع - وكان يهمله أن يرضيني بأي ثمن.

وهكذا اتفقنا ذلك المساء. ولكنني كنت أعرف أن مهمتي لم تنته. فعليّ أن أحمي الليرات الخمس كل لحظات الليل والنهار. ثم عليّ أن أماطل بقية الأطفال. وعليّ أيضاً أن أواجه محاولات إقناع وتغريز لن تكف عنها أُمي. قالت لي ذلك المساء إن الليرات الخمس تشتري رطلين من اللحم، أو قميصاً جديداً لي، أو دواء حين تقتضي الحاجة، أو كتاباً إذا ما فكّروا بإرسالني إلى مدرسة مجانية في الصيف القادم... ولكن ما نفع الكلام؟ كأنها كانت تطلب مني وأنا أعبر بين طلقتين أن أنظف حذائي.

ولم أكن أعرف بالضبط ماذا كنت أنوي أن أفعل. ولكنني طوال الأسبوع الذي جاء بعد ذلك نجحت في مماطلة الأطفال، بآلاف من الكذبات التي كانوا يعرفون أنها كذلك ولكنهم لم يقولوا إطلاقاً أنها أكاذيب. لم تكن الفضيلة هنا. أنت تعلم. كانت مسألة أخرى تدور حول

الفضيلة الوحيدة آنذاك: الخمس ليرات.

ولكن جدّي كان يفهم الأمور، وكان يريد جريدته ثمنًا معادلًا لدوره في القصة، وحين مضى الأسبوع بدأ يتململ. لقد شعر (من المؤكد أنه شعر، ذلك لأن رجلاً عجوزًا مثله لا يمكن أن تفوته تلك الحقيقة) أنني لن أشتري له الجريدة، وأنه فقد فرصته، ولكنه لم يكن يمتلك أية وسيلة لاستردادها.

وحين مرّت عشرة أيام أخرى اعتقد الجميع أنني صرفت الليرات الخمس، وأن يدي في جيبي تقبض على فراغ. على خديعة. ولكن جدّي كان يعرف أن الليرات الخمس ما تزال في جيبي. وفي الواقع قام ذات ليلة بمحاولة لسحبها من جيبي وأنا مستغرق في النوم، (كنت أنام بملابسي) إلا أنني صحت فتراجع إلى فراشه ونام دونما كلمة.

قلت لك. إنه زمن الاشتباك. كان جدّي حزينًا لأنه لم يحصل على جريدة، وليس لأنني نكثت بوعده لم يتفق عليه. كان يفهم زمن الاشتباك، ولذلك لم يلمني طوال السنتين اللتين عاشهما بعد ذلك على ما فعلته. وقد نسي عصام القصة أيضًا. كان في أعماقه - كطفل صعب المراس - يفهم تمامًا ما حدث. واصلنا رحلاتنا اليومية إلى سوق الخضار، كنا نتشاجر أقل من أي وقت مضى ونتحدث قليلًا. يبدو أن شيئًا ما - جدارًا مجهولًا ارتفع فجأة بينه - هو الذي ما زال في الاشتباك - وأنا الذي تنفّست - ليس يدري كم - هواء آخر.

وأذكر أنني احتفظت بالخمس ليرات في جيبي طوال الخمسة أسابيع: كنت أعد خروجًا لائقًا لها في زمن الاشتباك. إلا أن كل شيء حين يقترب من التنفيذ كان يبدو وكأنه جسر للعودة إلى زمن الاشتباك وليس للخروج منه.

كيف تستطيع أن تفهم ذلك؟ كان بقاء الليرات الخمس معي شيئًا يفوق استعمالها. كانت تبدو في جيبي وكأنها مفتاح أمتلكه في راحتي وأستطيع في أية لحظة أن أفتح باب الخروج وأمضي. ولكن حين كنت أقرب من القفل كنت أشمّ وراء الباب زمن اشتباك آخر. أبعد مدى. كأنه عودة إلى بداية الطريق من جديد.

وما بقي ليس مهمًا: ذات يوم مضيت مع عصام إلى السوق وقد اندفعت لأخطف حزمة من السلِق كانت أمام عجالات شاحنة تتحرّك ببطء. وفي اللحظة الأخيرة زلقت وسقطت تحت

الشاحنة. كان حظي جيداً فلم تمر العجلات فوق ساقي، إنما توقفت بالضبط بعد ملاستها. وعلى أية حال صحوت من إغمائي في المستشفى. وكان أول ما فعلته - ما لا شك فيه - أن تفقدت الخمس ليرات. إلا أنها لم تكن هناك.

أعتقد أن عصام هو الذي أخذها حين حملوه معي في السيارة إلى المستشفى. ولكنه لم يقل وأنا لم أسأل. كنا نتبادل النظر فقط ونفهم. لا، لم أكن غاضباً لأنه كان ملهياً وأنا أنزف دمي بأخذ الليرات الخمس. كنت حزيناً فقط لأنني فقدتها.

وأنت لن تفهم. ذلك كان في زمن الاشتباك.

الزوار

يوسف إدريس

ماكاد آخرهم يخرج ويفرغ العنبر محتوياته المكتظة كالقطار المزدحم حين يصل إلى محطة النهاية، حتى التفتت «سمسم» وهو ليس اسم دلع ولكنه اسمها الحقيقي إلى سكينه التفاتة حادة وقالت بصوت عال:

- (بقي) اسمي يا...

واحتارت قليلاً هل تقول لها يا (بت) ياسكينة أم سكينة فقط... وسكينة كان اسمها سكينه وهي سكينه فعلاً، وهو اسم قد يبدو ريفياً، ولكنها لم تكن ريفية النشأة أو الملامح! كانت من مدينة ما، واحدة من عشرات مدننا أنصاف الكبيرة، مؤدبة جداً، خجولة جداً، ورقيقة أيضاً. وكانت تحتل السرير المجاور لسمسم المرأة الضخمة، كبيرة الصدر، التي يميل لونها إلى السمرة، ودائماً ترتدي قميص نوم أبيض.

والسريران كانا في عنبر واحد من العنابر الكبيرة التي تحفل بها مستشفياتنا العامة والمركزية والجامعية والصدرية، العنبر المعهود ذو الاثنين والعشرين سريرًا.. عنبر الحريم يسمونه.. له (تومرجية) سليطة اللسان، ومنفوخة الجسد، مكورة كالبطة، و(تومرجي) أعمش مفروض ألا يدخل العنبر، وأن يقتصر عمله على المطبخ ودورة المياه، ولكن أحداً لم يعلن يوماً هذا المفروض وأحداً لم ينفذه.

وكانت سكينه الضعيفة الرقيقة الحنونة التي تحس إذا اطلت النظر إليها أو عمقته أن هناك فعلاً أناساً ضعفاء محتاجين إلى الشفقة، كانت مريضة بمرض مزمن ولها في المستشفى ثلاثة أشهر وأمنيتها الكبرى أن تغادر وتخرج.. ولكنهم لا يخرجونها ولا يصرحون لها بالخروج، ولا يفعلون هذا بعنف أو بحزم كما قد يعتقد البعض.. إنهم يفعلون بأنصاف الابتسامات أحياناً وبهز الرءوس والطبوبة أحياناً أخرى.. وأحياناً بمجرد القول: حالا إن شاء الله تخرجين.. أما سبب بقائها أو إبقائها فهو أن مرضها من نوع غريب يحلو للأستاذ أن يحاضر طلبته وأطبائه الصغار عليه.. وأن يريه لزملائه الكبار كما لو يريهم قطعة نادرة ضمن مجموعة أصداف أو طوابع يريد يقتنيها.

وسكينة لم تكن مقطوعة من شجرة.. كان لها إخوة، في الحقيقة أخ واحد غير شقيق وأختان.. وكان لها خالات وعمات وقريبات كأى إنسان منا وكل إنسان. ولكن رغم هذا كله فلم يكن لها زوار بالمرة. طوال الأشهر الثلاثة التي مكثتها بالمستشفى لم يزورها أحد.. من يوم أن أتى بها أخوها وأودعها العنبر لم تر وجهه. تلك حقيقة تعرفها هي ويعرفها الجميع حتى التمرجية السليطة اللسان تعرفها.. وقد تكون مشكلة الخروج تلح على سكينة في أحيان كشيء لا بد منه ولا بد من حدوثه ولا بد أن تكلم الطبيب الكبير بشأنه، ولكن مشكلتها الأكثر حدة في الواقع أن يزورها أحد.. أن تغمض عينيها وتفتحهما فتجد يداً توقظها من النوم أو الغفوة وتقول لها: قومي يا سكينة.. جالك زوار.

طوال أيام الجمع والاثنين -والحقيقة طوال أيام الأسبوع- يفد العشرات والمئات والآلاف على المستشفى ويوزعون على عنابرهم ثم على أسرته، وقد يخص كل سرير زائر أو خمسة أو عشرة.. ماعدا سريرها هي لم يكن يهوب ناحيتها أحد، أو للدقة كان زوار جارتها يتخذون سريرها كأريكة يجلسون عليها، وهي من خجلها لا تعترض أو تأتي بحركة تسبب حرجاً لأحد. كانت تغادر الفراش نهائياً. وتذهب تمشى في الطريقة أو تخرج إلى شرفة العنبر القذرة.. هناك تتخذ مستودعاً لأكوام الزباله وقشر البرتقال والموز واليوسفندي الآتي لابد مع كل زيارة.

وهناك.. في تمشيتها هذه كانت سكينة تخزن وتنقبض وتحس أنها مظلومة، وأن لا بد ثمة خطأ في الكون جعلها تبقى بغير زوار.. إن أخاها باستطاعته أن يخطئ مرة ويزورها.. وكم زارت هي إخوتها وبنات خالاتها وكان واجبهم في هذه الحالة أن يردوا الزيارة.. ماذا حدث حتى جمّد قلوبهم وقساها؟ ماذا حدث حتى نسيها الجميع هكذا ونسوا أنها في مستشفى؟ ماذا حدث حتى تنقطع صلتها هكذا بعائلتها وأقربائها وحتى بصديقاتها وبالدينا كلها؟ لم تكن تدري.. حتى مجرد إرسال خطاب.. ما أرسل لها أحد خطاباً أو بعث بسلام.

إحساس لم يكن يشاركها فيه أحد.. كانت أعماق أعماق قلبها هي التي تكتئب وتخزن فقط.. أما كل ما على السطح من وجه وملامح فقد كان يلتف دائماً بابتسامة لا فرق بينها وبين مئزر الصوف الذي تتلفع به.

وطالت المدة، ثلاثة أشهر.. وأربعة وخمسة، والمرضى يتغير معظمهم حتى لم يبق من القدامى سوى جارتها سمسمة. والوضع على ما هو عليه.. وضع عجيب وغريب. فهي

صحيح ضائقة بالمستشفى والبقاء فيه تريد بشق النفس أن تخرج وتغادره.. ولكنها في نفس الوقت وإذا ما سألت نفسها لا تعرف أبدًا لمن وإلى أين تذهب وماذا بالضبط ستفعل.. لقد كانت قبل دخولها تحيا مع أخيها تخدمه في انتظار أن يتزوج هو أو يأتيها هي عريس، ولكنها مرضت وكانت تقضي الليل كله تنهج وتكح حتى ضاق بها الأخ وانتهاز أول فرصة وأدخلها المستشفى.. ربما كي لا تعالج بقدر ما يتخلص منها ومن حشرات أنفاسها. بل إنها سمعت أنه بعد دخولها المستشفى تزوج وعزل من البيت. وشقيقاتها كلهن متزوجات، وهى ليست جميلة حتى يرحب بها زوج أي أخت.. بل لقد ذبلت وكبرت حتى على الزواج فألى من تذهب وإلى أين؟ وضع عجيب وغريب فهي ضائقة بالمستشفى ضيقًا لا حد له، ومستسلمة لهذا الضيق والحياة في المستشفى استسلامًا لا حد له أيضًا، كالسجين الذي يتوق إلى الخروج من السجن إلى الحياة والحرية، ولكنه حين يدرك أنه إذا خرج فلن يعرف ماذا ولا كيف يفعل بحريته تلك يستسلم للسجن. ويكاد يجن بين الضغطين.

ولم تأت المسألة فجأة.. بل وإلى الآن لم تفكر فيها سكينة تفكيرًا جدًّا أو تدبرت ما فعلت، ولكنها هكذا جاءت.. سمسة كانت زوجة أحد المعلمين الكبار الذي لا يقل عدد أقربائهم وأنسابهم وأولادهم ونسائهم وبناتهم عن المئات بأي حال من الأحوال، ولهذا كان لا يمر يوم دون أن يزور سمسة لا أقل من خمسة أو ستة زوار. ويوم العطلات والأعياد يرتفع الرقم حتى يكاد يصل إلى الخمسين.. وكان يبدو على سمسة أنها في الوقت الذي تعتب فيه على فلانة الفلانية لأنها لم تزرها، ما يكاد الزوار يغادرونها حتى تلهث تعبًا وحتى تغمغم ببرطمة لا يفهم منها سوى الضيق الشديد بالزيارة والزوار، والمسألة بدأت بأن راحت سكينة تسأل سمسة عن الزوار إذا قدموا من هم، وما هي درجة قربهم لها، وماذا يشتغلون؟ ولم يكن الأمر مجرد سؤال.. دأبت سكينة على ملاحظتهم بدقة ومعرفتهم بالاسم حتى لتطفح السعادة من وجهها حين تقول لسمسة بعد خروج زائر:

- (مش ده مصطفى ابن خالتك اللي بيشتغل في السكة الحديد)؟

فتبهت سمسة وتقول:

-الله.. (وأنتي إيه اللي عرّفك)؟

حينئذ تحس سكينة الناحلة الهادئة الساكنة بسعادة داخلية لا حد لها.. غير معقول بالمرّة أو

مقبول، فقد أصبحت لمجرد أنها عرفت الزائر وخمته، جاء تخمينها بالضبط مطابقاً للحقيقة. ولكن هذه السعادة - بالترار - لم تعد تحدث، ووجدت سكينه نفسها مدفوعة إلى خطة أخرى كي تحس بنفس سعادتها السابقة. بدأت تقدم مساعدات، وتسرع مثلاً وتحضر كراسي لزوار سمسة - أو إذا أرادت الأخيرة أن تعزم عليهم بالقهوة أو الشاي أو الغازوزة - أسرع سكينه إلى البوفيه تحضر الطلبات بنفسها. وكانت سمسة تأخذ الأمر في أوله باعتبار أنه نوع من الطيبة من سكينه لا أكثر، ولكنها بدأت تعجب فعلاً وقد راحت سكينه تقوم بأعمال غير معقولة أبداً.. تأخذ الأطفال من الأمهات الزائرات وتدايهم أو تذهب بهم إلى دورة المياه.. وتلعب مع الأبناء الكبار وتقول لهذا الزائر.. والنبى وحياتك بقى سلم على فلانة وفلان وكأنهم أقرباؤها هي.

بدأت سمسة تستعجب، وسمسة لم تكن سهلة ولا طيبة ولا مسكينه أبداً. إنها جهنم الحمراء إذا انفتحت وإذا رأت في الأمر ما يريب.. وكانت سكينه قد زودتها في نظرها كثيراً وبشكل أصبح لا تفسير له ولا تبرير، تجلس مع الأقرباء والأصهار طوال الزيارة ولا تغادرهم للحظة وكأنها منهم وعليهم، يتحدثون عن أدق أدق أمورهم العائلية الخاصة فلا تخجل ولا تبتعد. بل أكثر من هذا تهتم بها وتناقشها مناقشة المتحمس الغيور، وتبدي الآراء أيضاً.. وتتنظر سمسة على أحر من الجمر أن «تحس» سكينه مرة فتقوم أو تغادر الفراش.. أو على الأقل تولي انتباهها إلى الناحية الأخرى بلا فائدة، إذ كانت سكينه لا تفعل شيئاً من هذا أبداً، بل تظل طوال الجلسة بأكملها وبعد الجلسة أيضاً تتحدث وتعقب وتحاول أن تدخل سمسة في أخص الشؤون وفي الغويط.. وسمسة تكظم وتكظم. فصحيح أن سكينه تتدخل ولكنها تفعل هذا وهي راقدة في فراشها نفسه لا تغادره، وعلى العكس إن زوارها هم الذين يجلسون على فراش سكينه وبهذا يعطونها الفرصة للاندماج والتدخل.

بل تطور الأمر إلى ما هو أكثر، وبدأت سكينه تقتنص زائر أو زائرة من الجالسين على فراشها وتنخرط في حديث لا ينقطع معه أو معها بحيث تنتهي الزيارة وهم لم يتبادلوا كلمة واحدة مع قريبتهم سمسة، وكأنهم جاءوا لزيارة سكينه أصلاً.

ولقد تكرر الأمر مرة مرة وسمسة صابرة تكظم، إلى أن كان هذا اليوم الذي قررت أن تنفجر فيه. وهكذا ما كاد آخر زائر في يوم الزيارة يخرج ويفرغ العنبر محتوياته المكتظة

كقطار وصل إلى محطة النهاية، حتى التفتت سمسمة إلى سكينه التفاته حادة وقالت بصوت بالغ العلو:

- (بقي) اسمعي يا...

واحتارت قليلاً.. أتقطع العشم والعلاقة والعيش والملح مرة واحدة وتقول يا بت يا سكينه، أم تكتفي بنهرها وتقول يا سكينه فقط؟ فإذا قالت لها يا سكينه فكيف تستطيع أن تصب عليها بهذه البداية ما يتفجر به صدرها الضخم العالي الأسمر من غضب وضيق؟ احتارت سكينه وكأنما لتزيد برؤيتها لها جرأتها وعنف انفجارها.. كانت قد قررت أن توقفها عند حدها وأن تنذرها بأنها إذا استمرت في اقتناص زائر أو أكثر من زوارها هكذا فسوف تمرط الأرض بزوارها - زوار سكينه إذا جاؤوا - والعين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم.

صوبت سمسمة عينها إلى سكينه لتجدها راقدة في سريرها نصف مغطاة الجسد تحمق أمامها كمن يجتر ذكرى لحظة سعيدة مرت.. وفجأة اكتشفت سمسمة الجهنمية أن تهديدها الذي يكاد يفلت من فمها لا معنى له بالمره. أجل هكذا.. في ومضة مفاجئة اكتشفت سمسمة أن سكينه لا يأتيها زوار ولا ينتظر أن يأتيها أحد.. وهكذا بعد أن كانت قد استدارت واستدار السرير لاستدارتها، وقالت: (بقي)

اسمعي يا....

وحين التفتت سكينه بدهشة ونوع من الذعر تسأل: نعم يا ست سمسمة؟ لم تغير سمسمة رقدتها ولا رفعت عينها عن وجه سكينه.. كل ما في الأمر أن صوتها انخفض فجأة حتى كاد لا يسمع.

وقالت:

- (لا ه)... ولا حاجة.. (ده كلمة كده وعدت).

قالت هذا وهي ترمق الفتاة بعينين مشتتين فوق وجهها يكاد يطفئ منهما الدمع.. وظلت مثبتة عينها فوق وجه سكينه لا ترفعهما، وكأنها تراها لأول مرة.. رفيعة نحيلة مقطوعة من شجرة.

الحرب والجوع الشيخ عبدالله العلي

الكآبة! إنها كلّ طفولتي. ولا تعجب فقد اتفق وكنت أيام الحرب العالمية الأولى، أشهد وأبصر مقصلة الجوع، فلا بدع أن تغشّني الكآبة وتفشّت في أعماقي لا كسدل أو ستار، بل كقِمَاط يلتقّني من أنحائي.

رأيت الهول المجسم في الطرقات والأزقة، وأبصرت بمشاعري كلها، حتى انقلبت - كما حسبتني - ولست إلا عينا، جاحظة، بل ليس القتل والقتال شيئا بالنسبة إلى ما كنت أرى، فإرادة القتل في الحروب تخفّف وقع القتل.

أمّا حَزّة الألم الحقيقي فتكمن في المسغبة، في الجوع الذي لا يفتأ يطعنك، وأنت لا تستطيع له دفعا، بكل نضاله، ليعود فيطعن ويطعن، كمعاصر هائلة تدور أسنانها على أشلاء حيّة، وتظلّ ماضية غُدواً ورواحاً، صباح مساءً لمساءً صباحاً وهكذا دواليك.

رأيت أطفالاً وأمّهات أدعوهم كذلك مجازاً، لأن الذي رأيت في الحقيقة: كان موميّات جوع، تُزري بكل ما أبدعت ريشة «رمبرانت» الهولندي وما أعطت ريشة «هولبين» الألماني في تحفته «رقص الموت»، وما جرت به ريشة «روبنز» (الفلمنكي). أقول هذه الريشات مجتمعة تعجز عن نقل مرئياتي، بكلّ ارتسامات تكشيرة الرعب في أخاديدها الغائرة. وأقلّ ما انحفر عميقاً في سرائري، منظر فتى اتفقت له لقيمة أسرع إليها فمه وللحظته اقتحم على فمه فم آخر والتزما عليها لينفكاً وكلّ في فمه شَفّة الآخر يعضّها مشفوعة بدمعة، لا أدري أدمعة تريح كانت أم دمعة فرح. فالذي ظلّ في غائمة وعيي أنّهما كانا يعضغان وبيكيان.

نامي ليستيقظ الدمع ويحكي عبد العزيز الفارسي

لحظة رأيتُ اجتماعهم قبيل الظهر، ساقني حدسي إلى الموت.

الوجوه الصارمة، باللحى المسترسلة على الصدور تملأ مسجدنا في حادثين لا غير: درسٌ بعد صلاة العشاء لإمام عابرٍ للقارات، أو موتٌ رجلٍ نحسبه صالحًا. وشممتُ رائحة الكافور، ودهن العود والأكفان الجديدة وكلي يقينٌ أنها تنبعثُ من ذاكرتي.. وذاكرتي فقط. وتركَزتُ خطبة الجمعة حول الألم، والحمى، والأمراض والأجور الأخروية المترتبة عليها. وأنا في حدسي أطوف وأسعى بين الكافور ودهن العود وبياض الأكفان. أعالجُ الموت المباغت بالكبرياء.

« سيدي الموت: إن جئت على غفلةٍ فمرحبًا بك، وإن استأذنت بمرض عُضال فعلى الرحب والسعة. ولن أردك. لا حبًا، ولكن رغبةً في معرفة المُطلق ».

رغبةً في اختبار الحدس، سألتُ الذي عن شمالي. كان يُذيل دُبر صلاة الجمعة بالاستغفار والتسبيح. همستُ: «أمات أحد؟».

أوماً بالإيجاب: «شريفة».. فتَهَشَّم الرمش الذبيحُ على يدي، وتساقطت من أضلعي نُدفُ الأسي..

« سيدي: ألسنت نفسك تقبضُ الأرواح هنا، وهناك.. فلم قبضت روح شريفة في أرض الغرباء؟!.. غربتان يا موت؛ عن أرض الأهل وغربتك. أفتجمعهما؟. لا أنهرك يا غريب.. لا ننهرك يا غريب ».

وتساقطت ذكرى الغياب مدائن، طوت الرحيل بأعين مترقبةٍ لم تكن ثمة رائحة للكافور، أو دهن العود، البياض رائحة جثمانها الذي اصطفنا خلفه. قال إمامٌ خَضَبَ لحيته بالحناء:

« نصلي أربع تكبيرات على الميتة. بعد الأولى نقرأ الفاتحة. بعد الثانية نقرأ الصلاة الإبراهيمية. بعد الثالثة ندعو للميتة. بعد الرابعة... »

وأكمل القلب ما تبقى: « ندعو لما تبقى من أرواحنا، ثم نُسلم ».

« الله أكبر ».

تغضبُ زوجتي إذا سألت عن عمر الميت وأجبتها: « أصغر منا بكذا سنة أو أكبر منا بكذا سنة ». تصرخ: « قل عُمر الميت مُجرّدًا من أي مقارنة بأعمارنا ». لكن إن سألت عن عمر شريفة التي لم تكمل الثلاثين.. سأقول بسبق إصرار: « أصغر منك بخمس سنين ».

« الله أكبر »

قالت شريفة يومًا - قبل أن أهجرها لفرط غبائي - تحدّثني عن نكهة الفقد: « أكره الموت الضعيف، ولم أزر مريضًا قبل موته. أريدُ فقد أحبتي كما كانوا شامخين ضاحكين بهامات ورؤوس تعانق الشمس ». لذا لم أزر شريفة في مرضها، وأذكرها الآن فقط ضاحكة بشوشة.

« الله أكبر »

الدعاء للميتة: ربي.. هذه شريفة..

ربي.. هذه شريفة..

ربي هذه.....

« الله أكبر »

السلام عليكم ورحمة الله...

يا مُخَضَّب اللحية: لم استعجلت بالسلام ولم تترك لنا فرصة الصلاة على أنفسنا؟ يا مُخَضَّب اللحية.. يا إمام: أضمن وجود من يدعو لي بعد الموت؟

قيل عن جنازة المؤمن إنها خفيفة في الحمل، سريعة في الوصول إلى القبر. والجنازة تنطلق في هرولة. استلمتُ الجانب الأمامي الأيمن للنعش لأتحسس وزن شريفة. قالت: « وزني خمسة وأربعون كيلو غرامًا.. خمسة لي، والأربعون هموم ونكسات أحملها بين أضلعي ». وزن شريفة الآن خفيف. ربما كان خمسة كيلو غرامات. شريفة: أين تركت الهموم والنكسات!!؟

كان القبرُ جاهزاً. دسستُ نفسي بين الأكتاف المتراسة لألقي نظرة على الداخل. قال صبيُّ لجدّه: «يااااااه. عميق». رد الجد: «لو ما مكرهن.. ما غرّزوا قبرهن».. غصصتُ بالكلمات فتراجعتُ للخلف.

الغبار يخنقُ وجه الشمس، واتخذ بعض الرجال ظل الصدر ملاذاً حتى وضع الجثمان في اللحد والإغلاق عليه. فيما توافدت بعض السيارات إلى باب المقبرة، جاء بها من تخلف عن الجنازة، ومن قرر توفير السيارات لدرب العودة بعد الدفن.

قالت شريفة ذات وهج: «ما يفعل الموتُ بنا؟! لا شيء. لا شيء». كنا نعالج الحر بالبوظة المثلجة ونسحبُ أنفاساً عميقة. لم تسمعني الآن لقلت: «هذا ما يفعل الموت»، ولأشرت إلى عدد من كبار السن قد افترشوا التراب وجلسوا يسردون أخبارهم. بعضهم تناول أعواداً يابسة وصار يخطط بها في وجه الأرض..

«أيها الموت الغريب.. أيها الموت الغريب. ذابت احتمالاتنا كالبوظة في حر الصيف. سالت وتخلّصنا منها. تمنينا لعق ما تبقى من البوظة والاحتمالات على اليدين. لكننا خجلنا. كابرنّا. ربما...»

خرج أبوها من القبر. تبعه ولداه. أحدهما يبكي والآخر يتأمل الوجوه. أما الأب فقد بدا صارماً. زارته النوبة القلبية قبل شهر ودخل العناية يومين. قال له الطبيب: أربعون في المائة.. هذا احتمال وفاتك خلال شهر من الآن.. وإن نجوت فإن هناك نسبة تقارب العشرين بالمائة.. هي احتمال وفاتك خلال سنة. هذا ما تقوله إحصائيات الأزمات القلبية في أنحاء العالم. مرّ شهر وسقطت العشرون بالمائة الأولى. قبل انقضاء العشرين بالمائة الأخيرة ماتت ابنته التي يعيّر بها ولديه: بشريفة فقط أرفع رأسي.. أما أنتما فلا فائدة أرجوها منكما. هكذا قال يوم تفوقت.

«أهبلوا التراب. كل واحدٍ يهيل ثلاثة كفوف ويفسح لغيره كي يأخذ الأجر».

تسابقوا لإهالة التراب على اللحد. ارتفعت كومة الغبار عالياً.

أغضمتُ عيني وأهلت التراب..

«شريفة.. ما أقول للغياب؟ ما أقول للغياب؟!»

«لك ألف خطوة فينا. لك ألف خطيئة. فمتى يا غياب تؤوب؟»

نفضوا أياديهم من الغبار، ولم أنفض يدي.

تقدّموا لتقبيل أبيها وأخويها..

«الصبر.. الصبر يا جماعة»

«عظّم الله أجركم»

ويوم تقدّمتُ إلى أبيها، احتضنته بصمت، ثم تواريت. ركبوا سياراتهم وتركوا القبر الرطب. وحدي مشيتُ أجرجر المراثية، وأبحثُ عن كلماتها. لك المطلق الآن يا شريفة. لك المطلق، ولي أساور من تمنّ، تزيّن الانتظار الكئيب.

«سيدي الموت: إن جئت على غفلةٍ فمرحباً بك، وإن استأذنت بمرضٍ عُضال فعلى الرحب والسعة. لن أردك. لا حباً، ولكن رغبةً في المُطلق».

كانت زوجتي غاضبة حين وصلتُ البيت. ذرعتُ فناء الدار عشرين مرةً في انتظاري. صرختُ: «أين كنت؟! لقد أخفّفتني. مرّ على انقضاء صلاة الجمعة ساعة ولم تأت. وما هذا التراب في يديك؟». دلفتُ إلى المنزل. قلتُ:

- كنا ندفن شريفة.

- ادفن من تريد، ولكن أخبرني أنك ستأخر عن القدوم. قتلتنني من الانتظار. أين جهازك النقال؟

- هنا في البيت، ألم يكن ممكناً أن تتصل من هاتف زميلك لتخبرني عن تأخرك؟.. ثم من شريفة هذه؟

تصمت؟!.. تعودتُ منك الجري خلف جناز أناسٍ لا تعرفهم. هيا ادخل لأخذ حمام وانفض عنك هذا التراب.

- لن أنفضه!!!!..دخلتُ إلى مكتبي وتأملتُ يدي المغبرتين. مسحتُ بهما على صدري.
قالت شريفة في احتياج: «أريد البكاء على كتفك».
قلتُ رافضاً لخوفٍ ملأني: «أخشى أن تجرح رموشك كتفي».
لم تبك، الآن والغبار على هذا الصدر أنادي شريفة: «نامي.. ليستيقظ الدمع ويحكي».

الناسك الحكيم للكاتب الروسي (ليو تولستوي)

خطر مرة لأحد الملوك خاطر عابر ملأ عقله، فشغله عن كل امرأة.. حبذا لو عرف ذلك الملك لكل عمل ميعاد عمله الأنسب. ثم لكل عمل في ميعاده رجله الأنجب، إذا لظفر صعدا إلى ذروة المجد والخلد في كل ما يدور بالخلد من أعمال الملك بين الناس!

وتشبث الملك بخاطره.. فأذاع الأمر بين عساكره. وذهب العسكر إلى دساكر المملكة ومدنها ينادون: يا أصحاب العلم وطلاب الحكمة، لقد تعطف الملك فوعد بأثمن الجوائز لمن يجيب عن هذا السؤال: من يكون أنسب الرجال لأنسب الأعمال في أنسب الأوقات!

وتدفق العلماء على ساحة الملك يتدافعون ويدافعون كل عما ارتآه.. ويا أكثر ما سمع فريق يقوم قائلاً: إن أنسب الأوقات إنما يمكن معرفته بقائمة يكتب الإنسان فيها الأيام والشهور والأعوام.. ويظل متبّعاً إياها لا تفوته من أحداثها شاردة.. ولا واردة. وهكذا لا يفتأ يطبق حاضره على ماضيه. متخذاً من حوادث الزمن عبرته فتصدي لأصحاب هذا الرأي مَنْ يقول: وما لنا نظل غارقين بأنفسنا في اعتبارات الماضي.. نستوحىها ونستلهمها. وفي حوادث الحاضر وما هو أول عبرة. وأجل اعتباراً، فما على الإنسان إلا أن يجلس وينظر حواليه فيما يدور من أحداث. ومن ثم يستتبعه، ويستوعبه ويستخرج منه أنسب الأوقات لأي عمل من الأعمال!

فإذا فريق ثالث ينهض متسائلاً: وهل يمكن للإنسان أن يتتبع كل ما يدور حوله من حوادث الزمان. لعمر الحق إن الرأس لا تعرف في العلم من يأس. ولكن إقناع اليأس من بلوغ شيء والبلوغ نفسه شيء آخر، فما أحوج المرء الضعيف لنفسه، والقليل بمحتويات رأسه، أن يتخذ له مشيرين وناصحين، يفتونه، ويدلونهم على أنسب الأوقات لأنسب الأعمال! ودعنا من أنسب الأوقات، فما هي أنسب الأعمال يا أحكم الرجال؟

هذا شيخ وقور يتقدم إلى ساحة الملك، ويتكلم في حنكة وحكمة قائلاً:

- إن أنسب الأعمال هو التعليم.. لأن العلم هو النور الذي يتسع على الحوادث.. فيضيء أركانها ويكشف من جوانبها. فإذا ضابط عجوز يضرب الأرض بقدميه في حمية وحماسة

ويقول:

- ما قيمة العالم بلا حرب.. وما قيمة الحرب بلا أمن؟ فعبثًا إذا يضيع الناس.. أوقاتهم إن لم يعرفوا أسرار الفنون الحربية ومتاهاها.

ولكن ألا نستمتع إلى هذا اللابس المسوح يتقدم في هيئة الكهنوت ويقف قائلاً:

- لقد شغلتم الدنيا يا أبناء الناس عن دينكم. وما أحوج الروح الخالدة فيكم إلى التغلب على أجسادكم الفانية.. فليس أكثر خيرًا من مزاوله الطقوس الدينية.. ولا أنسب من إقامة شعائر الله.

والسؤال الثالث: من هم أحكم الرجال الذي هم أجدى بأن يقلدهم الملك مقاليد الأمر.. ويستمتع إلى نصحتهم.. وحكم قولهم في كل أمر. ألا يكونون هم العلماء.. أم الأطباء.. أم أنهم الكهنة.. أم أن الملك بلا جند كطائر بلا جناح.. وإذا فهم الجنود.

اختلفت الأقوال وتضاربت الآراء. فما اقتنع الملك بقول.. ولا أرضاه رأي.. وهو يتلهف شوقاً إلى إجابة ما خطر له من سؤال. ولكن آه، ما أكثر ما ينسى الملك ويسهو أن في الغابة ناسكاً.. كم قالوا إنه حكيم وناقد الفكر.. وإذا فهو صاحب الرأي وليسأله الملك.

وتنكر الملك في زي فلاح ساذج. وخرج إلى الغابة إلى حيث يعيش الناسك الحكيم فما بلغه هناك في دغلة من الأحرش. وجده أمام كوخه مكباً على الأرض يحفر بفأسه.. فحياه الملك فرد التحية متأدباً ثم عاد إلى عمله، لا يكل ولا يني.

وكان الناسك نحيفاً ضعيفاً.. وكل مرة يرسل فيها الفأس إلى الأرض. ويخرج من صلبها بعض التراب. يقف هنيهة متفرساً في شهيق وزفير طويلين. ثم يعود فيضرب في الأرض فأسه.

واقترب الملك منه قائلاً:

- إنني قد أتيت إليك.. أيها الناسك الحكيم لكي تدلني على ثلاث مسائل حيرتني: فما هو أنسب وقت لكل عمل؟ وما هو أنسب عمل لكل وقت؟ ثم من هو أنسب الرجال ليركن إليه المرء في تصريف أمره؟

فأنصت الناسك إلى الملك.. ولكنه لم يجب.. بل لم يلبث أن عاد للحفر لا يني: فقال له الملك:

- إنك على ما يبدو متعب.. فدعني آخذ الفأس منك.. وأعمل بعض الوقت عنك. فشكره الناسك وناولته الفأس. ثم استلقى على الأرض يستريح. وما ضرب الملك الفأس ضربتين حتى توقف. وأعاد على مسمع الناسك أسئلته.. ولكن الناسك ظل صامتًا. ومد يده يريد الفأس وهو يقول يمكنك أن تستريح هنيهة ودعني أعمل.

ولكن الملك لم يعطه الفأس وراح يضرب، والحفرة في الأرض تتسع. ومرت ساعة.. ثم أخرى، إلى أن اكفهرت الشمس.. وبدأت تغوص خلف الأشجار. فألقى الملك أخيرًا بالفأس على الأرض وقال:

- جئت إليك أيها الرجل.. لكن تجيب عن أسئلتني. فإن كنت مصممًا ألا جواب: فقل لي حتى أعود!

فتلفت الناسك إلى بعيد وقال:

- ها هو شخص يأتي راکضًا.. فدعنا نره من يكون.

ونظرًا الملك فرأى رجلًا ملتحيًا.. يجري إلى داخل الغابة، وقد ضمّ كلتا يديه على أحشائه ودماء غزيرة تسيل منه.. ولما سقط على الأرض مغشيًا عليه، فأسرع إليه الملك ورفع عنه رداءه فإذا بجرح كبير قد انشق في جسمه. فأمسك الملك بالجرح وغسله بالماء وطهره على قدر ما استطاع وربطه بمنديله.

ولكن الدماء ما تفتأ تسيل وتنفجر. فما زال الملك يضمد الجرح حتى أخذ سيل الدماء منه يهدأ شيئًا فشيئًا.. ثم انقطع.

وحينئذ أفاق الرجل من غيبوبته.. وتلفت ساهمًا حواليه. فلما رأى الملك.. طلب منه في ضراعة شرابًا ييل به جفاف حلقه فأسرع الملك وملاً كوب ماء وسقاه. وكانت الشمس إذ ذاك سقطت في وحدة الأفق.. وترطب الجو بنسمة البحر.. فحمل الملك والناسك الرجل الجريح وأدخلاه في جوف الكهف، ومدداه على الفراش وأسبلا عليه من أرديتها ما يكفي

لبعث الدفء فيه.. فأغلق الرجل عينيه وغفا.

وكان الملك قد أرهقه السير وأنهكه العمل طيلة هذا اليوم العجيب، حتى إنه استلقى على الأرض ونام أعمق نوم عرفه في حياته طول الليل حتى الصباح!

وفي الصباح استيقظ الملك ويا لدهشته.. إذ ألقى نفسه في هذا المكان الموحش المقبض، ولكنه عاد بعد قليل، فتذكر الناسك وكهفه. ثم هذا الرجل ذا اللحية الذي رآه الساعة يحدق فيه النظر بعينين براقتين. وإذا رأى الرجل الملك قد تنبه إلى أنه يمعن فيه النظر. قال له بصوت ضعيف أن اغفر لي. فقال الملك:

- أنا لا أعرفك يا صاح.. وليس ثمة ما أغفر لك من أجله.

فأجاب الرجل:

- أنت لا تعرفني.. ولكني أنا أعرفك.. أنا عدوك الذي أقسم ليبتقم لنفسه منك يا من قتلت أخاه. وسرقت أمواله ودمرت بيته شر تدمير. وها أنا قد عرفت أنك ذاهب وحدك لتعود الناسك فأصررت لأقتلك عند عودتك وتربصت وانتظرت. فخرجت حانقاً أهيم باحثاً عنك. حتى صادفني بعض حرسك فعرفوني وانقضوا عليّ انقضاض الوحوش الكواسر حتى خلفوا في جسمي جرحاً مميتاً.. فجاهدت حتى تخلصت منهم وهربت إلى أحراش الغاب... حيث وجدت.. ولكنك أسرعرت إليّ فضمدت جراحي ولو لم تفعل لكنت أنا في عداد الأموات.. فليشنقوني. لقد أردت قتلك يا مولاي الملك. إن أنا عشت. وإن أنت أردت فسأكون خادمك المخلص.. مضحياً بحياتي.. وأكون أول المضحين من أجلك.. وليكن أبنائي عبيدك يا مولاي.. ما حييت فاغفر لي.

فتهلل وجه الملك بشراً.. وامتألت نفسه فرحاً.. لتصالحه مع عدوه بمثل هذه السهولة، وما غفر له كيده فحسب.. بل لقد وعده ليعوض له ما أصابه من فقد أخيه. وليرد له ما سلبه من أمواله.

فخرج فرحاً شاكراً.. داعياً للملك راعياً حبه وولاءه.

وتلفت الملك حواليه في الكهف فلم يجد الناسك.. فغادر المكان خارجاً فوجده راکعاً

على ركبتيه جاهدًا يعيد التراب إلى الحفرة التي حفرها بالأمس فاقترب منه وقال له.
- للمرة الأخيرة.. أرجوك أيها الرجل الحكيم أن تجيب عن أسئلتني. فقال الناسك وما زال منكبًا على ركبتيه:

- ولكنك قد أجبت عن أسئلتك.

فدهش الملك وقال:

- أجبت عن أسئلتني... بربك ما الذي تعني.

فأجاب الناسك:

- ألا ترى.. إن لم تكن قد أرحت ضعفي بالأمس. ولم تحفر هذه الحفرة لي. ورجعت غاضبًا لكان هذا الرجل قد عثر بك وقتلك... ولكنك قد ندمت على أنك غادرته. فأهم الأوقات إذاً كان عندما كنت ممسكًا بالفأس تضرب الأرض بها. وكان أهم عمل عملته.. هو أن ساعدتني، وفعلت الخير لي. لأنك لو لم تفعله، لكان قد أصابك الشر الذي ينتظره وقد كنت أنا أهم الأشخاص بالنسبة لك... لأنك لم تكن تعرف من الذي سيصادفك من الناس بعدي. هذا شأنك معي. أما حين ركض الرجل نحونا فقد كان أنسب وقت هو الذي ضمدت فيه جراحه لأنك لو لم تفعل لمات الرجل ولم يصفح عنك. وإذا لقد كان الخير الذي عملته معه هو أنسب الأعمال وكان الرجل نفسه أنسب الرجال. فتذكر إذاً أيها الملك أن هناك وقتًا واحدًا أهم وأنسب من كل الأوقات. وهذا الوقت هو الآن. فالآن هو الوقت الذي تبغي.. لأنه الوقت الوحيد الذي نملك. أن يكون لنا فيه ثمة قوة. أما أهم وأنسب الأشخاص فهو الذي تكون معه لحظتك هذه. لأنك لا تعرف بعد هذه اللحظة مع من غيره ستعامل.

أما أهم وأنسب الأعمال فهو أن تعمل لهذا الشخص خيرًا. لأنه لهذا الغرض وحده وضعت في هذه الأجساد.. الحياة وخلق الإنسان!

المغفلة

للکاتب الروسي (أنطوان تشيخوف)

منذ أيام دعوت إلى غرفة مكتبي مربية أولادي « يوليا فاسيلفنا » لكي أدفع لها حسابها.

قلت لها:

- اجلسي يا (يوليا فاسيلفينا)، هيا نتحاسب، أنت في الغالب بحاجة إلى النقود، ولكنك خجولة إلى درجة أنك لن تطلبها بنفسك.. حسناً.. لقد اتفقنا على أن أدفع لك ثلاثين (روبلًا) في الشهر.

- أربعين.

- كلا، ثلاثين، هذا مسجل عندي.. إذن تستحقين ستين (روبلًا).. نخصم منها تسعة أيام أحاد.. فأنت لم تعلمي (كوليا) في أيام الأحاد، بل كنت تتنزهين معه فقط. ثم ثلاثة أيام أعياد.

تضرج وجه (يوليا فاسيلفينا)، وعبثت أصابعها بأهداب الفستان ولكن.. لم تنبس بكلمة!

- نخصم ثلاثة أعياد، إذن المجموع اثنا عشر (روبلًا).. وكان (كوليا) مريضًا أربعة أيام ولم تكن دروس.. كنت تدرّسين (لفاريا) فقط.. وثلاثة أيام كانت أسنانك تؤلمك فسمحت لك زوجتي بعدم التدريس بعد الغداء.. إذن اثنا عشر زائد سبعة تساوي تسعة عشر.. نخصم، الباقي.. هم.. واحد وأربعون (روبلًا).. مضبوط؟

احمرّت عين (يوليا فاسيلفينا) اليسرى وامتلات بالدمع، وارتعش ذقنها. وسعلت بعصبية، وتمخطت، ولكن.. لم تنبس بكلمة!

- قبيل رأس السنة كسرت فنجانًا وطبقًا. نخصم (روبلين).. الفنجان أغلى من ذلك، فهو موروث، ولكن فليسامحك الله! علينا العوض.. نعم، وبسبب تقصيرك تسلق (كوليا) الشجرة ومزّق سترته.. نخصم عشرة.. وبسبب تقصيرك أيضًا سرقت الخادمة من (فاريا) حذاء.. ومن واجبك أن ترعي كل شيء، فأنت تتقاضين مرتبًا.. وهكذا نخصم أيضًا خمسة.. وفي (10) يناير أخذت مني عشرة (روبلات). فهمست يوليا فاسيلفينا:

- لم آخذ!
- ولكن ذلك مسجل عندي!
- طيب، ليكن..
- من واحد وأربعين نخضم سبعة وعشرين.. الباقي أربعة عشر..
- امتألت عينها الاثنان بالدموع.. وطفرت حبات العرق على أنفها الطويل الجميل. ياللفتاة المسكينة!
- وقالت بصوت متهدج:
- أخذت مرة واحدة.. أخذت من حرمكم ثلاث (روبلات).. لم آخذ غيرها..
- حقاً؟ انظر، وأنا لم أسجل ذلك! نخضم من الأربعة عشر ثلاثة، الباقي أحد عشر.. هاهي ذي نقودك يا عزيزتي! ثلاثة.. ثلاثة.. ثلاثة.. واحد، واحد.. تفضلي!
- ومددت لها أحد عشر (روبلًا).. فتناولتها، ووضعتها في جيبها بأصابع مرتعشة. وهمست:
- (Merci).
- فانتفضت واقفاً وأخذت أروح وأجيء في الغرفة. واستولى عليّ الغضب.
- سألتها:
- (Merci) على ماذا؟
- على النقود..
- ياللشيطان، ولكنني نهبتك، سلبتك! لقد سرقت منك! فعلام تقولي (Merci)؟
- في أماكن أخرى لم يعطوني شيئاً..
- لم يعطوك؟! ليس هذا غريباً! لقد مزحت معك، لقتتك درساً قاسياً.. سأعطيك نقودك، الثمانين (روبلًا) كلها! هاهي ذي في المظروف جهزتها لك! ولكن هل يمكن أن تكوني

عاجزة إلى هذه الدرجة؟ لماذا لا تحتجين؟ لماذا تسكتين؟ هل يمكن في هذه الدنيا ألا تكوني حادة الأنياب؟ هل يمكن أن تكوني مغفلة إلى هذه الدرجة؟

ابتسمت بعجز فقرأت على وجهها: « يمكن! » .

سألتهما الصّفح عن هذا الدرس القاسي وسلّمتهما، لدهشتها البالغة، الثمانين (روبلاً) كلّها. فشكرتني بخجل وخرجت.. وتطلّعت في إثرها وفكّرت: ما أسهل أن تكون قويّاً في هذه الدّنيا!

ضيوف في الليل (توماس هاردي)

كانت الأمطار تهطل بعزارة.. وكانت الرياح تصفر في ذلك الليل البهيم.. تكاد تقتلع أكواخ القرية الصغيرة.. ولكن كوخ المزارع [فليفل] كان حافلاً تلك الليلة.. كان أهل القرية يحتفلون بعيد ميلاد ابنة فليفل.. كانوا يشربون ويأكلون ويرقصون على أنغام القيثارة العذبة التي كانت تخفقها في الخارج أصوات العاصفة الهوجاء. ولم يكن يقطع عليه مرحهم إلا تيار من الرياح العاصفة يندفع داخل الكوخ، من نافذة نسي المزارع فليفل يوم أمس أن يسعفها ببعض المسامير عند حذره أهل القرية من هبوب العاصفة. أما سقف ذلك الكوخ المسكين، فقد كان يسمح لنقاط من المطر أن تتساقط على أرض الكوخ برتابة وانتظام، مشكلة ما يشبه الإيقاع لأنغام القيثارة الراقصة!

وقامت السيدة فليفل لتنجد نار الموقد التي كاد يخبو أوارها، عندها سمعت طرقتين متتاليتين.. وتوقف الراقصون وجمدت أيدي القرويين.. قبل أن تصل الكؤوس إلى الشفاه.. ثم أشار فليفل إلى زوجته التي كانت قريبة من الباب.. فرفعت المزلاج.. ودخل الكوخ بعد أن أحنى رأسه شاب طويل نحيف، التصقت ثيابه الممزقة بجسده المرتجف من البرد، وحاول الشاب أن يقول شيئاً، لكن فليفل فهم كل شيء.. كان يحتاج إلى الدفء.. إلى الطعام.. إلى الراحة..

وعاد الكوخ إلى مرجه بعد أن استقر الشاب الطويل على مقعد قرب الموقد، ليحفظ ثيابه، ويدفئ جسمه بشرحة لحم قدمتها له ابنة فليفل التي يحتفلون بعيد ميلادها: (ألا تشاركنا حفلة ميلادي؟) وحاول الشاب الطويل للمرة الثانية أن يقول أي شيء، لكن لسانه لم يسعفه، فابتسمت الفتاة الصغيرة وهي ترمقه بنظرة فيها من الحذر بقدر ما فيها من البراءة والإشفاق.

ويظهر أن النار المتأججة، والطعام الساخن، والموسيقى الريفية الراقصة، وطيبة أهل القرية الذين يفتحون قلوبهم لكل ضيف... يظهر أن كل ذلك ساعد على إخراج الشاب الطويل من صمته، عندما سأله السيدة فليفل: (يخيل إليّ أنني رأيتك من قبل. ولكن أين؟ هذا ما يحيرني..) فأجاب الشاب الطويل: (لقد غادرت هذه المنطقة منذ سنين.. ولقيت بعد ذلك

كثيراً من المتاعب وسمعت ثلاث طرقات قوية متتالية، وكأن صاحبها كان عصبي المزاج، فقد باشر بالطرق ثانية بينما كان أحد القرويين يُنزل بالمزلاج.. وتلفت الشاب الطويل حوله، وكأنه يبحث عن شيء في أركان الكوخ.

وكان الضيف الثاني لا يقل عن الأول طولاً، ولكن تلك الشعرات البيضاء التي تخطط شعره كانت تدل بوضوح أنه يزيد عمرًا.. وكان هناك اختلاف آخر..

كان الضيف الجديد يرتدي معطفًا سميكًا، ظهرت تحته بذلة رمادية عندها فك أزواره.. وقال بلهجة فيها من الأمر أكثر مما فيها من الطلب: يجب أن أرتاح بعض الوقت، وإلا فستغرقني الأمطار قبل أن أصل إلى (كاسل بريدج). ولم يكن فليفل أقل كرمًا منه في المرة الأولى فقد قال مرحّبًا: (أهلاً بالضيوف في حفلتنا المتواضعة).

وانحنى الضيف الثاني للشاب الطويل وهو يتخذ لنفسه مجلسًا قرب النار. وبعد أن قام فليفل بواجباته نحو الضيف الجديد، سأله وهو يلوك قطعة من اللحم أرهقت أسنانه: وهل تقيم في (كاسل بريدج)؟ فأجاب الضيف الجديد: كلا.. ولكن يجب أن أكون هناك في الغد قبل الساعة الثامنة صباحًا فسأله فليفل: (وهل تؤدي هناك أية وظيفة؟).

ولم يرد الضيف الجديد، فقد تظاهر بأنه مشغول بأكل ما قدم إليه من طعام: فقال الشاب الطويل معقبًا: (تستطيع غالبًا أن تعرف حرفة الإنسان إذا نظرت إليه).

فقال الضيف الجديد: (ولكن عملي لا يترك آثاره على يدي، بل يترك آثاره على زبائني). وحير هذا الكلام أولئك القرويين السذج.. فما هو هذا العمل.. الذي لا يترك آثاره على صاحبه، وإنما يترك آثاره على الزبائن؟؟.. ولم يستطع أحد أن يحل هذا اللغز فحاولت السيدة فليفل أن تغير مجرى الحديث فقال: (من سيطربنا الآن بصوته الشجي؟) وصمت جميع الحاضرين كأنهم ملوا الغناء.. وملوا الحديث.. لكن الضيف الجديد تقدم إلى وسط الكوخ وهو يقول: (سأبدأ أنا بالغناء وما عليكم إلا أن ترددوا معي..). لم يكن صوته جميلًا.. كما أنه لم يكن رديئًا.. لكن الذي أثار دهشة القرويين كلمات أغنيته، فقد كان يغني:

إنه لمنظر جميل.. أن تراني وأنا أعمل..

أن ترى زبائني الذي أربطهم..

أن تراني وأنا أرفعهم إلى الأعلى..

وأرسلهم إلى مكان بعيد.. بعيد...

وسرت الهمسات بين الحضور.. ولم يرافقه في الغناء إلا الشاب الطويل، فقد ردد معه:
وأرسلهم إلى مكان بعيد.. بعيد.. واستأنف صاحبنا الغناء:

إن طريقتي في العمل.. بسيطة كعملي..

حبل متين.. وعمود ليس بالطويل..

وفي أقل من دقيقة.. أتم عملي..

وسرت الهمسات بين الحضور.. حبل متين.. وعمود ليس بالطويل.. إنه الـ.. لقد جاء ليشنق
(تيموثي سامرز).. المزارع الذي سرق خروفاً لأسرته الجائعة.. فحكم عليه بالإعدام.. لأنه
أراد أن يطعم أولاده.. أولاده الذين يموتون من الجوع.. وبهت الحضور وتظاهر الضيف
الجديد أنه لم يسمع همساتهم.. ويظهر أن الشاب الطويل هو الوحيد الذي تمتع بتلك
الأغنية!

وعندما حرك المغني شفثيه ليستأنف الغناء، سُمعت طرقه خفيفة مترددة وفتح الباب.. كان
شاباً قصيراً أشقر، قال عندما فُتح له: هل أستطيع أن أعرف الطريق إلى.. وطغى على صوته
المغني الجديد الذي استأنف غناءه:

غداً سأتم عملي.. إنه عمل بسيط..

خروف مزارع سرق..

وحياة اللص ستسرق في الغد..

فليرحمه الله..

ولم يرافقه في الغناء إلا الشاب الطويل، فقد ردد معه: فليرحمه الله.. فليرحمه الله.. كل
ذلك.. والضيف الثالث واقف عند الباب.. يسمع وركبتاه تكادان لا تحملا.. وأسنان
تصطك.. بينما امتقع وجهه.. وابتضت شفثاه.. وكان من الواضح أن شيئاً ما أربع الشاب،

فقد استدار وأغلق الباب وراءه وانصرف..

وسمع في الوقت نفسه ثلاث طلقات، كاد يهتز لها الكوخ.. ونظر الحضور بعضهم إلى بعض متسائلين.. ماذا يعني هذا؟

وقال المغني الجديد: إن سجيناً قد فر من (كاسل بريدج).. قد يكون رجلي.. وقد يكون ذلك الشاب الذي كان يرتعد منذ حين.. إني آمركم باسم القانون أن تلحقوه وتقبضوا عليه.. إياكم أن تعودوا دون أن تقبضوا عليه..

وبعد دقائق أضحى الكوخ خالياً.. ثم.. حام حوله رجل طويل نحيف.. ودخل بعد أن نظر من النافذة..

وكان أول شيء فعله هذا الشاب الطويل أن توجه إلى طاولة الطعام، وقطع شريحة من اللحم شرع يأكلها بنهم.. وقبل أن ينتهي من أكلها.. فتح الباب ودخل المغني الجديد الذي أدهشه وجود الشاب الطويل فقال: كنت أظن أنك ذهبت مع الآخرين..

فأجاب الشاب الطويل: على كل حال.. سنقبض عليه قبل الغد.. سيأتي بعض الجنود إلى هنا.. أما أنا فذهاب إلى (كاسل بريدج).. فيجب أن أكون هناك قبل الثامنة صباحاً.. هل أنت ذاهب في طريق (كاسل بريدج)؟ فقال الشاب الطويل: (كلا.. إن يتي هناك.. وأشار إلى اليمين، وكأنه لا يريد أن يعين مكاناً بالذات.. وتصافح الضيفان، وذهب كل منهما في طريقه.

ولم يطل الأمر بالضيف الثالث الذي مر.. فقد وجدوه، وأحضروه إلى الكوخ.. حيث كان ينتظره ضابطان من (كاسل بريدج). وعندما أدخل الضيف الفار إلى الكوخ، قال أحد الضابطين: من هذا الذي أحضرتموه؟ إنه ليس سجيناً.. وعقدت الدهشة ألسنة الجميع، لكن الفار تولى إيضاح الأمر فقال: إن السجين الذي فر هو أخي.. ولقد كنت في الطريق، ولأرتاح بعض الوقت، لكنني وجدت أخي جالساً قرب موقد النار، وعلى مقربة منه يغني أغنية إعدامه لذلك الرجل المكلف بإعدام المحكومين.. وكانت أقل كلمة أو إشارة مني كافية للقضاء عليه.. فلم أجد أمامي إلا الفرار.. وكان ما كان..!!

أدبُ السَّيرِ والرَّحلاتِ



السيرة الأدبية

السيرة في اللغة هي السُنَّة، والسيرة: الطريقة. يقال: سارَ بهم سيرةً حسنةً. والسيرة: الهيئة. وفي التنزيل العزيز: (قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى) (٢١).

والسيرة الأدبية: فنّ جوهره التواصل اللغوي، يتناول حياة إنسان ما تناوَلًا يقصر أو يطول. وعرفها بعضهم بأنّها «السرد المتتابع لدورة حياة شخص، وذكر الوقائع التي جرت له في أثناء مراحل هذه الحياة».

وتنقسم السيرة الأدبية إلى سيرة ذاتية وسيرة غيرية.

فالسيرة الذاتية: هي التي يكتبها الشخص بنفسه عن نفسه.

أمّا السيرة الغيرية: فهي التي يكتبها كاتب ما عن شخص آخر، فهي ترجمة حياة شخص عن طريق الشواهد والشهادات والوثائق.

ويتحتم على كاتب السيرة الذاتية أن يكون موضوعيًا في نظرتة لنفسه، وهو يذكر موقفه من الناس والحوادث. وعلى كاتب السيرة الغيرية أيضًا أن يكون موضوعيًا، وأن يقف موقف الشاهد لا القاضي. ولذلك يعدّ الصدق من أهم شروط كتابة السيرة الأدبية.

ولما كان الصدق من أهم شروط كتابة السيرة الأدبية فإنّ المتعة لا تتحقق إلّا إذا كانت السيرة عن شخصية فذة، عاشت حياة غنية بالأحداث والمواقف، أو كانت عن شخصية مبدعة في أي مجال من مجالات الفنون والعلوم.

ويعدّ محمد بن إسحق أول من استخدم كلمة «السيرة» في كتابه (سيرة رسول الله ﷺ)، ولذلك تعدّ السيرة النبوية أوسع ما في التراجم الإسلامية، وأقدمها ظهورًا، ثمّ ظهرت تراجم أخرى لطبقات الصحابة، وطبقات المُفسّرين، وطبقات الشعراء وطبقات النحاة وغيرهم.

وقد تعددت الغايات من كتابة السيرة الغيرية؛ فقد ارتبطت السيرة الغيرية في بداية نشأتها بالتاريخ، فمثّلت نوعًا من السير عرف بالسيرة التاريخية، التي ركزت على ربط حياة الأفراد بالأحداث التاريخية والوقائع والحروب. وهذا النوع من السير قد يتضمن إشارات وعظية

وحكمًا، إلا أنَّ البعد التاريخي يبقى هو الغالب عليها، وتعد سيرة (ابن طولون) للبلوي، وسيرة (عمر بن عبدالعزيز) لابن عبدالحكم من الأمثلة على هذا النوع من السير.

ولكن بعض السير الغريبة اتخذت لها غايات أخرى، فاتجهت نحو الوعظ والتدبر في أحوال الناس كما أشار إلى ذلك ابن الجوزي حين قال «إن التواريخ وذكر السير راحة للقلب وجلاء للهم، وتنبية للعقل، فإنه .. إن شُرحَت سيرة حازم علمت حسن التدبير، وإن قُصَّت قصة مُفَرِّطٍ خَوَّفَت من إهمال الحزم». ولذلك يمكن أن يطلق على هذا النوع من السير السيرة التعليمية، التي لم تكن تتجاوز ذكر مناقب الشخص، وبعض أقواله، ومواقفه؛ ككتاب «الحسن البصري وزهده ومواعظه» لابن الجوزي.

يضاف إلى هاتين الغايتين غاية ثالثة كان لها دور كبير في كتابة السير الغريبة، تمثلت في تلبية حاجة الناس إلى السمر والفكاهة والإدهاش؛ فكثير من السير كانت عبارة عن «مجموعة من القصص والمغامرات تدور حول شخصية واحدة، ويتفاوت فيها الخيال، ولكنها جميعها مسلية تصاغ في أسلوب مبسط». وقد كان هذا التوجه سببًا في ظهور ما يسمى بالسيرة الخيالية أو الشعبية التي كانت تنهل من معين الخيال، وتبتعد كثيرًا عن رصد الواقع والالتزام بالصدق والحقيقة، ولعل هذا الشكل يتضح بجلاء في سيرة (عنترة بن شداد) و(سيف بن ذي يزن).

ولكن هذه الأنواع من السير لا ترقى إلى مستوى السيرة الأدبية التي لها مميزات وشروط فنية خاصة بها؛ إذ لا بد أن تبنى السيرة الأدبية بناءً فنيًا متماسكًا، وأن يكون هناك تصوّر ترتّب الأحداث والمواقف على هديه. ولأن السيرة تعتمد على عنصر الصدق في كتابتها فإنها تعد من الأدب التفسيري، وليست من الأدب المستمد من الخيال؛ فالكاتب: يستكشف الأشياء والأشخاص من جديد، ويعيد بناء الأحداث والمواقف التي حدثت بالفعل، فكأنه يعيد تشكيل هذا الواقع وفق رؤية جديدة، وضمن بناء فني محكم.

ولعلّه من الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى فرق جوهري واضح بين السير الغريبة والسير الذاتية؛ فالسيرة الذاتية تكون أقرب إلى القارئ، وأكثر تأثيرًا فيه، لأنها عادة تعتمد على البوح، وعلى تقديم خلاصة فكر الكاتب ورؤاه، وتفسير مبرراته، إنَّ الكاتب هنا يذكر المواقف، ويذكر المشاعر معها، ولذلك هو يضرب على الوتر الإنساني الذي يجمع بينه

وبين القارئ. أما السيرة الغيرية فهي في الغالب نقل موضوعي يعتمد على الشواهد والوثائق مما يجعل كتابتها أقرب إلى الكتابة العلمية الموضوعية.

يوم العيد* سرد الذات، سلطان بن محمد القاسمي

1 الناس ترقب هلال العيد عند غروب شمس ذلك اليوم، بعد صلاة المغرب. وفي ذاك الهدوء التام يدوي صوت المدفع، مُعلنًا بأنَّ غداً العيد. يسمع بعده طنين الناس فتزدحم بهم الأسواق، بمن تأخر في تجهيز نفسه للعيد، أو جاء للفرجة، هذا جاء لشراء ملابس العيد، وذلك ينتظر دوره لدى «المحسن» - أي الحلاق، والآخر جاء لشراء ما يحتاجه في تقديم «الفواله» وهي ما يُقدَّم للضيف من حلوى ومنفوش وبشمك، يُصنع من الطحينية، التي تُستخرج من هرس السمسم، ويُقال لها «هردة». قبالة دكان المحلوي تيمور، وهو الذي يقوم بصنع الحلوى وبيعها، هناك دكان به طاحونة، يدور حولها حمار معصوب العينين، لا يتوقف عن الدوران، يُقال له حمار الهردة، فصار ذلك مثلاً، فإذا قلت لإنسان: لا تحمل هذا العامل فوق طاقته، يقول لك: لا تخف! هذا حمار الهردة!

2 صباح يوم العيد خرجت الناس في زيتها، واتجهوا إلى المصلّى، والذي كان يبعد عن المدينة بمقدار كيلومتر واحد ونصف الكيلومتر، به منبر إسمتي بثلاث درجات يقف الخطيب عليه، مواجه الصفوف المترصة، وخطيب الأعياد والجمع هو الشيخ سيف بن محمد بن مجلاد، صاحب الصوت الجهور.. الرجال والفتيان في الصفوف الأمامية، وفي مقدمتهم الشيخ سلطان بن صقر القاسمي وإخوته وذووه وأعيان البلد، أما النساء فكان في الصفوف الخلفية، وبأعداد قليلة، فإذا ما فرغوا من صلاة العيد، توجهوا إلى البلد، فإذا ما شاهد أحد الحراس من الحصن قدوم الناس بأثوابهم البيض، أمر بإطلاق المدفع، فيتقن من يصلهم صوت المدفع قائلين: عيّدت الشارقة.

3 يتوافد على الحصن المهنتون للشيخ سلطان بن صقر القاسمي بالعيد. ومن بين من يفد كذلك مجموعة الحرس التابعة للشيخ لحراسة الطائرات، وهم من أصل عُماني، أسكنوا بالقرب من محطة الطيران في مكان يقال له «المناخ» ورئيسهم يسمى ناصر الزيدى؛ فإذا كانوا في ساحة الحصن، أخذوا يغنون، وهم يرقصون، ويبرز من بينهم اثنان في أيديهم سيوف وثروس، ويقومان بتمثيل مشهد مبارزة، وفي آخر المشهد يطعن أحدهما الآخر، ويقوم بذبحه، ويبقى ممدداً على الأرض، فيخزّه بسيفه فينهض واقفاً على رجله، والأولاد متحلقون حول المشهد، فإذا ما انتهى، أخذوا يجرون في السكك، ومن بيت إلى بيت، يطلبون «العيدية»، وهي قليل من النقود تُعطى للأولاد في ذلك اليوم.

4 أما في مساء ذلك اليوم، فيتوافد على شجرة الرولة، وارفة الظل، الرجال والفتية والفتيات والأطفال، وتعلق الجبال على الأغصان الكبيرة من شجرة الرولة، وتجلس الفتيات في صفين على الجبال، وتشبك كل فتاة أصابع رجلها بالجبال التي تجلس عليها الفتاة التي تقابلها، فتكون المرجحة من ثماني فتيات، أما الفتيان فيقومون بشط المرجحة، أي إبعادها إلى أعلى بكل عفة، وتباع تحت الشجرة الحلويات والمكسرات.

5 أما شيخ الشارقة، فيجلس على الكرسي الكبير وحوله أقرباؤه وأعيان البلد، لتلقي التهاني بالعيد، وإلى جانبهم تُقام رقصة العيالة.

دارنا الدمشقية نزار قباني

هَلْ تَعْرِفُونَ مَعْنَى أَنْ يَسْكُنَ الْإِنْسَانُ فِي قَارُورَةٍ عِطْرٍ؟ بَيْتُنَا كَانَ تِلْكَ الْقَارُورَةَ.
إِنِّي لَا أَحَاوِلُ رِشْوَتَكُمْ بِتَشْبِيهِ بَلِيغٍ، وَلَكِنْ ثِقُوا أَنَّنِي بِهَذَا التَّشْبِيهِ لَا أَظْلِمُ قَارُورَةَ
الْعِطْرِ، وَإِنَّمَا أَظْلِمُ دَارَنَا. وَالَّذِينَ سَكَنُوا دِمَشْقَ، وَتَغَلَّغُوا فِي حَارَاتِهَا وَزَوَارِيهَا
الضَّيْقَةِ، يَعْرِفُونَ كَيْفَ تَفْتَحُ لَهُمُ الْجَنَّةُ ذِرَاعِيهَا مِنْ حَيْثُ لَا يَنْتَظِرُونَ؛ بَوَابَهُ
صَغِيرَةً مِنَ الْخَشَبِ تَنْفَتِّحُ. وَيَبْدَأُ السَّيْرُ عَلَى الْأَخْضَرِ، وَالْأَحْمَرِ، وَاللَّيْلِ،
وَتَبْدَأُ سِيمْفُونِيَّةُ الضَّوِّ وَالظِّلِّ وَالرُّخَامِ.

شَجَرَةُ النَّارَنْجِ* تَحْتَضِنُ ثِمَارَهَا، وَالذَّالِيَّةُ حَامِلٌ، وَالْيَاسَمِينَةُ وَلَدَتْ أَلْفَ قَمَرٍ
أَبْيَضَ وَعَلَّقَتْهُمْ عَلَى قُضْبَانِ النَّوَافِذِ، وَأَسْرَابُ السُّنُونُو لَا تَصْطَافُ إِلَّا عِنْدَنَا.
أَسْوَدُ الرُّخَامِ حَوْلَ الْبِرْكَةِ الْوُسْطَى تَمْلَأُ فَمَهَا بِالمَاءِ، وَتَنْفُخُهُ، وَتَسْتَمِرُّ اللَّعْبَةُ
الْمَائِيَّةُ لَيْلًا وَنَهَارًا. لَا النَّوَافِيرُ تَتَعَبُ، وَلَا مَاءُ دِمَشْقَ يَنْتَهِي.

الْوَرْدُ الْبَلَدِيُّ سَجَادُ أَحْمَرٍ مَمْدُودٌ تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَاللَّيْلُكَةُ تُمَشِّطُ شَعْرَهَا
الْبَنْفَسَجِيَّ، وَالشَّمْشِيرُ، وَالْخُبِيزَةُ، وَالشَّابُّ الظَّرِيفُ، وَالْمَنْشُورُ، وَالرَّيْحَانُ،
وَالْأَضَالِيَا، وَالْوَفُ الْبَنَاتِ الدَّمَشْقِيَّةِ الَّتِي أَتَذَكَّرُ أَلْوَانَهَا وَلَا أَتَذَكَّرُ أَسْمَاءَهَا، لَا
تَزَالُ تَسْلُقُ عَلَى أَصَابِعِي كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَكْتُبَ.

الْقِطْطُ الشَّامِيَّةُ النَّظِيفَةُ الْمُمْتَلِئَةُ صِحَّةً وَنَضَارَةً تَصْعَدُ إِلَى مَمْلَكَةِ الشَّمْسِ، وَحِينَ
تَعُودُ وَمَعَهَا قَطِيعٌ مِنْ صِغَارِهَا سَتَجِدُ مَنْ يَسْتَقْبِلُهَا وَيُطْعِمُهَا وَيُكْفِكِفُ دُمُوعَهَا.
الْأُدْرَاجُ الرُّخَامِيَّةُ تَصْعَدُ، وَتَصْعَدُ عَلَى كَيْفِهَا، وَالْحَمَائِمُ تُهَاجِرُ وَتَرْجِعُ عَلَى
كَيْفِهَا، لَا أَحَدٌ يَسْأَلُهَا مَاذَا تَفْعَلُ؟ وَالسَّمَكُ الْأَحْمَرُ يَسْبَحُ عَلَى كَيْفِهِ، وَلَا أَحَدٌ
يَسْأَلُهُ إِلَى أَيْنَ؟

وَعِشْرُونَ صَحِيفَةً فُلٌّ فِي صَحْنِ الدَّارِ هِيَ كُلُّ ثَرَوَةٍ أُمِّي. كُلُّ زِرْفَةٍ عِنْدَهَا يُسَاوِي
صَبِيًّا مِنْ أَوْلَادِهَا، لِذَاكَ كُلَّمَا غَافَلْنَاهَا وَسَرَفْنَا وَلَدًا مِنْ أَوْلَادِهَا، بَكَتْ، وَشَكَّنَا

* الكلمات التي تحتها ثلاث خطوط ستكون مجال عرض تقديمي في دروس المحادثة.

إلى الله.

ضمن نطاق هذا الحزام الأخضر ولدت، وحبوت، ونطقت كلماتي الأولى. كان
اضطدامي بالجمال قدراً يومياً. كنت إذا تعثرت أتعثر بجناح حمامة، وإذا سقطت
أسقط على حُضن وردة.

هذا البيت الدمشقي الجميل استحوذ على كل مشاعري وأفقدني شهية الخروج
إلى الزقاق.. كما يفعل الصبيان في كل الحارات، ومن هنا نشأ عندي هذا الحس
(البيتوتي) الذي رافقني في كل مراحل حياتي. إنني أشعر حتى اليوم بنوع من
الاكتفاء الذاتي، يجعل التسكع على أرصفة الشوارع، واصطياد الذباب في
المقاهي المكتظة بالرجال، عملاً ترفضه طبيعتي. وإذا كان نصف أدباء العالم
قد تخرج في أكاديمية المقاهي، فإنني لم أكن من خريجيها. لقد كنت أومن
أن العمل الأدبي عمل له طقوسه ومراسمه وطهارته، وكان من الصعب علي أن
أفهم كيف يمكن أن يخرج الأدب الجاد من نرايش النراجيل، وطقطقة أحجار
النرد.

طفولتي قضيتها تحت «مظلة الفيء والرطوبة» التي هي بيتنا العتيق في «مئذنة
الشحم». كان هذا البيت هو نهاية حدود العالم عندي، كان الصديق، والواحة،
والمشتى، والمصيف. أستطيع الآن أن أغمض عيني وأعد مسامير أبوابه، وأستعيد
آيات القرآن المحفورة على خشب قاعته، أستطيع الآن أن أعد بلاطيه واحدة
واحدة، وأسمك بركتيه واحدة واحدة، وسلالمة الرخامية درجة درجة.

أستطيع أن أغمض عيني، وأستعيد، بعد ثلاثين سنة، مجلس أبي في صحن
الدار، وأمامه فنجان قهوته، ومنقله، وجريدته. وعلى صفحات الجريدة تساقط
كل خمس دقائق زهرة ياسمين بيضاء، كأنها رسالة حب قادمة من السماء.
على السجادة الفارسية الممدودة على بلاط الدار ذاكرت دروسي، وكتبت

فُروضي، وحَفِظْتُ قَصَائِدَ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ، وَزُهَيْرٍ، وَالنَّبِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ، وَطَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ. هَذَا الْبَيْتُ/ الْمِظْلَّةُ تَرَكَ بَصَمَاتِهِ وَاضِحَةً عَلَى شِعْرِي. تَمَامًا كَمَا تَرَكَتْ غِرْنَاطَةً وَقُرْطُبَةً وَإِشْبِيلِيَّةً بَصَمَاتِهَا عَلَى الشُّعْرِ الْأَنْدَلُسِيِّ.

الْقَصِيدَةُ الْعَرَبِيَّةُ عِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى إِسْبَانِيَا/ الْأَنْدَلُسِ كَانَتْ مُغَطَّاةً بِقَشْرَةِ كَثِيفَةٍ مِنْ الْغُبَارِ الصَّحْرَاوِيِّ، وَحِينَ دَخَلْتُ مَنَاطِقَ الْمَاءِ وَالْبُرُودَةِ فِي جِبَالِ (سِيرَا نِيْفَادَا) وَشَوَاطِئِ نَهْرِ الْوَادِي الْكَبِيرِ، وَتَغَلَّغْتُ فِي بَسَاتِينِ الزَّيْتُونِ وَكُرُومِ الْعِنَبِ فِي سُهُولِ قُرْطُبَةٍ، خَلَعْتُ مَلَابِسَهَا وَأَلْقَيْتُ نَفْسَهَا فِي الْمَاءِ، وَمِنْ هَذَا الْاضْطِدَامِ التَّارِيخِيِّ بَيْنَ الظَّمَاءِ وَالرَّيِّ وَلِدَ الشُّعْرُ الْأَنْدَلُسِيُّ. هَذَا هُوَ تَفْسِيرِي الْوَحِيدُ لِهَذَا الْإِنْقِلَابِ الْجَذَرِيِّ فِي الْقَصِيدَةِ الْعَرَبِيَّةِ حِينَ سَافَرْتُ إِلَى إِسْبَانِيَا/ الْأَنْدَلُسِ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ. إِنَّهَا بِكُلِّ بَسَاطَةٍ دَخَلْتُ إِلَى قَاعَةٍ مُكَيَّفَةِ الْهَوَاءِ، وَالْمُوشَّحَاتُ الْأَنْدَلُسِيَّةُ لَيْسَتْ سِوَى «قَصَائِدِ مُكَيَّفَةِ الْهَوَاءِ». وَكَمَا حَدَّثَ لِقَصِيدَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي إِسْبَانِيَا/ الْأَنْدَلُسِ حَدَّثَ لِي، امْتَلَأَتْ طُفُولَتِي رُطُوبَةً، وَامْتَلَأَتْ دَفَاتِرِي رُطُوبَةً، وَامْتَلَأَتْ أَبْجَدِيَّتِي رُطُوبَةً. هَذِهِ اللَّغَةُ الشَّامِيَّةُ الَّتِي تَتَغَلَّغُ فِي مَفَاصِلِ كَلِمَاتِي، تَعَلَّمْتُهَا فِي الْبَيْتِ - الْمِظْلَّةِ الَّذِي حَدَّثْتُكُمْ عَنْهُ.

وَلَقَدْ سَافَرْتُ كَثِيرًا بَعْدَ ذَلِكَ، وَابْتَعَدْتُ عَنْ دِمَشْقَ مُوَظَّفًا فِي السَّلْكِ الدِّبْلُومَاسِيِّ نَحْوَ عَشْرِينَ عَامًا وَتَعَلَّمْتُ لُغَاتٍ كَثِيرَةً أُخْرَى، إِلَّا أَنَّ أَبْجَدِيَّتِي الدِّمَشْقِيَّةَ ظَلَّتْ مُتَمَسِّكَةً بِأَصَابِعِي وَخَنْجَرَتِي، وَثِيَابِي. وَظَلَلْتُ ذَلِكَ الطِّفْلَ الَّذِي يَحْمِلُ فِي حَقِيْبَتِهِ كُلَّ مَا فِي أَحْوَاضِ دِمَشْقَ، مِنْ نَعْنَاعٍ، وَفُلٍّ، وَوَرْدِ بَلَدِيٍّ. إِلَى كُلِّ فَنَادِقِ الْعَالَمِ الَّتِي دَخَلْتُهَا حَمَلْتُ مَعِيَ دِمَشْقَ، وَنِمْتُ مَعَهَا عَلَى سَرِيرٍ وَاحِدٍ.

قلم زينب* أمير تاج السر

اليوم التالي في العيادة، كان غريبًا ومربكًا بحق، عثرت بالكاد على ركن قريب أضع فيه عربتي، وكانت ثمة ثلاث حافلات من ماركة «روزا» اليابانية أمام باب العيادة مباشرة، ويتدفق منها العشرات بين رجال ونساء وأطفال، داخلين إلى العيادة، أو متجهين على بابها. توجست بشدة، وأكاد أوقن تمامًا أنهم معززون جاؤوا بهذه الكثافة، ولا بد أن أحد أفراد أسرة عز الدين قد توفي فجأة، خاصة أنني لم أشاهده صباحًا في المستشفى، يقف أمام كشك التيجاني المغربي في وسط الحوش، يتناول فطوره المعتاد المكون من شطيرتين من الفول.

تخبطت وسط الجموع حتى دخلت، وعثرت على ممرضي العجوز بعيدًا تمامًا عن أي مأساة رسمتها في خيالي، كان مبتسمًا بشدة، وقد امتلأت صفحة كاملة من دفتره القديم ذي الغلاف الأزرق، بأسماء المراجعين، وما زال يعمل على التسجيل بنشاط غريب. كان ما لفت نظري في أولئك المرضى الفجائيين، أنهم جميعًا بملامح واحدة، كأنهم أهل أو أقارب، يرتدون بصخب، يرتدي رجالهم الصديري والسر والقصير، وترتدي نساؤهم ثيابًا ملونة رخيصة، وأساور من القصدير تحيط بالسواعد والأعناق، بينما أطفالهم شبه عرايا في ملابس شفافة. كانت رائحة عطر (الشاكوين) الذي يصنع في البيوت محليًا من الأعشاب، تضح في المكان.

سألت عن ذلك الزحام غير المتوقع، فأجابني الممرض وهو ينهض، ويتقدمني إلى غرفتي، بأنه رزق هبط علينا من السماء فجأة ولا يعرف السبب. كان مخطئًا في اعتقاده، لأنني جلست على طاولتي أكثر من عشر دقائق أنتظر أن يبدأ دخول المرضى، طال انتظاري إلى عشرين دقيقة، ولم يدخل أحد. سمعت بعد ذلك صخبًا هائلًا بالخارج، سبابًا وصراخًا، وألفاظًا غريبة، وانفتح الباب فجأة، لأرى عز الدين موسى يدخل متورم الوجه، يدفعه نفر من أولئك المرضى الفجائيين، وقد أمسك أحدهم بيده، لواهما خلف ظهره. وقفت مندهشًا أستطلع الأمر، ليتقدم مني أحد أولئك المرضى، كان شيخًا في نحو السبعين، يرتدي عمامة من

(*) قلم زينب، قصة روائية، منشورات ضفاف

قماش الكرب الشفاف، وصندلاً من جلد الماعز، تطاير منه الوبر، كان كما يبدو متحدثاً رسمياً لتلك الفوضى الغريبة ولا بد أنه تدرب على مخاطبة الأطباء من قبل، لأنه خاطبني قائلاً بلا مقدمات:

- هل تبيعون الإنسانية يا طبيب؟

- لا أفهم ما تعني.

قلت ولم أكن أفهم بالفعل، ولا كان ممرضي عز الدين في لحظة غضبه وتورم وجهه تلك، قادراً على إفهامي أي شيء. كان قد تحرر من قبضة الرجل الذي لوى ساعديه، وقف منتصباً في مواجهتي، لكن صدره كان يعلو ويهبط بسرعة، ويصب من جسده العرق. وقد كان ذلك الممرض القديم الذي ينتمي لقبيلة (المحس) في أقصى شمال البلاد، واستوطنت أسرته الساحل منذ زمن بعيد، قليل الغضب فيما مضى، وصبوراً عرفت صبره شخصياً أثناء مساعدتي في الجراحة، ولم أره بهذه الصورة أبداً من قبل.

- طالبنا ممرضك بأجرة حتى ندخل عليك. هل هذه إنسانية؟.. هل تتاجرون في آلام الناس يا طبيب؟

كانت فصاحة لم أتوقعها من شيخ في ذلك العمر، وتلك المتاجرة بآلام الآخرين بالذات، جملة شديدة الإيحاء، لم أسمعها حتى من السنة مريض أصغر سناً، وأقوى لساناً..

نظرت إلى الرجل بتمعن، شممت في هيئته دماء المحتال (إدريس علي) ووجدت في صوته رنة كأني سمعتها من قبل، رنة الصوت الذي أهداني قلم زينب الرخيص، وقدم لي داخل المستشفى، فتاة تحب زميلاً ولا تنام، ولم أستطع مساعدتها. لم تكن ثمة جدوى لأوضح له، أن العيادات المسائية ليست سبيلاً مفتوحاً، يرتوي منه العطشان متى ما أراد ويمضي بلا ثمن، لأوضح أن مولد الهندي (برد شاندر)، تم شراؤه بلا إنسانية، ويعمل في إنارة المكان بلا إنسانية، إيجار المبنى نفسه، يؤخذ مني آخر الشهر بلا إنسانية، والطريق الذي تشقه العرب حتى تصل، يذبحها يومياً بلا إنسانية، ثم ذلك الوقت الذي يقتطع من راحة الطبيب، يقتطع حتماً بلا إنسانية، لم يكن ليفهمني، وقد جاء ممتلئاً بضغينة كبيرة، ومن خلفه شعب ربما يحمل المدى والخناجر، ويتنظر نتيجة تلك المواجهة بيني وبينه.

كان بإمكانني أن أستدعي الشرطة، إن عثرت عليها في ذلك المكان، لكنني لم أفعل، وبدأت أحاور الرجل:

- هل أنتم من جماعة (إدريس علي) ؟

- نعم.. لقد أهداك قلمًا غاليًا، وترفض علاج أهله.

- وهل تقيمون هنا في حي النور؟

- لا.. قدمنا من (المرغنية).

كان حي (المرغنية) الذي ذكره، يقع في الطرف الجنوبي من المدينة، حي بعيد وشبه عشوائي، وممتلىء بالضجيج والفوضى، ولا بد أن إدريس المسكين قد تعب في الدوران بين أزقته وحفره العميقة، حتى يلم ذلك الشعب، ينازلني به، ولم أفعل له شيئاً سوى أنني استقبلته في عيادتي، قبلت بقلم زينب هدية، من دون أن أعرف من هي زينب، وأسمع سيرة القلم ترد الآن على لسان ذلك الشيخ الفصيح بوصفه هدية غالية.

كان القلم موضوعاً أمامي على الطاولة، لم أمسّه قط منذ تسلمته، ولا كان مغريباً بتجربته في الكتابة حتى، التقطته في تلك اللحظة بعنف، لوحت به أمام وجه الرجل، ثم كسرتة من الوسط وألقيته أرضاً، وفوجئت بالرجل يلتقطه مرة أخرى، يخرج من جيبه شريطاً لاصقاً شفافاً، يلصق به القلم، ويعيده إلى الطاولة مرة أخرى، كأنه كان يعرف ماسيحدث واستعدّ له، وشعرت بالدهشة. قلت لعز الدين في صوت قاطع، إننا لن نتاجر بآلام أحد اليوم، وعليه أن يدخلهم واحداً واحداً، ونراهم بلا أجرة، إنه يوم الإنسانية الكبير.

كان الممرض قد صعق، أراد الاحتجاج، لكنني أسكتته بنهرة قاسية، وسمعت الرجل الفصيح يرطن بعد أن فتح الباب كاملاً، وواجه الآخرين الذين يتكدسون في الصالة، والشارع أمام باب العيادة.

- واحداً واحداً من فضلكم وسنراكم كلكم.

قلت مرة أخرى، وعدت أجلس على طاولتي هادئاً، أضع سماعتي الطبية حول رقبتني، ولا ألفتت إلى انحناء عز الدين، ومشيته المترنحة وهو يغادر غرفتي، ولا إلى صوته المتحشرج

الذي بدأ ينادي به على المرضى حتى يدخلوا.

لا بد أنها الثانية عشرة ليلاً حين فرغنا من معاينة تلك المظاهرة المرضية الحاشدة التي أرسلها (إدريس علي)، سبعة وخمسون مريضاً يشكلون كتاباً من كتب الطب، في فهرسته وتنوع أمراضه، عثرت بينهم على السل الرئوي واحتقان المرارة، والعمى الليلي، وتخطيط صمامات القلب، وتورم الساقين، ومضاعفات مرض الضغط والسكر، والربو الشعبي، وتليف الرئة، وأمراض أخرى أقل شأنًا مثل الملاريا، والتيفوئيد، والحمى، ولين العظام عند الأطفال، وكانت ثمة فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، اسمها نورية، تملك قلباً في الجانب الأيمن من الصدر، ولم تشخص أبداً من قبل، وجاءت تشكو من قمل الرأس الذي يسري في الليل، ويمنعها النوم، لكن هيئتها الهزيلة أغرتني بفحصها كاملاً، ومن ثم عثرت على ذلك العيب الخلقي النادر.

كنت مغتبطاً من ذلك التنوع الذي لا يتوافر بسهولة، بالرغم من تعبتي الشديد، ومحاولاتي المجهددة فك رموز الرطانة القبلية التي كانت تصدر من بعضهم، ممن لا يجيدون العربية أو يتصنعون عدم إجادتها حتى يظلوا مربوطين بهوياتهم، خاصة النساء المسنات، وقد استفدت كثيراً من فصاحة الشيخ الذي واجهني في البداية، عينته مترجماً فوراً في تلك الساعات، ولم يكن مريضاً بأي شيء.

كان اسمه حامد رطل، اسم شائع عند قبيلته، ولا يوجد تقريباً عند قبيلة أخرى، وقد عمل طوال حياته، حملاً بالميناء، حتى تعب ظهره من حمل الأجولة والحقائب، وازداد فقراً من تفاهة العائد الذي كان يجنيه، والآن يعتمد على أبنائه الذين يعملون في وظيفته السابقة، يجلس نهائراً على مقهى شعبي في حي (المرغنية)، يراقب الطريق الضاج، يرد التحايا ويمازح المارة، ويذهب في المساء إلى معالج روحاني اسمه الشيخ الحلمان، يسكن في ذلك الحي الفوضوي أيضاً، يساعده في إيقاد بخوره، وترتيب دخول مرضاه النفسيين، ويطمح في الأيام القادمة أن يفتتح عيادته الروحانية الخاصة بعد أن تعلم كثيراً من الحيل عند شيخه.

لم تأت سيرة (إدريس علي) مرة أخرى أثناء حوارني مع الرجل، ولا سألت عن كيفية لهم هكذا، وإرسالهم إلي، وهل حملتهم تلك الباصات من منطقتهم البعيدة، بإنسانية أم لا؟...

كنت في الحقيقة قد أعجبت به، وفكرت أنه ربما ينفع شخصية في رواية قد أكتبها ذات يوم.

بالطبع كانت الحصيلة المادية في ذلك اليوم، صفرًا، وحتى أولئك المرضى المعتادون ممن يترددون علينا بشكل مستمر للكشف أو المقابلة الروتينية، لم يجدوا طريقة للدخول إلى العيادة بسبب الزحام، ومضوا إلى طبيب آخر، يملك عيادة قديمة في أول الحي.

كانت الباصات قد مضت تحمل شعب إدريس الفوضوي إلى مقره البعيد، ووقف عز الدين أمامي ساخطًا، ويطالبني في جراحة لم أعودها منه، أن أدفع ثمن تلك الحقن التي كتبتها للمرضى، واستهلكوها عن آخرها، وكانت ملكه، اشتراها بماله الخاص، ويستخدمها في جني بعض الربح الإضافي، أيضًا خسر الكثير من الوقت، والمخدر الموضعي، والشاش المعقم، حين أجبرته على ختان صبي صغير، قدم برفقة أولئك المرضى الفجائيين.

حين وصلت إلى البيت، وجدت أسرتي كلها تقف في الشارع، مدهونة بالقلق، لقد تأخرت عن موعد وصولي.. تأخرت كثيرًا في ذلك اليوم، ولم تكن ثمة طريقة للبحث عني، وأنا أقود العربة الوحيدة التي تملكها العائلة لم تكن ثمة هواتف تعمل في المدينة ذلك الحين.

السنة النار تتكلم

محمد عبید غباش

خرج أحد الأصدقاء بمفرده في رحلة صيد سمك. وعندما حاول العودة اكتشف أن وقود قاربه قد نفذ. كان قريباً من إحدى الجزر غير المأهولة. استخدم المجدف للوصول إليها وأمضى ساعات طويلة وحيداً مع نفسه: لا إنسان يسامره. لا كتاباً أو جهاز تلفزيون يشغل وقته. لم تملأ ساعات انتظاره إلا رمال الجزيرة الصغيرة وهدير أمواج البحر وزعيق النوارس.

لم يقلق، فقد تواصل هاتفياً مع أصحابه ليأتوا لنجده. وكان هناك ما يكفي من الطعام والماء لعدة أيام، وكان يستطيع أن يصيد السمك. الأمر الذي وجدته غير محتمل، كما روى لي، هو ابتعاده عن بيته.

بدل ركوب البحر ذهبت مع أصدقاء في رحلة بعيدة بسيارتي دفع رباعي إلى الصحراء. وحين اختفت مظاهر الحضارة بالكامل توقفنا عند مكان قريب من جذوع شجرة غاف يابسة ونصبنا خيمتنا. لم ينفد وقودنا. لم نضع الطريق. لكن كنا بعيدين عن بيوتنا.

أشعلنا النار، وبدلاً من مسامرة التلفزيون كل ليلة جلسنا على الرمل مباشرة وأخذنا كالأطفال نرقب النار مسحورين. أدركت لحظتها لماذا عبدها قدماء الفرس: كانت في خشختها تفشي الأسرار. وسط لهب أزرق تحفّ به أدخنة سوداء قليلة كانت تتشكل تكوينات لا نهاية لها من الألسنة النحاسية المتدرجة الألوان. لم أفتقد بيتي تلك الليلة كما افتقد صديقي بيته وهو الذي ساقته له الأقدار جزيرة ملوكة وحده. على كثيب الرمل ساد الشعور بين أصدقائي بأن بيوتنا التي تركناها وراءنا صارت سجوناً لنا.

يمثل البيت شيئاً عظيماً لكل الناس. قلعة الرجل كما يقول المثل الإنكليزي: حصن يتمترس وراءه عدة عقود ليحارب لأجل لقمة العيش ولينجب أطفالاً تتواصل بهم السلالة.. لكن القلعة الانكليزية كثيراً ما تتحول إلى سجن عثمانى تضيق في أقبية، وينسك في غياهبه محبوك بعد أن يأسوا من تحريرك.

مثل كل الناس أحب الكثير مما بداخل البيت، الثلاجة العامرة بالماء البارد صيفاً والحمام

بمائه الساخن شتاء، ومعهما الغنائم الصغيرة الكثيرة الأخرى. لكن هل تستحق هذه الأشياء أن نضحّي بالغنائم الأكبر التي يمنحها العالم؟ امتلاك ملايين النجوم التي تلمع في سماء الليل، وأحجار الجمر الكريمة التي تتوهج على الرمل؟

رواسب البداوة في نفوسنا تنتفض رغم الاستقرار في مدن، ورغم التعليم وكل «حيل المدينة الأخرى». البداوة الباقية فينا تجعلنا نتململ في بيوتنا، نختنق وراء جدرانها، ودون وعي نشتاق لتموجات السراب البعيد، لقوس قزح معلّق فوق رؤوسنا، لأفق لا تبلغه أبصارنا. أجدادنا وهم ينقلون الخيم وبيوت الشعر من مكان لآخر كانوا يجدون سعادتهم في الترحال. اكتشفوا أن طول البقاء في مكان واحد يدفع بالحواس للتبدّل فإذا بغلالة تحيط الأشياء وتظهرها شاحبة. ويمتد التبدّل ليتذلل مشاعرنا لمن نحب.

مع شاعرنا أبي تمام كانت ألسنة النار تستنهضنا: ارتحل تتجدد! ارتحل عن وطنك حتى تحبّه أكثر، فعند المرتحل الحقيقي كل بقعة على الأرض هي وطن له. ارتحل مع المسافرين. اختر من تشاء: مع مغامرين يلهثون وراء الثروات، أو علماء يكتشفون. رافق الاختصاصيين في شؤون البراكين وارصد مع الباحثين عادات القبائل البدائية...

على ذلك الكتيب الرملي كانت عيدان الغاف وهي تحترق ترسل بخورها وتحذر:

- أنت لست شجرة لتحفر جذورًا في باطن الأرض! لست دودة لتغوص في التراب!

النسيم البري كان يلهب النار، وكنت أسمع حفيفه: كن ريشة في مهبي!

كيف لم يسمع صديقي نوارس جزيرته وهي تناديه للرحيل؟ كيف لم ير الأمواج حوله ترشده لوجهة السفر إذ هي تتوالى الواحدة تلو الأخرى في طريقها الطويل للجانب الآخر من العالم؟.

على كتيبنا الرملي الأعين تلمع على ضوء النار والقمر. أصدقاء يتجاذبون الحديث ويتوجسون من أن كل شيء سينتهي بعد قليل. احتج أحدهم:

- ليس الترحال دائما فاتحًا للبصيرة، فأكثره تجوّل خاطف لا يتيح المجال للغوص في المكان ولا رصد معالمه.

أجابه آخر:

لكنه برغم ذلك مائدة سخية لكل الحواس. شكل وصوت ورائحة كل بلد فريدة لا تشبه غيرها، تمامًا مثل فريدة بصمة الإصبع.

- زرعوا في نفوسنا الجبن عن الترحال بالتخويف من الغربة..

تداولنا مطولاً.. لكن كيف يمكن ذلك؟ كيف تستطيع أن تهرب من هذه السجون دون أن تهرب أيضًا من الوظيفة إلا أن يكون أحدهم قد أورثك ما يكفي لتضمن عيشك؟ تبًا للأحلام التي لا يمكن تحقيقها! حسبة شيطانية: الحرية والجوع خارج الحبس والأمان المعيشي بداخله.

رحلة العودة. أطفال راجعون لبيوتهم من اللعب يملؤهم الحنق لأن الواجبات المدرسية تنتظرهم. كنا نحن السبعة في الصحراء، يسري علينا قول قديم لتشي غيفارا، 17 شخصًا يسرون على ضوء القمر. دأبتنا الميكانيكية، وليست الخيول التي تدق الصخور الصلبة، تهدر في الفضاء. ما العمل؟ سؤال لينين يدوي كالمطرقة على أصداننا.

تحركت البداوة في دماننا وصرنا نحلم بالغنائم. في طريق العودة تدفقت أفكارنا. نحن المساجين أخذنا نفكر بالمهام المقبلة. كيف نبرد القضب، نخادع الحراس، نرشو المراقبين، ونحفر الأنفاق كان لسان حالنا يردد مع الشاعر: في كل سرداب خبيثة، وفي كل خبيثة أفعى.

لغات العالم نجوم تتلأأ

(رسول حمزاتوف)

إذا كان هذا الكتاب يشبه سجاداً، فأنا أحبكها من خيوط اللغة الآفارية متعددة الألوان. وإذا كان يشبه فروة من جلد الخروف فأنا أخط الجلد بخيوط اللغة الآفارية، المتينة.

يقال إنه لم يكن في اللغة الآفارية في الماضي، الماضي البعيد جداً سوى عدد قليل جداً من الكلمات. فمفاهيم الحرب، والحياة، والشجاعة، والصداقة، والخير كان يعبر عنها بكلمة واحدة أو بكلمات متشابهة جداً من حيث لفظها ومعناها.

ليقل الآخرون إن لغة شعبنا فقيرة. أما أنا فأستطيع أن أقول بلغتي كل ما أريده، ولست في حاجة إلى لغة أخرى كي أعبر عن أفكاري ومشاعري....

لغات الشعوب بالنسبة لي، كالنجوم في السماء. أنا لا أود أن تذوب النجوم كلها في نجم كبير واحد ضخم يغطي نصف السماء. الشمس قليلة بذلك. لكن لنذع النجوم تتلأأ هي الأخرى، ولتكن لكل إنسان نجمة/ وليكن لكل إنسان نجمة.

أنا أحب نجمي - لغتي (الآفارية) الأم. وأنا أصدق الجيولوجيين الذين يقولون إنه قد يوجد في الجبل الصغير ذهب كثير. إحدى النساء صبت على رأس امرأة أخرى هذه الدعوة: ليحرم الله أولادك اللغة التي تتكلم بها أمهم... إلى هذا الحد تكون اللغات مربية في بعض الأحيان، لكن في الجبال، وحتى بدون لغات، يفقد الإنسان الذي لا يحترم لغته الأم احترامه، فالأم الجبلية لن تقرأ أشعار ابنها إذا كانت مكتوبة بلغة فاسدة.

التقيت في باريس ذات يوم برسام داغستاني كان قد غادر البلد إلى روما للدراسة، وهناك تزوج إيطالية ولم يعد إلى بلده. الداغستاني الذي اعتاد قوانين الجبال يصعب عليه أن يألف وطنه الجديد. أخذ صاحبنا يهيم في أرجاء الدنيا تارة، ويحط الرحال في العواصم المتألقة تارة أخرى. لكنه كان يحمل حنينه وشوقه حيثما ارتحل. وأردت أن أرى هذا الحنين مجسداً في الألوان فطلبت إلى الفنان أن يريني لوحاته.

إحدى اللوحات تحمل هذا الاسم «الحنين إلى الوطن» رسمت على اللوحة إيطالية في زي

أفاري قديم. إنها عند النبع الجبلي، تحمل إبريقها الفضي الذي صنعه حرفيو «غوئساتلين» المشهورون، وعلى سفح الجبل تقبع كثبة قرية أفارية من حجر، وفوق القرية تتصب جبال أكثر اكتئاباً، وذرا الجبال يلفها الضباب.

قال الفنان: الضباب هو دموع الجبال. حين يلف الضباب سفوح الجبال، تأخذ قطرات مضيئة في الانسياب على تجاعيد الصخور. الضباب هو أنا. ورأيت على لوحة أخرى طائراً يحط على عضاهة شائكة. الشجيرة تنمو بين الصخور العارية. الطائر يغرد، ومن شباك البيت تحدد فيه جبليّة حزينة. وحين رأى الفنان اهتمامي باللوحة، أوضح يقول: - هذه اللوحة اقتبسها من أسطورة أفارية قديمة.

- أي أسطورة؟

- اضطادوا طائراً ووضعوه في قفص. أخذ الطائر يردد في قفصه، ليلاً نهاراً: وطني، وطني، وطني، وطني، وطني، وطني، وطني، وطني.

هكذا أنا تماماً كل هذه السنوات أردد.. وفكر صاحب الطائر في نفسه «أي وطن هو وطنه؟ وأين هو؟ لا بد أنه بلد رائع، زاهرة أشجاره، وطيريه، من أشجار الجنة وطيرها. هيّا فلأطلق سراحه وأرى أين يطير. وهو سيدلني على الطريق إلى هذا البلد العجيب. وفتح القفص فانطلق الطائر مبتهلاً عشر خطوات، ثم حط على عضاهة كانت تنمو بين الصخور العارية، في أحضان هذه العضاهة كان عشه. وأنهى الفنان كلامه قائلاً: أنا أيضاً أتطلع إلى وطني من شباك قفصي.

- ولماذا لا تريد أن تعود؟

- الوقت أصبح متأخراً. لقد حملت آنذاك من أرض وطني قلبي الشاب المتوقد، فهل أستطيع أن أعيد إليها الآن عظامي البالية؟

حين عدت من باريس بحثت عن أقارب الفنان، ولدهشتي تبين أن أمه ما زالت على قيد الحياة. وبحزن أصغى أقاربه الذين اجتمعوا في البيت إلى حديثي عن ابنهم الذي ترك وطنه واستبدل به أرضاً غريبة. لكنهم، كما يبدو، كانوا غفروا له. كانوا مسرورين لأن ابنهم حي

مع هذا. وفجأة سألتني أمه:

- هل تحدثتما بالآفاريت؟

- كلا. تحدثنا بواسطة مترجم. كنت أنا أتكلّم الروسية، وابنك الفرنسية.

غطت الأم وجهها بطرحية سوداء كما تفعل النساء حين يسمعن بموت ابنهن. كان المطر ينقر على سطح البيت، وكنا نجلس في آفاريا. وعلى الطرف الآخر، في باريس، ربما كان ابن داغستان الضالّ يضيء أيضاً إلى صوت المطر. وبعد صمت طويل قالت أمه:

- أنت مخطئ يا رسول. لقد مات ابني منذ زمن بعيد. هذا لم يكن ابني. فابني لم يكن ليستطيع أن ينسى اللغة التي علمته إياها. أنا أمه (الآفاريت).

أمي* (مارك توين)

كانت والدتي في الثامنة والثمانين من العمر عندما توفيت في أكتوبر من عام 1890. وهو عمر يكشف مدى بأسها وقوتها، ويكشف عن معركة من أجل الحياة خاضتها وأبليت فيها بلاءً حسنًا، هي التي بلغ جسمها عندما كانت في الأربعين حدًا من الرقة والضعف جعل من حولها من الناس يعتبرون أنها قد بلغت أسوأ الحالات وأنها قد تموت في أية لحظة. عرفتُها جيدًا في الخمس والعشرين سنة الأولى من حياتي، ولكنني لم أكن أراها بعد ذلك إلا في أوقات متباعدة، فقد فرقت بيننا الحياة طويلاً. وأنا لا أنوي الكتابة عنها لمجرد الكتابة، ولكنني أحب الحديث عنها بالفعل.

ما الذي يحل بالصور التي يلتقطها الذهن للآخرين؟ من بين ملايين الصور، تظل صورة والدتي كأول وأقرب صديقة إلى نفسي شديدة الوضوح، صورة تعود إلى زمن بعيد يمتدّ سبعة وأربعين سنة. كانت وقتها في الأربعين، وكنت أنا في الثامنة. هي تمسك بيدي، وكلانا جاث على ركبتيه بجوار سرير أخي، الذي كان يكبرني بعامين، وهو ممدد على سريره، قد فارق الحياة، وعيناها تفيضان بالدموع.

كانت والدتي نحيلة ضئيلة الجسم، ولكن كان لها قلب كبير، قلب يتسع لأحزان الجميع، ويتسع لأفراحهم. الفارق الأكبر الذي وجدته بينها وبين بقية الناس ممن عرفت هو أنّ اهتماماتهم كانت قوية فقط تجاه أشياء قليلة ومحدودة، أما هي فقد ظل يشغلها أمر العالم بأسره بكل ما فيه وبكل من فيه حتى آخر يوم من أيام حياتها. وطوال تلك الحياة التي عاشتها لم يظهر منها اهتمام بأمر أو شخص إلا وكان كاملاً، فهي لم تكن لتهم بأمر وتترك أموراً أخرى، أو تهتم بشخص وتهمل الآخرين.

كان اهتمامها بالبشر والحيوان صادقاً ينبع من داخلها، ويحمل الحب والود. وكانت تجد العذر لأكثر الناس فظاظة حتى لو تطلب ذلك أن تختلقه اختلاقاً، فمحببة الآخرين كانت هي القاعدة التي تنطلق منها. لقد جبلت على أن تكون صديقة لكل من حرم الصداقة.

(*) سيرة ذاتية، ترجمة سعيد رضوان، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، 2014.

ذات يوم، وبينما كانت تسير في أحد الشوارع في سان لويس، وقع بصرها على أحد سائقي العربات وهو يضرب حصانه على رأسه بمقبض سوطه الثقيل، ففأجأته وأخذت السوط من يده، وانتزعت منه وعدًا بالألّا يقسو على حصان بعد ذلك، وهذا النوع من الإجراءات فيما يتعلق بالحيوانات التي تساء معاملتها كان أمرًا مألوفًا لديها مدى العمر، وكانت بحسن أسلوبها وطيب نيتها تحقق غايتها دائمًا، وأحيانًا كانت تفوز بصداقة الشخص ذاته الذي تتحدها. كانت تتبعها القطط الشريفة والضالة والمؤذية إلى البيت، فتستقبلها. ذات مرة عام 1845 وصل عدد القطط في بيتنا إلى تسع عشرة قطّة، ولم يكن لأيّ منها ميزة أو حسنة واحدة.

لقد كانت تشكل عبئًا ثقيلاً علينا وعلى والدتي كذلك، ولكنّ وجودها كان صنيعة الحظ، وهذا يكفي؛ فكان يجب أن تبقى. ومع كل هذا فقد كان وجودها أفضل من عدم وجودها، فالأطفال تلزمهم حيوانات في البيت يلاعبونها ويلطفونها، إذ لم يكن مسموحًا لنا أن نقتني طيورًا أو حيوانات ونضعها في أقفاص، لأنّ أمي لم تكن لتسمح بأن يُحبَس حتى الفأر.

الدراسة في الجامعة*

(هيلين كيلر)

استقر رأينا أخيراً على أنه يحسن بي أن أدرس عاماً آخر تحت إشراف المستر كيث قبل التحاقني بالكلية، ولهذا لم يتحقق حلمي في الذهاب إلى الجامعة فعلاً إلا بحلول خريف عام 1900، ومازلت طبعاً أذكر يومي الأول في الكلية رادكليف؛ إذ كان يوماً مفعماً بالإثارة بالنسبة لي لأنني ظللت أتطلع إليه على مدى عدّة سنوات من عمري.

كانت بداخلي قوّة هائلة تدفعني وتجعلني راغبة في مواجهة الصعاب والاختبارات التي يواجهها عادة أولئك القادرون على السمع والبصر، وقد نصحتني أصدقائي بألا أحاول ذلك، بل إنه حتى قلبي الذي بين ضلوعي كان يحاول في بعض الأحيان إقناعي بالتخلي عن تلك الرغبة الملحة. وكنت أدرك تمام الإدراك أنني في سبيلي لمواجهة أمر ليس باليسير؛ ومن ثمّ عزمت على قهر كلّ الصعاب، وترسّخ في نفسي الشّعور بأنني قادرة على التعلّم بنفس القدر الذي يمكن أن يتعلّم به أي شخص قادر على الرؤية والسمع؛ فكلّ الفارق بيني وبينهم أن ظروفهم كانت تحتم عليّ تحصيل المعرفة بطريقة مختلفة، وخامرني شعور بأنني في الكلية يمكن أن أصبح وثيقة الصلة بالكثير من الفتيات اللاتي يفكرن ويناضلن، ويبدن مشاعر الحب والأمل مثلي.

شرعت في دراستي بجدّ وشغف، وكنت في ذلك الوقت أرى عالماً يفتح أمامي.. عالماً مزدهياً بالجمال، وسنيّاً بالضياء، وشعرت أنّ باستطاعتي تعلّم كلّ شيء، اعتقاداً منّي بأنّه خليق بي في دنيا العقل والفكر أن أكون حرة طليقة كأني شخص آخر، وأنّ ماتحفّل به تلك الدّنيا من المشاهد المتنوّعة والطّرائف المتباينة، وألوان السّعادة والتّعاسة سوف تعينني جميعاً على تفهّم طبيعة العالم الحقيقي المحيط بي... بل إنّ الفصول الدّراسية بدت لي مأهولة بأرواح العظماء والحكماء، وبدا لي الأساتذة متسمون برجاحة العقل والحكمة.

لكنني سرعان ما اكتشفت أنّ الكلية ليست هي تماماً الطّريق الذي تصوّرتّه أحلامي، شيئاً فشيئاً مضيت أكتشف أنّ ثمة أشياء غير طيّبة تكتنف الدّهاب إلى الكلية؛ فعلى سبيل المثال لم يكن لديّ ما يكفي من الوقت... فأنا قد تعودت على أن يتوافر لديّ قدر كاف من الوقت

(* قصة حياتي العجيبة، ترجمة محمد وهدان.

لأفكر، أو لأجلس على انفراد في المساء وأحلم، أو لأهيم مع إحدى القصائد التي أفضّلها.. لكنني في الكلية لم أكن أجد وقتاً لكلّ هذا! فالمرء يذهب إلى الكلية ليتعلّم على ما يبدو لا ليفكر ويتأمّل... والمرء عندما يذهب إلى الجامعة يترك وراءه الكتب والخيال ومتعة الانفراد بذاته. وقد تعودت في ذلك الوقت على إراحة نفسي بفكرة أنني أقوم بتحصيل الثروات الآن لكي أستخدمها مستقبلاً... لكنني في واقع الأمر كنت أفضّل السعادة والبهجة في الوقت الحاضر على أية ثروات يمكن أن أمتلكها في المستقبل!

تمثّلت موادّ الدراسة في العام الأوّل في اللغتين الفرنسيّة والألمانيّة، والتّاريخ، والإنشاء الإنجليزي، والأدب الإنجليزي، ومضيت في ذلك العام أقرأ الكثير من أعمال المؤلفين الفرنسيين والألمان، كما درست في استعراض مجمل الفترة التاريخيّة الممتدة من سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة إلى القرن الثامن عشر، وفي إطار مادّة الأدب الإنجليزي درست الشّاعر «ميلتون».

كثيراً ما سألني النّاس كيف أتغلّب على الصّعوبات التي اعترضت مسار دراستي في الكلية؟... وهأنذا أجيب؛ فمن النّاحية العمليّة كنت بالطّبع وحيدة في الفصل، وكان الأستاذ بعيداً عني كلّ البعد كما لو كان يتحدّث إليّ عن طريق الهاتف، وكانت المحاضرات تترجم لي بالهجاء على يدي بأسرع ما يمكن، ومن ثمّ كانت الشّخصيّة الذاتيّة للأستاذ تغيب عني عادة بحكم عدم تواصلها معها؛ فالمحاضرات كانت تترجم لي بالطريقة التي يمكنني فهمها بها بسرعة بالغة، والأفكار كانت تتدافع إلى رأسي كما تتدافع الكلاب حين تطارد أرنباً... فهي في بعض الأحيان لاتستطيع ملاحقته! لكن لست أعتقد أنني من هذه النّاحية كنت أسوأ حالاً من سائر الفتيات اللاتي كنّ يدوّن المحاضرات، فحين يكون العقل مشغولاً بعملية الرّؤية وملاحقة الكتابة على الورق بأسرع ما يمكن فلا أعتقد أنّ المرء حينئذ يكون بوسعه أن يولي قدراً أكبر من الاهتمام بالموضوع أو بالطريقة التي يقدّم بها، وأنا بصفة خاصّة لم يكن بمقدوري الكتابة أثناء المحاضرات لأنّ يديّ كانتا مشغولتين بعملية السّمع! وعادة كنت أقوم بكتابة ما يمكنني تذكّره من نصوص المحاضرات حين أعود إلى المنزل، كما كنت أقوم بكتابة حلول التّمارين ومواضيع الإنشاء، وإجابات الاختبارات والامتحانات على آليّ الكاتبة ممّا كان يتيح للأساتذة أن يكتشفوا دون أدنى صعوبة أنني لا أعرف سوى القليل. وكنت أستخدم آلة كاتبة من نوع يمكن تغيير نمط حروفه، وكانت لديّ حروف

يونانية وعلامات ورموز رياضية ومجموعة من الحروف مزودة بالنبرات الفرنسية، وبدون مثل هذه الآلة الكاتبة أشكّ أنه كان بمقدوري الذهاب إلى الكلية أصلاً!

ولم يكن متوافراً في طبعات (برايل) سوى القليل جداً من الكتب التي كنت بحاجة إليها في مجالات الدراسة المختلفة، ومن ثمّ لم يكن يتسنى لي معرفة محتوى الكتب الباقية إلاّ عن طريق قيام شخص بتهجيها لي على يديّ؛ ولهذا السبب ذاته كنت بحاجة إلى وقت أكبر في استذكار دروسي ممّا تحتاج إليه زميلاتي الأخريات. وفي بعض الأحيان كنت أشعر بحزن شديد على حالي حين أجد نفسي مضطّرة لإنفاق ساعات طوال في قراءة عدد قليل من الفصول، بينما كانت الفتيات الأخريات ينعمن بالضحك والمرح غير بعيد عنيّ، ومع ذلك حرصت دائماً على تبديد تعاسي بالضحك منها لأنني كنت أدرك كلّ الإدراك أنّ كلّ امرئ راغب في تحصيل المعرفة الحقيقية لابدّ من أن تكون لديه من الصعوبات ما يتعيّن عليه مواجهتها وحده.. فليس هناك طريق سهل معبّد إلى المعرفة، بل الطريق إليها وعر منحدر، وينبغي عليّ أن أتسلّقه بكلّ ما لديّ من مقدرة، وبأفضل طريقة أستطيعها. كنت كثيراً ما أنزلق عائداً إلى الوراء، وكنت أسقط على الأرض أو أتوقّف عن التقدّم، وكنت أتعثّر فجأة في صعوبات غير متوقعة، بل وكنت في بعض الأحيان أنقلب إلى حدة المزاج وسوء الطّبع، لكنني في جميع الأحوال كنت ما ألبث أن أستعيد سكينتي وأتمالك نفسي فأخرج للسير لبعض الوقت ليتبدّد مابي من الإحباط بعض الشيء وأشعر بشجاعي ترتدّ إليّ وأستردّ شغفي ودأبي فأعاود الصّعود وأبدأ في رؤية الأفق الرّحيب... ولم أكن وحيدة دائماً في نوبات النّضال هذه، فالأصدقاء الطّيبون كانوا إلى جانبي يعينوني، ويوفرون لي الكثير من الكتب التي أحتاج إليها مطبوعة بطريقة (برايل)، وكان اهتمامهم بي ورعايتهم لي يسديان إليّ من العون والتّشجيع أكثر ممّا كان بوسعهم أن يتصوّروا.

وفي العام الماضي -وهو ثاني أعوامي في كلية «راد كليف»- مضيت أدرس الإنشاء الإنجليزي والأدب الإنجليزي والنّظم الحكوميّة في أمريكا وأوروبا، وكذلك قصائد وأعمال فنيّة باللغة اللاتينيّة، وكانت أكثر الدّروس إضفاء للسّرور على قلبي هي دروس الإنشاء، فهي جذابة رائعة، وكانت المحاضرات دائماً مثيرة للغاية ومخاطبة للذكاء، وكان أستاذ المادّة -وهو السيّد (تشارلز تاونستد كوبلاند)- حريصاً على حفز الطّلاب على إدراك وتذوّق عبوبة وروعة الأدب، وكنا في حصص الأدب نهمل من جمال التّعبير وروعة الأسلوب

لدى كبار الكتاب ودونما أية شروح إضافية لضرورة لها.. فأنت تقرأ لتستمتع بأفكارهم السامية، ثم تعود إلى منزلك والشعور يخامرك بأنك قد رنوت إلى الكمال ذاته.

وكان ذلك العام أسعد الأعوام بالنسبة لي لأنني توفرت فيه على دراسة مواد محببة أثيرة إلى نفسي، هي الاقتصاد، والأدب (الإليزابيثي)، و(شكسبير) الذي كان يلقي علينا دروسه البروفيسور (جورج ل. ليتردج)، وتاريخ الفلسفة الذي كان يلقي علينا دروسه البروفيسور (جوزبا رويس). ودروس الفلسفة ذات أهمية خاصة لأن المرء يتعلم منها كيف يفهم الأساليب التي كان الناس يفكرون بها في الماضي، وكيف يتعاطف معها، وبعد دراستها يصبح المرء على ألفة مع أساليب التفكير التي كانت قبل ذلك تبدو غريبة عليه، وليس لها ما يبررها.

ومع ذلك فالكلية ليست المدينة الفاضلة للعقل كما كنت أتصور من قبل؛ ففيها لا يلتقي المرء بالعظماء والحكماء وجهًا لوجه، ولا يستشعر فيهم لمسة الحياة.. صحيح أنهم موجودون في الكلية، لكنّه وجود محنط يبدون من خلاله في حالة جفاف وموت، حتى أنه يتعين علينا فصل كل منهم على حدة وفحصه بدقة قبل أن يتسنى لنا التأكد من أن الذي أمامنا هو نصّ لكاتب عظيم لا مجرد تقليد بارع. ويبدو لي أن الكثير من الدارسين المتعمقين ينسون أن متعتنا الحقيقية بالأعمال الأدبية العظيمة تعتمد على تعاطفنا مع الكاتب أكثر مما تعتمد على تفهمنا لما يكتب، وأن من الصعب علينا أن نتذكر الشروح المعقدة لهؤلاء الدارسين التي يسقطها العقل عادة كما يسقط غصن الشجرة ثمرة ناضجة رطبة، ونحن يمكننا معرفة كل شيء عن الزهرة وعملية نموها دون أن نرتفع إلى مستوى إدراك وتقدير جمال وروعة تلك الزهرة حين نراها في فيض من أشعة الشمس. وكنت مرارًا وتكرارًا أسأل نفسي بصبر نافذ «لماذا يتعين عليّ الانكباب على تلك الشروح والنظريات؟» إنها تحلق في عقلي هنا وهناك كأنها طيور عمياء تضرب الهواء بأجنحتها دون أن يكون لها هدف محدد. ولست أقول ذلك على سبيل الاعتراض على الإحاطة الشاملة بالكتب الشهيرة التي درسناها فما أعترض عليه فقط هو تلك الشروح النقدية المسهبة التي لا تعلمنا سوى شيء واحد: أن هناك من الآراء المختلفة بقدر ما هناك من بشر، ومع ذلك كان الأمر يختلف كثيرًا حينما يقوم أستاذ قدير (كالبروفيسور كيتردج) بشرح ما يكتبه هؤلاء الجهابذة؛ فالأمر يبدو حينئذ وكأن شخصًا ضريبًا قد ارتدّ إليه بصره؛ لأننا حين كان البروفيسور يلقي علينا محاضراته كنا

نشعر وكأنّ (شكسبير) قد عاد بإذن الله إلى الحياة!

كانت تجيء علي أوقات أشعر فيها بالغربة في نسيان نصف ما كان مفروضاً عليّ أن أتعلّمه، إذ أعتقد أنّ من المستحيل قراءة أربعة أو خمسة كتب في يوم واحد، وبلغات مختلفة وفي موضوعات مختلفة دون أن أدرك الحكمة الماثلة وراء القيام بل هذه القراءات؛ فالمرء حين يقرأ على عجلة وفي حالة من العصبيّة والارتباك دون أن يفكر في شيء آخر غير الاختبارات والامتحانات التحريرية، يصبح ذهنه مثقلاً بقدر ضخّم من المعلومات التي لا تبدو أكثر من مجرد حشو لا طائل من ورائه ولا فائدة! وكان عقلي في ذلك الوقت حافلاً بحشد هائل من الأشياء المختلفة إلى حدّ لم أكن معه أملك القدرة على تنظيم معلوماتي والتنسيق بينها، وكنت كلّما خطوت نحو «مملكة العقل» شعرت كما لو أنّ الأرواح الشريرة تطاردني وتتعبّ خطاي.

وكانت الامتحانات من دون شكّ تمثّل الجانب الأصعب من حياتي الجامعيّة؛ فبالرغم من كوني واجهتها لعدد كبير من المرات وتمكّنت في كلّ مرّة من قهرها، فقد كانت تنهض من جديد وتحّداني بالوعيد حتّى تهتزّ نفسي وتخونني شجاعتي. وأنت حين تواجه امتحاناً، فإنّك تقضي الأيام السابقة للامتحان في حشو ذهنك بأكبر قدر ممكن من الحقائق والتواريخ... قدر كبير للغاية إلى حدّ تتباك معه الرّغبة في أن تصبح أنت ومامعك من الكتب في قرار مكين تحت سطح البحر! وفي نهاية المطاف تجيء ساعة الفزع وتكون محظوظاً حقاً حين تشعر بنفسك مهيباً للامتحان وبأنّك قادر على تذكّر المعلومات التي تحتاج إليها في الوقت نفسه الذي تحتاج إليها فيه.

وأكثر ما يثير الحنق والغیظ أن تبدو ذاكرتك وقد نما لها جناحان لتطير بهما في اللحظة ذاتها التي تكون فيها في أشدّ الحاجة إليها، فالحقائق التي تتعلّمها وتستذكرها بالجهد الجهد غالباً ما تقترب في حقّك جريمة الخيانة حينما تهرب منك في الوقت الذي تكون فيه في حاجة ماسّة إليها.

قد تجد نفسك في الامتحان أمام سؤال كالتالي: أكتب مقالاً مختصراً عن «هَس» وإنجازاته. يا للعجب «هَس»؟ ومن يكون (هَس) هذا؟ وماهي إنجازاته؟... وبرغم المفاجأة فالاسم يبدو لك مألوفاً بعض الشيء وإن كنت لم تدرك لأوّل وهلة من يكون! فتأخذ في البحث

والتفتيش في كل الحقائق التاريخية التي تعرفها، ويصبح الأمر أشبه بالبحث في سلة مليئة بقصاصات من القماش من أجل الحصول على قصاصة صغيرة من الحرير تريدها. ولا شك في أنك تكون واثقاً في الوقت ذاته من أن المعلومة موجودة في مكان ما من الجهة العلوية لذهنك، فأنت قد رأيتها هناك منذ يوم واحد فقط حين كنت تبحث عن شيء آخر... لكن أين هي الآن؟

وتشرع فيجرد كل ما في ذهنك من معلومات صغيرة: المعارك، الحروب، الثورات، الأنظمة الحكومية.. لكن أين يوجد ذلك المدعو «هَس»؟ وتجد نفسك مندهشاً للغاية من أن كل الأشياء التي تعرفها لا وجود لها على ورقة الأسئلة!.. وفي نهاية المطاف، وبدافع من اليأس، تتناول السلة وتقلب كل ما بها لتجد ذلك الرجل «هَس» قابلاً في أحد الأركان ومستغرقاً في تفكيره الخاص دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن ذلك القدر الكبير من الإزعاج الذي سببه لك!

وفي هذا الوقت بالذات ينطلق صوت المراقب ليخطر ببالك بأن زمن الامتحان قد انقضى وحن موعد تسليم ورقة الإجابة.. وبكل مشاعر اليأس والاشمئزاز تترك ورقة الإجابة وتعود إلى منزلك ورأسك مليء بخطط ثورية تهدف إلى القضاء على حق الأساتذة في وضع أسئلة لا يقتنع بها الممتحنون!

تخطر ببالي الآن فكرة أن ماقلته خلال الصفحتين أو الثلاث السابقة سوف يثير ضحك الناس مني، لكن كلماتي تلك تصف في حقيقة الأمر وبكل دقة ذلك العالم الحافل بالأفكار المتزاحمة والمتدافعة في تسارع، الذي أعيش فيه ولا أملك تبديل واقعه، وماقلته إنما هو بالفعل أسلوب في التعبير عن حقيقة أن أفكارني عن الكلية قد تغيرت! فحين كان وجودي بكلية «راد كليف» مجرد أمل يراودني وأمر يخص المستقبل، كان ذلك الوجود يبدو لي ضرباً من الخيال كأنه حلم ساحر جميل.. والآن ورغم أن التحاقني بالكلية فقد خصائصه الرائعة تلك، فقد قدر لي أن أتعلّم الكثير من الأشياء التي لم يكن من الميسور أن أعرفها لولا إقدامي على تجربة الالتحاق بالجامعة. ومن تلك المعارف «علم الصبر» الثمين الذي تعلّمنا ضرورة التعامل مع التعليم على النحو نفسه الذي نتعامل به مع نزهة في الريف؛ إذ ينبغي لنا أن نتروى وألا نمضي على عجل، وأن نفتح عقولنا من أجل تلقي المؤثرات من

كلّ نوع، فمثل هذه المعرفة تثري النفوس بفكر عميق.. وقد قال أحد الحكماء «المعرفة قوّة» أمّا بالنسبة لي فإنّ المعرفة «بهجة وسعادة» لأنّك حين تكون لديك المعرفة تصبح قادرًا على التمييز بين ماهو حقيقيّ وماهو زائف، وبين ماهو سام وماهو ضيع، وحين يكون المرء على دراية بأفكار ومآثر الناس عبر مختلف عصور التّاريخ ومختلف المواقع الجغرافيّة فإنّه يستشعر التّعاطف والقربى نحو الإنسان على مرّ القرون، وعلى النّقيض من ذلك يكون المرء قد أصيب بالصّمم تجاه الحياة بأسرها حين يفقد الإحساس بأنّ هناك شيئًا ساميًا وراء كلّ مايحاول الإنسان أن يفعله ويسعى إلى تحقيقه.



نصوصُ الرَّأي



المَقالاتُ



المقالة

المقالة هي قطعة نثرية ذات طول معتدل، يتناول فيها الكاتب بعض القضايا الخاصة أو العامة من وجهة نظره الخاصة، ولذلك تصنف المقالة على أنها من نصوص الرأي؛ لأنها في الغالب تعبر عن رأي كاتبها في الموضوع الذي يتناوله بالكتابة.

وعلى الرغم من أن المقالة نوع حديث من الكتابة، إلا أن لها بذورًا موعلة في القدم في الآداب القديمة؛ إذ يمكن أن نلتمس بذور هذا الفن في الأدب الصيني القديم في أقوال الحكيم (كونفوشيوس)، وفي الأدب اليوناني في كتابات (سقراط) و(أفلاطون) و(أرسطو).

أما في الأدب العربي القديم فقد ظهرت بذور المقالة في الأدب العربي منذ القرن الثاني للهجرة في الرسائل الأدبية وما تحويه من موضوعات مثل الإخوانيات وما تتضمنه من مناظرات ومسامرات وموضوعات أخرى تفرّد بها الشعر كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف رغم الأسلوب الإنشائي والصنعة اللفظية. وتعتبر رسالة «صفة الإمام العادل» للحسن البصري التي كتبها إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز بطلب منه واصفًا فيها الإمام (الخليفة) العادل مثلًا جيدًا على المقالة الأخلاقية الوعظية.

يقول الحسن البصري:

«اعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْإِمَامَ الْعَادِلَ قِيَامَ كُلِّ مَائِلٍ، وَقَصَدَ كُلَّ جَائِرٍ، وَصَلَحَ كُلَّ فَاسِدٍ، وَقُوَّةَ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَنَصَفَةَ كُلِّ مَظْلُومٍ، وَمَفْزَعَ كُلِّ مَلْهُوفٍ. وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - كَالرَّاعِي الشَّفِيقِ عَلَى إِبْلِهِ، الرَّفِيقِ بِهَا الَّذِي يَرْتَادُ لَهَا أَطْيَبَ الْمَرْعَى، وَيَذُوذُهَا عَنْ مَرَاتِعِ الْهَلَكَةِ، وَيَحْمِيهَا عَنِ السَّبَاعِ، وَيَكْنُهَا عَنْ أَدَى الْحَرِّ وَالْقَرِّ».

وتعتبر (رسالة عبد الحميد الكاتب) إلى الكتاب التي تضع قواعد للكتابة الديوانية ولأخلاق الكاتب قريبة الشبه بالمقالة النقدية الحديثة. ورسالة (سهل بن هارون) إلى بني عمه في مدح البخل وذم الإسراف مثال على المقالة الفكاهية. ورسالة (الصحابية) لابن المقفع مقالة في سياسة الدولة وإدارتها. ورسائل (الجاحظ) وكتبه نموذج حي على المقالة في الأدب القديم. ورسائل (أبي حيان التوحيدي) وفصول مقابساته، وكتابه (الإمتاع والمؤانسة) نموذج

للمقالات الفلسفية التأملية والهجائية.

يقول أبو حيان التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة في حوار بينه وبين الوزير بن سعدان حول الوزير صاحب بن عباد وما يُقال في ذمه: «إِنَّ الرَّجُلَ كَثِيرُ الْمُحْفَوظِ، حَاضِرُ الْجَوَابِ، فَصِيحُ اللِّسَانِ. . . إِنَّهُ يَمْدَحُ نَفْسَهُ بِشَعْرِ ثُمَّ يُعْطِيهِ لِمَنْ يُلْقِيهِ كَأَنَّمَا هُوَ شَعْرٌ قَلِيلٌ فِيهِ مِنْ سِوَاهِ، فَهُوَ مُجِبٌّ لِلشَّاءِ لِدَرَجَةِ الإِسْرَافِ، وَهُوَ مَزِيحٌ مِنْ عَقْلٍ وَحُمْقٍ».

كل هذه الأمثلة محاولات يمكن أن تدرج تحت أدب المقالة. محاولات يمكن أن تدرج تحت أدب المقالة.

أما المقالة في العصر الحديث فقد ارتبطت بظهور الصحافة، ونشأت في حضنها، وقد ذكر محمود نجم للمقالة أربعة أطوار، هي:

الطور الأول: يضم كُتَّاب الصحف الرسمية، مثل رفاعة رافع الطهطاوي، وميخائيل عبد السيد، وعبد الله أبو السعود، ومحمد أنسي، وتمتدّ حتى الثورة العراقية. وقد نشروا مقالاتهم في «الوقائع المصرية» و«وادي النيل» و«الوطن» و«روضة الأخبار» و«مرآة الشرق»، وتناولوا المواضيع السياسية، وتميز أسلوبهم بكثرة استخدام المحسنات البديعية والزخرف اللفظي.

الطور الثاني: تأثر بنشأة الحزب الوطني الأول، وبروح الثورة التي سبقت الحركة العُرابية، وبالأدباء السوريين الذين استقروا في مصر، ولعبوا دورًا كبيرًا في تطوير المقالة. من أبرز كُتَّاب هذا الطور: أديب إسحق، وسليم النقاش، وسعيد البستاني، وعبد الله نديم، ومحمد عبده، وإبراهيم المويلحي، ومحمد عثمان جلال، وعبد الرحمن الكواكبي، وبشارة تقلا. ومن أهم الصحف التي كتبوا فيها نذكر «الأهرام» و«مصر» و«الفلاح» و«الحقوق»، وقد تناولت مقالاتهم مواضيع اجتماعية، وقد تحللت من الصنعة اللفظية.

الطور الثالث: ظهرت في هذا الطور مدرسة صحفية حديثة، نشأت في عهد الاحتلال الانكليزي لمصر، من أبرز روادها: علي يوسف، ومصطفى كامل، وعبد العزيز جاويش، وولي الدين يكن، وسليم سرريس، ومحمد رشيد رضا، وخليل مطران، وأحمد لطفي السيد، كما ظهرت صحف ناطقة باسم أحزاب سياسية، فكان الزعيم مصطفى كامل الناطق باسم الحزب الوطني ينشر مقالاته في جريدة «اللواء»، وكان أحمد لطفي السيد يمثل حزب

الأمة، وينشر مقالاته السياسية والفكرية في جريدة «الجريدة».

الطور الرابع: المدرسة الحديثة التي تبدأ بالحرب العالمية الأولى وبأحداث ثورة 1919 المصرية، وقد ظهرت في هذه الفترة صحف تركت أثرها في كتابة المقالة مثل جريدة «السفور» لعبد الحميد حمدي، و«الاستقلال» لمحمود عزمي، وقد شارك في تحريرها طه حسين، وجريدة «السياسة» لمحمد حسين هيكل، وكانت ناطقة باسم حزب الأحرار الدستوريين، وجريدة «البلاغ» لعبد القادر حمزة، وجريدة «الأسبوع» لإبراهيم عبد القادر المازني، وقد تناولت المقالة في هذا الطور مواضيع سياسية، وتميز أسلوبها بالوضوح والدقة.

وواضح أنّ هذه الأطوار تركّز على تطور المقالة في مصر، وقد أشار محمود نجم نفسه إلى أنّ المقالة الصحفية في لبنان كانت أسرع تطوراً من المقالة في مصر.

ومنذ ذلك الوقت قطعت المقالة، على اختلاف أنواعها، شوطاً كبيراً، فصار لكل بلد كُتّابها، وتنوّعت موضوعات المقالة، وقضاياها، وتطورت أساليبها، وصارت المقالة من أكثر أشكال الكتابة شيوعاً وانتشاراً.

ولا شكّ أنّ لكتابة المقالة أصولاً يلتزم بها الكُتّاب، منها: تحرّي الدقة في نقل المعلومات، والموضوعية في عرض وجهات النظر، والصدق والعدالة، وعدم التحيز، واللغة السليمة المشرقة الواضحة.

كما أنّ المقالة قد تتنوّع بحسب الغرض من كتابتها، فالمقالة الإقناعية ستختلف بالتأكيد عن مقالة سردية يحكي فيها الكاتب عن موقف مرّ به ليشير، بعد ذلك، إلى أمر يود أن يلفت نظر القارئ إليه؛ ففي الأولى سيستخدم الكاتب الأدلة والحجج لدعم وجهة نظره التي يود أن يقنع الكاتب بها، أما في الثانية فسيستخدم البناء القصصي، وهكذا.

وعلى الرغم من التنوّع اللانهائي لمضامين المقالات وطرائق عرضها، إلا أنّ الأصالة تعدّ شرطاً أساسياً من شروط المقالة الناجحة، ونعني بالأصالة أن تعكس المقالة روح كاتبها، وفكره، فهي ليست حشداً من المعلومات، وليست نقلاً حرفياً للوقائع، بل هي وجهة نظر خاصة، تستحق أن تُقرأ، وقد نالت هذا الاستحقاق من مصداقية كاتبها، ونزاهته، وثقافته.

الاستهتار برهان السَّامِ

سلامة موسى

كثيراً ما نَخْدَعُ برؤية بعض الناس يلهون وَيَسْتَهْتِرُونَ، ولسان حالهم يقول: «نعيش اليوم لأننا لا نعرفُ إذا كنا سنحيا في الغد». والذي يخدعنا في هؤلاء الناس أننا نعتقد أنهم سعداء قد حلّوا مشكلة الوجود، واستقروا على أن الأسلوب الأمثل للحياة هو أن نحيا في مسرات مُتوالية نأكل ونشرب، وغداً نموت. ولكننا عندما نتأمل حالهم ونتحدث إليهم نجد أنهم في غمرة من التشاؤم والحزن، قد سئموا الحياة وضاقوا بها إذ لا يجدون أية دلالة لها، وهم كلما شملهم السَّام والحزن عمّدوا إلى المسرات الرخيصة التي تُسرّي عنهم تفاهة هذه الحياة التي يحيونها، واستهتارهم بالأخلاق، وإقبالهم على الشراب أو الطعام، إنما يعود كل ذلك إلى عجزهم عن أن يرفعوا أنفسهم إلى المقام الذي يشعرونهم بالكرامة والسُّمو، وإلى عجزهم عن أن يؤدّوا عملاً أو يقوموا بنشاط يجعل لحياتهم دلالة. إن خلّو الحياة من الدلالة هو الذي يجعل الشاب يتساءل: لماذا أعيش؟ ومتى سأل هذا السؤال ولم يجد الجواب الشافي فإنه عندئذ يستهتر، بل هو قد يرتكب الجرائم الأخلاقية البشعة لأنه لم يعد يجد الدلالة في الاستقامة والشرف، ولا نقول العظمة والمجد.

كيف إذن نوجد الدلالة لحياتنا؟ نوجدُها بأن نُشِئَ، نبني، نُشيدَ، نوذّي من العمل ما نرى نتائجهُ تنمو أمام أعيننا فنفرح ونحس أن المستقبل جزء من الحاضر؛ لأن هذا العمل سيطرّد في نموه في السنين القادمة، أي في هذا المستقبل. نبني أنفسنا، نبني شخصيتنا، أو نبني غيرنا بالتربية والتثقيف. وتجري عملية البناء يوماً بعد يوم فتشعرنا بتطورنا وارتقائنا وعندئذ نجد الدلالة، وهي: مشاعل الطريق للشباب. أنا أحيأ لأنني أرتقي، ولأنّ لِنفسي امتداداً في المستقبل يجعلني أفتاءل وأفرح، فلا أحتاج إلى أن أقول: لنأكل ونشرب وغداً نموت. إن هذه الكلمات التي تحمل معنى التشاؤم بالمستقبل، ومعنى التفاهة في حياتنا الحاضرة، ومعنى الرُّكود والانحلال، هذه الكلمات لا يمكن أن تخطر بعقل الشاب الذي يجد الدلالة لحياته؛ لأنه يتطور ويرتقي، ولأنه يبنّي شخصيته.

ومن الأخطاء الفادحة ظن الكثيرين من الناس أن الشبان المُستهترين أكثر استمتاعاً بحياتهم،

وإن كانوا أقلَّ انتفاعاً مِنَ الشَّبَابِ الجادِّينَ.

وَمِنْشَأُ هذا الخِداعِ أَنَّنَا نَرى الشَّابَّ المُسْتَهْتَرَّ يَعِيشُ في اللَّهْوِ، يَسْهَرُ وَيَتَّبِعُ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا، وَيَنْعَمُ في التَّدْخِينِ أو السُّكْرِ، وَلَا يَتَعَبُ في كَسْبٍ، وَلَا يُؤَدِّي خِدْمَةً تَحْتَاجُ إلى الدَّرْسِ والجُهدِ، وَهُوَ ضاحِكٌ مِنْ هُمومِ الدُّنْيَا هازئٌ بالمُسْتَقْبَلِ، لَا يُبالي بِالواجِبَاتِ الاجتماعيَّةِ أو الرُّقْيِيِّ الشَّخْصِيِّ. وَنَرى أَنَّ الشَّابَّ الجادَّ في تَعَبٍ، يَجْهَدُ وَيَعْرِقُ وَيُفَكِّرُ كَثِيراً، وَيَحْمِلُ أعباءً مِنَ الهُمومِ والاهْتِمَاماتِ، وَيُضْطَلَعُ بالمَسْؤُولِيَّاتِ الماديَّةِ والروحيَّةِ، وَهُوَ رَزِينٌ في حَدِيثِهِ، يَقْتَصِدُ في كَلِمَاتِهِ وابتساماته، يَنَامُ ليلَه، وَيَسعى نهارَه في طَلَبِ الرِّزْقِ أو تَرْقِيَةِ شَخْصِيَّتِهِ بالدرسِ.

والمقارَنَةُ بينَ هذينِ الاثنينِ توهمُنا أَنَّ الأوَّلَ سَعِيدٌ باستِهْتارِهِ، والثَّاني شَقِيٌّ بِجَدِّهِ، ولكنَّ هذا خَطَأٌ فادِحٌ؛ لأنَّ استِمتاعِ الشَّابِّ الجادِّ تُسْري على مُستوى أعلى من استِمتاعِ الشَّابِّ المُسْتَهْتَرِّ، كما أَنَّها تَمْتدُّ إلى عَشْرَاتِ السَّنِينَ في المُسْتَقْبَلِ، في حينِ تَنْقَطِعُ استِمتاعُ الشَّابِّ المُسْتَهْتَرِّ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الأَرْبَعِينَ أو الخَمْسِينَ.

إِنَّ المُسْتَهْتَرَّ يَحيا بِلا حَيَاةٍ تَنْتَظِرُهُ في النِّصْفِ الثَّاني مِنْ عُمرِهِ، في حينِ يَحيا الجادُّ حَيَاتَهُ كُلَّها إلى يومِ وفاتِهِ، فالأوَّلُ - أيُّ المُسْتَهْتَرِّ - يَقِفُ عِنْدَ الأَرْبَعِينَ أو الخَمْسِينَ بِلا اهْتِمَاماتٍ رُوحِيَّةٍ أو ثَقافِيَّةٍ أو فَنِيَّةٍ أو اجْتِماعِيَّةٍ، وبِلا رِسالَةٍ، وَفي أَغْلَبِ الأحيانِ بِلا صِحَّةٍ، أمَّا الثَّاني - أيُّ الجادِّ - فَإِنَّهُ رَبطَ نَفْسَهُ مِنْذُ العِشْرِينَ أو قَبْلُها بِروابطِ الارتِقاءِ الشَّخْصِيِّ والخِدْمَةِ الاجتماعيَّةِ والاستِطلاعاتِ الثَّقافيَّةِ، فَهُوَ شابٌّ يَرْقُصُ قَلْبُهُ طَرَباً للحياةِ حَتَّى لو تَجَاوَزَ المِئَةَ مِنَ العُمُرِ. كَثِيراً ما أَجِدُ رَجُلًا في العَقْدِ السَّابعِ أو الثَّامِنِ مِنْ عُمرِهِ قَدْ تَعَدَّدَتِ اهْتِمَاماتُهُ فَتَوافَرَتْ لَهُ بِذلكِ استِمتاعُهُ؛ لأنَّهُ أَخَذَ حَيَاتَهُ مِنْذُ شَبَابِهِ مَأْخَذَ الجِدِّ وَلَمْ يَسْتَهْتِرْ، في حينِ أَنَّ أوْلئِكَ المُسْتَهْتَرِّينَ أَيَّامَ شَبَابِهِمْ لَا يَكادُونَ يَبْلُغُونَ السَّتينَ مِنَ العُمُرِ حَتَّى يُحسِّسُوا الحيرةَ وَحَتَّى يَتَسَاءَلُوا في عَجَبٍ: لِمَاذَا هُمْ أَحياءُ؟ أَيُّها الشَّابُّ اسْتَمْتِعْ بِالْجِدِّ الباقِي، وَلَا تَسْتَمْتِعْ بِاللَّهْوِ الزَّائِلِ.

نريدُها عادةً لا صرعةً عوضُ بن حاسوم الدرمكي

أودُّ أن أبدأ حديثي بقاعدةً كونيّةً ثابتةً «أنَّ كُلَّ شيءٍ يَتَغَيَّرُ، وأنَّ الثَّابتَ الوحيدَ في الحُدُوثِ هو التَّغَيُّرُ»، وَمَنْ سَبَرَ أحداثَ التاريخ مُنْذُ بَدْءِ الخَلِيقَةِ سَيَنْتَهِي إلى هذه الحقيقةِ معَ إضافةٍ مُهمّةٍ وهي أنَّ وتيرةَ التَّغَيُّرِ تَتَسَارَعُ معَ الوقتِ تَسارِعًا مُرْعَبًا، فَمَنْ تَكَيَّفَ معَ ذلكَ التَّسَارُعِ حَافِظًا على وجودِهِ، وَمَنْ نَامَ على أُمُجَادِ الماضي وتَوَقَّفَ عن الحركةِ أو تَحَرَّكَ ولكنْ بَوْتيرةٍ أبطأ فَاتَهُ القطارُ الَّذي لا يعودُ للخلفِ إطلاقًا!

يُرَجِّحُ عددٌ كبيرٌ مِنَ العلماءِ أَنَّ العَصْرَ الحَجَرِيَّ استمرَّ ملايينَ السَّنينِ، وهوَ العهدُ الَّذي كانتَ فيه البشريّةُ في قَمّةٍ بُدَائِيَّتِها، ثُمَّ تلاهُ العَصْرُ البرونزيُّ الَّذي استمرَّ ألفي سَنَةٍ فَقَطْ، أمّا العَصْرُ التَّالِي وهوَ الحديديُّ فَلَمْ يُكْمَلِ الألفَ سَنَةً، وهكذا كانتِ البشريّةُ تُسابقُ الزَّمنَ في سَعِيها لحياةٍ أَفْضَلَ.

ولئنْ كانتِ النُّقْلَاتُ النُّوعِيَّةُ قَدِ اعْتَمَدَتْ في القديمِ على تجارِبِ «الصَّحِّ والخطأ»، واكتشافِ النَّارِ واختراعِ المِحْرَاثِ، فإنَّ التَّعلُّمَ والقراءةَ ساهما - لاحقًا - في إحداثِ قَفْزاتٍ هائلةٍ في مسيرةِ المدنيّةِ، وأُضْحَتِ المعلوماتُ أعظَمَ أسلحةِ البَشَرِ وأوثَقَ دعائمِ بناءِ المستقبلِ.

قَبْلَ مُدَّةٍ خَرَجَتْ دراسةٌ لجامعةِ كاليفورنيا بيركلي الشهيرة UC Berkeley قُدِّرَتْ فيها حَجْمُ المَعْلُومَاتِ المُنتَجَةِ عامَ 2002 بِخَمْسَةِ «إيكسابايت»، وهوَ ما يُعَادِلُ سَبْعَةَ وثلاثينَ أَلْفَ نُسْخَةٍ إلكترونيّةٍ مِنْ مكتبةِ الكونغرسِ الأميركيّةِ. وقَبْلَ أَنْ تَسْتَصْغِرَ الرِّقْمَ لَا بُدَّ مِنَ الإِشَارَةِ إلى أَنَّ عَدَدَ الكُتُبِ في تلكَ المكتبةِ يَزِيدُ على سَبْعَةِ عَشَرَ مليونَ كتابٍ، كُلُّ هذا الحَجْمِ الكبيرِ مِنَ المَعْلُومَاتِ كانَ قَبْلَ ثَوْرَةِ وسائلِ التَّواصُلِ الاجتماعيِّ كـ «فيسبوك» و«تويتر» و«يوتيوب» وأمثالِها. ثُمَّ قَامَتْ شركةُ هِولْت باكيرد HP بدراسةٍ قُدِّرَتْ فيها حَجْمُ المَعْلُومَاتِ المُتَوَقَّعِ إنتاجِها عامَ 2020، أي بَعْدَ أَرْبَعِ سنواتٍ، بِقُرَابَةِ خَمْسِينَ «زيتابايتس»، حيثُ الزَّيتابايتسُ يُساوي أَلْفَ «إيكسابايت»، بِمَقْدُورِكَ هُنا أَنْ تُمَسِّكَ بِأَلَةٍ حَاسِبَةٍ لَتَعْرِفَ هذا الحَجْمَ الهائلَ!

لماذا أذكرُ هذه الأمور؟ ببساطة: حتى نتيقن أنه لا بُدَّ لنا من التحركِ بسرعةٍ عاليةٍ و«متسارعةٍ» للتوافقِ معِ مُتغيّراتِ العالمِ من علومٍ وتقنيّاتٍ ونزعاتٍ، إن أردنا أن نبقى دومًا في السباقِ ضمنَ دُولِ النُخبَةِ، كما تؤكّدُ ذلكَ دومًا قيادتنا الرشيدة، وأحدُ أهمِّ مُحركّاتِ السرعةِ تلكَ «القراءة» كعادةٍ ثابتةٍ لا كصرعةٍ طارئةٍ.

فمن دونِ شعبٍ نهمٍ للتعلُّمِ الدائمِ ستُعاني خُططُ الدّولةِ كثيرًا لعدَمِ كفاءةِ القُدّراتِ البشريّةِ للوفاءِ بحجْمِ التّحدي وعِظَمِ الطُّموحِ وكِبَرِ الأهدافِ المرسومة، وها نحنُ في الشّهرِ الخامسِ من عامِ القراءة، ورغَمَ المُبادراتِ الكثيرةِ للحكومةِ ومُؤسّساتِ الدّولةِ، إلّا أن الملاحظَ أن الناتجَ حتّى الآن أقلُّ من الطُّموحِ، اللّومُ هنا على النّاسِ أنفسهم فما نحتاجُ إليه هو المبادرةُ الذاتيّةُ، وليس انتظار «الدّر» دائماً لكي نتحرّك، وليس بدعاً من القول أن المُواطنةَ الحقّةَ تستلزمُ منا جميعاً إنجاحَ هذا التّوجّهِ والإحساسِ بـ«حرقةٍ» فعليّةٍ من أجلِ ترجمةِ رؤيةِ القيادةِ في هذا الجانبِ إلى واقعٍ مُعاشٍ.

إنّ القراءةَ ركيزةُ العِلْمِ، وعليها تُراهنُ شعوبُ العالمِ المُتخصّصِ، وتلكَ التي تُحاولُ الوصولَ إلى عالمِ النُخبَةِ، ففي آخرِ إحصائيّةٍ لمُنظّمةِ النّاشرينِ الدوليّةِ IPA قدّرتِ الإنفاقَ السنويّ على شراءِ الكُتبِ بمبلغٍ مئةٍ وأربعةٍ عشرَ مليارَ يوروٍ تُمثّلُ السّتّةَ الكِبارَ (الولاياتِ المُتّحدة، الصّين، ألمانيا، اليابان، فرنسا، بريطانيا) نسبةً 60٪ من ذلكَ الإنفاقِ، وبلغَ صافي العوائدِ لبيعِ الكُتبِ في الولاياتِ المُتّحدة عامَ 2013 أكثرَ من تسعةَ عشرَ مليارَ يورو، وبقيمةٍ سوقيةٍ تُقاربُ سبعةً وعشرينَ ملياراً.

وفي عام 2014 كانتِ الكُتبُ الجديدةُ تُجاوزُ ثلاثمئةً وأربعةَ آلافِ عنوانٍ في السّوقِ الأميركيّةِ فقط، بينما أعلى دولةٍ عربيّةٍ وهي مصرُ لم تصلِ إلى عشرةِ آلافِ كتابٍ في آخرِ إحصائيّةٍ لها!

لا بأسَ هنا إن لم نكنْ ننتجُ حجماً مساوياً من المعرفةِ فنحنُ في مرحلةِ بناءِ القُدّراتِ، وذلكَ وضعٌ طبيعيٌّ للغايةِ، بل المُهمُّ حالياً أن تكونَ لدينا مُؤسّساتٌ مختصّةٌ بترجمةِ المعارِفِ العالميّةِ الحديثةِ لرفدِ البلدِ بآخرٍ ما توصلَ إليه العِلْمُ.

أقولُ المعارِفَ والعلومَ وليس ترجمةَ رواياتٍ لا تُسمِنُ ولا تُغني من جوعٍ أو كُتبٍ

ذات موضوعات ضبابية لا تعرف لماذا تُرجمت أصلاً، وقد تعلّمنا في الإدارة أن 90٪ من نجاح أي مشروع تجاري يعتمد على جودة المنتج، وعليه فمن أجل أن نكون أهلاً لطموحات وطن المستقبل وأكفّاء لتحديات الغد وتقلباته لا بد أن يصل الفرد منا إلى درجة لا تقل إن لم تزد على قدرات ومعارف نظيره الأميركي أو الياباني أو الألماني لتضييق الهوة المعرفية Knowledge Gap، هنا أعيد من جديد أن المسؤولية تقع على الفرد نفسه في المقام الأول وهو من يجب عليه أن يبادر بالتعلّم المتواصل كواجب وطني قبل أن يكون تطويراً للذات.

كم أتمنى أن أرى قذوات المجتمع من كبار المسؤولين والأكاديميين والإعلاميين والرياضيين والفنانين، يسهمون فعلاً في بناء هذه العادات، لا بالمشاركة في الفعاليات والخطب ولكن بحمل كتاب بصفة دائمة وتصفّحه في أماكن الجلوس العامة. دعوني أقولها بصراحة: الكثير «يخجل» من حمل كتاب، ولا أعرف لذلك سبباً، والبعض يتسّم وهو يمسك بطرف شيشة أو «يعمر مدواخه» ويرمقك بنظرة، إن حملت كتاباً، لذلك سيكون للقذوات دور كبير في رأب هذا الصدع الغريب بترسيخ و«تجميل» عادة القراءة في الأماكن العامة.

سيختتم غداً معرض أبوظبي الدولي للكتاب، وسيعود غالية رواده محمّلين بأكياس مليئة بالكتب والمراجع، كل ما نتمناه ألا يكون ذهاب الكتب إلى المنازل لكي تكون قطعة ديكور لا أكثر، وما نرجوه أكثر ألا ننسى القراءة بمجرد نهاية هذا العام. نحن نناشد بناء عادات جديدة تترسخ لتصبح جزءاً من حياة الإنسان اليومية، وليس أمراً عارضاً تم لمسايرة المبادرة ثم تنتهي بنهايتها، فمطر لمرة واحدة لا يخرج حصاداً كما تقول حكمة الهنود الحمر، وليست كيفية بدايتنا للسباق أمراً بالغ الأهمية بل المهم كل الأهمية هو كيف نهي هذا السباق.

الحلاق المثقف

ياسر حارب

1

قبل سنواتٍ عدّةٍ ذهبتُ في زيارةٍ عملٍ إلى مكتبةٍ سنغافوريةٍ الوطنيّة، وصادفَ ذلكَ اليومَ مناسبةً جميلةً اسمُها « سنغافورةُ تقرأ ». ذهبتُ بنا مُرافقتنا إلى أحدِ محالِّ سلسلةٍ مطاعمٍ شهيرةٍ. دخلنا فوجدنا مجموعةً من كبار السنِّ متحلّقين حولَ طاولةٍ، وأمامهم كتابٌ كانوا يتحدثونَ عنه. انتهى الحوارُ فاتّجهنا إلى مطعمٍ آخرٍ من السلسلةِ نفسها، وكانتِ المفاجأةُ؛ وجدنا أكثرَ من عشرين سائقَ أجرةٍ أوقفوا سيّاراتهم في الخارجِ، وجلسوا لساعةٍ يناقشونَ كتابًا!

وفي كلّ عامٍ تُعلنُ المكتبةُ الوطنيّةُ يومًا للقراءة، وتُحدّدُ مجموعةً من الكتبِ التي تنصَحُ الناسَ بقراءتها، وتقومُ بتوفيرها بلغاتِ الشَّعبِ الأربع. ثمَّ تُطلقُ المكتبةُ حملاتٍ ترويجيّةً، بالتَّعاونِ معِ أنديةِ الكتبِ في المدينةِ ووسائلِ الإعلامِ والمطاعمِ والمحالِّ والمراكزِ التجاريّةِ، لتشجيعِ الناسِ على قراءةِ تلكِ الكتبِ، والمشاركةِ في مناقشتها معَ زملائهم في ذلكَ اليومِ.

وفي كثيرٍ من الولاياتِ المتَّحدةِ وبعضِ المُدنِ الأستراليّةِ توجدُ مناسبةٌ سنويّةٌ اسمُها «مدينةٌ واحدةٌ، كتابٌ واحدٌ»، حيثُ تختارُ المكتبةُ العامّةُ في كلّ مدينةٍ كتابًا واحدًا، وتُحدّدُ يومًا لتقومَ جميعُ أنديةِ الكتبِ والمؤسَّساتِ والشَّرَكَاتِ الخاصّةِ والجمعيّاتِ، بتشجيعِ موظفيها وأعضائها على قراءةِ ذلكَ الكتابِ ومناقشتِهِ في اليومِ المُحدّدِ. وقد يسألُ سائلٌ: ولماذا كتابٌ واحدٌ فقط؟ الهدفُ من ذلكَ هوَ خلقُ هالةٍ من الاهتمامِ تدفعُ بالفضولِ إلى حدِّه الأقصى، فيتساءلُ الناسُ عن ذلكَ الكتابِ، ولماذا اختارتهُ المكتبةُ، وماذا فيه، وغير ذلكَ من تساؤلاتٍ تُشجّعُهم على اقتنائه وقراءتهِ. حيثُ وجدوا أنَّ اختيارَ كتابٍ واحدٍ فقط أكثرُ إثارةً للناسِ من قائمةٍ كُتبِ.

اليومَ يجتمعُ صاحبُ السُّمُوّ الشَّيخُ مُحَمَّدُ ابنُ راشدٍ آلِ مكتومٍ معَ مئةٍ شخصيّةٍ إماراتيّةٍ في «خلوةِ المئة» ليُفكّرَ معهم بصوتٍ عالٍ عن أفضلِ المبادراتِ والأفكارِ التي من شأنها أن تُشجّعَ الناسَ على القراءةِ، بمناسبةِ إعلانِ العامِ 2016 عامَ القراءةِ.

رسالتي لرؤاد الخلوّة، وللحكومة، ولكل المهتمين، هي أن مجرد التفكير في تشجيع الناس على القراءة هو عمل نبيل؛ ولكي نحقق الهدف المطلوب نحتاج إلى الاحتفاء بالكتاب والكاتب. ورغم أن الإمارات من أكثر الدول العربيّة حرصاً على توفير منصات للكتاب والمثقفين، إلا أن المطلوب الآن هو أن تضع الحكومة ثقلها خلف فكرة القراءة، فتحدّد يوماً سنوياً لدفع المجتمع إلى ذلك، ولنبداً بكتاب واحد لكل إمارة؛ فنشجع أندية الكتب والمكتبات والمثقفين والأدباء، لا يعقدوا مهرجانات أو مؤتمراً في مكان مغلق - رغم أهميّة ذلك - بل ليحتفوا بيوم القراءة في الأسواق والمطارات والمؤسسات الحكوميّة والمرافق العامّة. نحتاج إلى أن يتحوّل الكتاب إلى حديث المجتمع والإعلام، ويُقدّم الكاتب المتميّز في المناسبات العامّة تماماً مثلما يُقدّم رجال السياسة والإعلام.

بالمناسبة، يوجد في سنغافورة نادي كتاب للحلاقين، وعندما سألتهم عن سبب تشجيع الحلاقين على القراءة قيل لي إن الحلاق من أكثر الناس حديثاً مع الناس، وعندما تكون ثقافته عالية، يسهم في الارتقاء بثقافة المجتمع.

لماذا نثقّف أنفسنا؟

سلامة موسى

2

يَعْسُرُ عَلَى الرَّجُلِ الْمُثَقَّفِ أَنْ يَتَمَالَكَ نَفْسُهُ وَهُوَ يَشْرَحُ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى أَنْ يَكُونُوا مُثَقِّفِينَ؛ لِأَنَّهُ فِي هَذَا الشَّرْحِ بِمَثَابَةِ مَنْ يَزْجُرُهُمْ عَنِ الْقَدْرِ أَوْ التَّوَحُّشِ أَوْ الْبَهِيمِيَّةِ، وَيُوضِّحُ لَهُمْ قِيَمَةَ النِّظَافَةِ أَوْ الْإِنْسَانِيَّةِ أَوْ التَّمَدُّنِ. فَنَحْنُ هُنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى أَنْ نَقُولَ لِلشَّابِّ الْمُتَخَمِّمِ بِالْفِرَاقِ وَالشَّبَابِ إِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُثَقِّفَ نَفْسَهُ حَتَّى لَا يَفْسُدَ، وَيَجِبُ أَنْ نَقُولَ لغيره إِنَّ الْحَيَاةَ النَّاضِجَةَ تَحْتَاجُ إِلَى ثِقَافَةٍ، وَإِنَّ هُنَاكَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَصْخُحُ أَنْ يُسَمِّيَهُمْ بِقَوْلٍ بَشَرِيٍّ؛ إِذْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ سِمَاتِ الْحَيَاةِ سِوَى النُّمُوِّ الْخَلَوِيِّ، كَأَنَّهُمْ فُجُلٌ أَوْ جَرَجِيرٌ، وَسَيَقُونُ نَفْسِيًّا وَإِنْسَانِيًّا فِي عِدَادِ الْبُقُولِ إِلَى أَنْ يُثَقِّفُوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ الْخَاوِيَةَ تُحْدِثُ سَأْمًا لَا تَخْلُصُ مِنْهُ إِلَّا بِالْثِقَافَةِ الَّتِي تَبْعَثُ عَلَى الْاهْتِمَامِ بِالذَّهْنِيَّةِ وَتَبْسُطُ الْأَفَاقَ.

فَحَيَاةُ الْفَرْدِ قَصِيرَةٌ مُحَدُودَةٌ، قَلَّمَا تَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ سَنَةً. وَلَكِنَّ حَيَاةَ النَّوعِ الْبَشَرِيِّ طَوِيلَةٌ. وَنَحْنُ حِينَ نَدْرُسُ إِنَّمَا نَنْقُلُ حَيَاةَ النَّوعِ إِلَى حَيَاةِ الْفَرْدِ؛ أَيْ إِنَّمَا عِنْدَمَا نَدْرُسُ التَّارِيخَ الْبَشَرِيَّ، وَالثَّقَافَةَ الْقَائِمَةَ فِي عَصْرِنَا مِنَ الثَّقَافَاتِ الْمُتَعَاقِبَةِ فِي الْعُصُورِ الْمَاضِيَةِ نَفْهَمُ الْمَغْزَى مِنَ الْحَيَاةِ أَكْثَرَ مِمَّا نَفْهَمُهُ مِنْ حَيَاتِنَا الْخَاصَّةِ. وَإِحْدَى غَايَاتِ الثَّقَافَةِ هِيَ أَنْ نُكَسِبَ الْحَيَاةَ دَلَالَةً وَمَغْزًى. أَيْ إِنَّمَا نَحْسُ أَنَّنَا لَا نَحْيَا الْحَيَاةَ الْبَيُولُوجِيَّةَ الَّتِي لَا تَخْتَلِفُ عَنْ حَيَاةِ الْحَيَوَانَ، لَيْسَ لَنَا مِنْ مَعَارِفَ سِوَى مَا يَكْفِي لِلْكَسْبِ الْمَادِيِّ، بَلْ نَعِيشُ الْحَيَاةَ الرُّوحِيَّةَ الَّتِي نُدْرِكُ مِنْهَا أَنَّنَا حَلَقَةٌ فِي سِلْسِلَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي تَتِمَثَّلُ فِيْنَا أَغْرَاضُهَا وَأَهْدَافُهَا، وَبِهَذَا نَرْتَقِي إِلَى مُسْتَوًى عَالٍ لَهُ لَدَاتُهُ الْأَنْيَقَةُ، كَمَا أَنَّ لَهُ أخطارَهُ الْكَبِيرَةَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ نَوَاجِهُهَا.

ثُمَّ إِنَّ نِظَامَ التَّعْلِيمِ يُحِيلُنَا إِلَى مُتَخَصِّصِينَ، نَعْرِفُ فَنَّا وَنُمَارِسُ حِرْفَةً. وَفِي حُدُودِ هَذَا الْفَنِّ وَهَذِهِ الْحِرْفَةِ نَعِيشُ الْمَعِيشَةَ الْمُحَدُودَةَ. فَالثَّقَافَةُ هُنَا تُحِيلُ هَذَا التَّضْيِيقَ إِلَى تَوْشُّعٍ، وَتُكَبِّرُ الْعَقْلَ، وَتُرَحِّبُ الْقَلْبَ. فَتَجِدُ عِنْدَئِذٍ التَّسَامُحَ الْبَشَرِيَّ بَدَلًا مِنَ التَّعَصُّبِ الْقَوْمِيِّ، وَالنَّظَرَ الْعَالِيَّ بَدَلًا مِنَ النَّظَرِ الضَّيِّقِ. وَانْتِشَارُ التَّخَصُّصِ فِي أَيَّامِنَا قَدْ عَرَسَ عَقِيدَةً فَاسِدَةً بَيْنَ الْجُمْهُورِ، هِيَ أَنَّ الْمَعَارِفَ -عِلْمًا وَفَنًّا وَآدَابًا- لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَدْرُسَهَا غَيْرُ الْمُتَخَصِّصِينَ، كُلُّ فِي الْفَرْعِ الَّذِي يَخْتَارُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الطَّبِيبِ أَنْ يَعْرِفَ التَّارِيخَ، وَلَيْسَ عَلَى الْأَدِيبِ أَنْ يَعْرِفَ الْفَلَكَ، وَلَيْسَ عَلَى الْمُهَنْدِسِ أَنْ يَدْرُسَ الْاجْتِمَاعَ. وَهَذِهِ عَقِيدَةٌ مُخْطِئَةٌ، يَجِبُ أَنْ

تُكَافَحَ حَتَّى تُمَحَى.

لَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ فِي ضَرُورَةِ التَّخْصُّصِ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الْمُثَقَّفَ يَرْفُضُ الْخُدُودَ وَالشُّدُودَ، وَيَسْتَبِيحُ لِنَفْسِهِ جَمِيعَ الْمَعَارِفِ؛ لِأَنَّهُ يُحِسُّ أَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا، وَأَنَّهُ يَنْمُو بِالْاِغْتِدَاءِ بِهَا. بَلْ هُوَ يَتَطَوَّرُ بِهَا، وَالتَّطَوُّرُ حَقٌّ، بَلْ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ.

فَنَحْنُ نَتَقَفُّ أَنْفُسَنَا كَيْ نَكْبُرَ شَخْصِيَّتَنَا، وَنُنَمِّيَ أَذْهَانَنَا، وَكَيْ نَتَطَوَّرَ، فَلَا نَمُوتَ فِي سِنِّ السَّبْعِينَ وَنَحْنُ عَلَى حَالٍ ثَقَافِيَّةٍ قَدْ اِكْتَسَبْنَا مِنْهَا مِنَ الْجَامِعَةِ أَوْ الْمَدْرَسَةِ فِي سِنِّ الْعَشْرِينَ أَوْ الْخَامِسَةِ وَالْعَشْرِينَ. بَلْ نَظْلُ عُمُرَنَا وَنَحْنُ فِي دِرَاسَةٍ، لَا تَقْتَأُ تَغْيِيرُنَا التَّغْيِيرَ الذِّهْنِيَّ وَالنَّفْسِيَّ؛ لِأَنَّهُ مِنْ دُونِ هَذَا التَّغْيِيرِ لَا يَتَطَوَّرُ الْمُجْتَمَعُ أَوْ الْفَرْدُ. بَلْ إِنَّ السَّعَادَةَ الشَّخْصِيَّةَ تَحْتَاجُ إِلَى الْإِحْسَاسِ بِالنُّمُوِّ وَالتَّغْيِيرِ وَالتَّطَوُّرِ. وَأَسَاسُ كُلِّ ذَلِكَ هُوَ الْفَهْمُ الَّذِي يُعَدُّ أَعْظَمَ أَنْوَاعِ السَّعَادَةِ.

إِنَّ التَّقَدُّمَ الْآلِيَّ الَّذِي يَشْهَدُهُ عَصْرُنَا قَدْ جَعَلَ خَطَرَ الْحُرُوبِ، بَلْ خَطَرَ الْاِسْتِغْلَالِ كَبِيرًا جَدًّا، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نَتَّقِيَهُمَا إِلَّا إِذَا جَعَلْنَا كُلَّ فَرْدٍ فِي أَنْحَاءِ الْعَالَمِ مُثَقَّفًا مُسْتَنِيرًا، يُمَيِّزُ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ الْمُرْشِدَةِ وَالِدَّاعِيَةِ الْمُضِلَّةِ. فَإِذَا أَلَمَمْنَا بِجَمِيعِ هَذِهِ الْاِعْتِبَارَاتِ أَمَكَّنَّا فِي حَقِّ وَصْدَقِ أَنْ نَقُولَ إِنَّ التَّثَقُّيفَ الذَّاتِيَّ هُوَ وَاجِبٌ دِينِيٌّ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ؛ لِأَنَّهُ الضَّمَانُ لِلْعَيْشِ الصَّالِحِ عَلَى هَذَا الْكَوْكَبِ.

الاقتدار الإنساني وبنائه*

يشكل مفهوم الاقتدار الإنساني أحد المحاور الكبرى لعلم النفس الإيجابي، ويتكوّن الاقتدار الإنساني من عددٍ من المَقوماتِ على مُختلفِ صُعدِ خصائصِ الإنسان وسلوكه، وإدارته لوجوده. كما أنّه يُمثّل الوجهَ النَّقيضَ لحالاتِ الاضطرابِ والقصورِ والعجزِ التي اهتمَّ بها علمُ النفسِ المَرَضِيّ. ويشكّل بناءُ الاقتدارِ إحدى الغاياتِ الكبرى لعلمِ النفسِ الإيجابيِّ.

تعني المفردةُ الإنجليزيَّةُ Human Strengths: الصِّفةُ أو الحالةُ من كَوْنِ الشَّخصِ أو الشَّيءِ قويًّا، بمعنى القدرةِ على التأثيرِ أو التَّحمُّلِ. كما تعني درجةُ قُوَّةِ التأثيرِ أو التَّركيزِ. وكلُّها تُصبُّ في الدَّلالاتِ التي نستخدمُها في علمِ النفسِ الإيجابيِّ. أمَّا عربيًّا فيردُّ في قاموسِ (مُحيطُ المُحيط) أنَّ (اقتدار) من الفعلِ اقتدرَ بمعنى جَمَعَهُ واستوعبَهُ وأمسَكَ بِهِ. والقدرةُ هي القُوَّةُ على الشَّيءِ والتمكُّنُ منه، ومنها اقتدرَ عليه أي قوِيَ عليه وتمكَّنَ منه. وهذا المعنى الدَّقِيقُ الذي نستخدمُه في هذا المَقامِ.

ولقد ملنا إلى اعتمادِ صيغةِ المُفردِ بدلًا من صيغةِ الجَمْعِ؛ لأنَّنا نهدفُ إلى الحديثِ عن عَمَلِيَّةِ بناءِ حالةِ كَيانِيَّةٍ لدى الإنسانِ يُمكنُ تلخيصُها في تعبيرِ «التمكينُ الوجوديُّ» في مُقابلِ القهرِ والهدرِ اللَّذَيْنِ يشكِّلانِ المَرَضِيَّينِ المُزْمِنِيْنَ اللَّذَيْنِ فُرِضا على الإنسانِ وأرغماه على الانكفاءِ إلى حالةِ العجزِ والاستسلامِ.

لقد أُمسى بناءُ الاقتدارِ الكُلِّيِّ للإنسانِ قضيَّةً مُلِحَّةً، إذا كُنَّا نطمحُ إلى أخذِ مكانةٍ وصناعةٍ مصيرٍ، في عالمِ راھنٍ يحكمُه قانونُ القُوَّةِ على جَمِيعِ الصُّعْدِ السِّياسِيَّةِ والاقتصادِيَّةِ والعسكريَّةِ والتَّقنيَّةِ، ويَتوجَّعُها جَمِيعُ القُوَّةِ المعرفِيَّةِ التي تُشكِّلُ مَنبَعَ كُلِّ القُوَى الأخرى ومُرتكزَها؛ فالعولمةُ بتنافُسيَّتها اللَّامحدودةِ، وتحوُّلاتُها المُتسارعةِ، وما تفرُّضُه من حالاتٍ عدمِ تأكُّدٍ، حيثُ كلُّ شيءٍ يتحوَّلُ بِسرعةٍ، وحيثُ المُستقبلُ يحملُ من المُفاجآتِ أكثرَ ممَّا يحملُ من يقينِ الاستقرارِ والاستمرارِ، وما يُسيِّرُ كلَّ عَمَلِيَّاتِها من قانونِ قُوَّةٍ لَمْ يَعدْ فيها مكانٌ للضعفاءِ والمُستكينين. الشَّبَابُ تحديداً وكلُّ شرائحِ مجتمعاتنا -عموماً- بحاجةٌ إلى

(*) من كتاب (إطلاق طاقات الحياة: قراءات في علم النفس الإيجابي)، مصطفى حجازي، 2012، التَّنَوُّرُ لِلطَّبَاعَةِ والنَّشْرِ، لبنان.

استرداد نشاط طاقاتها الحيّة وإطلاقها وبناء الاقتدار الكلّي.

وللاقتدار الكلّي للشخصيّة عددٌ من المقومات يأتي في أولها اللياقة الجسميّة، تليها الكفاءة النفسيّة المتمثلة في الاقتدار الشخصي الذي تعرّض فصول هذا العمل مختلف محاوره، مضافاً إليها الصّحة النفسيّة النّمايّة ومقوماتها المعروفة التي تُوفّر المتانة النفسيّة والقدرة على الانفتاح على العالم، والظّفر في التّعامل مع تحديات العولمة المتزايدة، سواءً للحصانة ضدّ آفاتِها وضغوطاتها وأزماتها، أم لامتلاك قدرات خوض غمار تحولاتها وفرضها غير المسبوقة ممّا يتطلّب الخروج من الحالة الطفيليّة والتّبعيّة، وإبداء القدرة الأكبر من اللياقة التّكيّفيّة.

ويحتلّ الاقتدار المعرفي مكانة بطل السّاحة في عصر العولمة، كما أنّه يشكّل الضّمان الثّابت الأكيد لخوض غمار المنافسة؛ فقد حلّ الاقتدار المعرفي محلّ قوّة المال والموارد الأوّليّة وغيرها من القوّة؛ إذ أنّه هو الذي يشكّل العنصر الموجّه لها، وصانع فاعليّتها جميعها. إنّهُ المصدّر المتنامي وغير القابل للنّضوب أو التّراجع أو الانتكاس. والاقتدار المعرفي يُحصّل ويصنّع، فلا هو ينزل من السّماء، ولا هو يوهب، بل يقوم على الجدارة والجهد الدّائمين. إنّ قصب السّبق في مختلف مناحي الحياة المعاصرة، في المال والأعمال كما في التّقنيّات، يقوم على قوّة المعرفة، أو ما أسميناهُ الاقتدار المعرفي الذي يكمن في كسر الحُدود والقيود أمام انطلاق الأفكار وتجاوز التّقليديّ والمألوف، وفي النّظر والمنهج والممارسة وامتلاك التّقنيّات. وبالطّبع فإنّ التّفكير الإيجابي والتّفاؤل والأمل الفعّال تُشكّل معاً مكونات قاعدية في ممارسة الاقتدار المعرفي.

ويضاف إلى ما سبق على الاقتدار الكلّي للشخصيّة الجدارة المهنيّة التي تُشكّل جواز العبور الأكيد والمضمون إلى العضويّة الاجتماعيّة الكاملة من خلال الجودة والنّوعية والتّنافس. وسيكون جيل الشّباب أمام تحدّ فعليّ لإثبات جدارته من خلال بناء اقتداره المهنيّ. إنّنا بصدد بناء الجدارة، أي الحالة النّقيض تماماً لحالة العجز والهدر، أو حالة رضاغة المغنم من خلال التّبعيّة للعصبيّة والعشيرة.

ويشكّل الاقتدار الاجتماعيّ أو الكفاءة الاجتماعيّة الركن الخامس من الكفاءة الكلية للشّخصيّة التي يُطلق عليها -أحياناً- الذّكاء الاجتماعيّ، والتي أصبحت -بما تتضمّنه من

مهارات - من المؤهلات الأساسية لدخول عالم العمل والنجاح فيه، في عصر الأسواق المفتوحة وتبادل التفاعل. إن مهارات التفاعل في عصر التنوع الثقافي، كلها أصبحت من متطلبات الاقتدار في عصر العولمة، عالمياً ومحلياً على حد سواء؛ فقد انتهى عصر العزلة والمجتمعات الضيقة المغلقة على ذاتها، والشباب هو من حيث التعريف ابن العولمة واللاعب الأساس فيها، ولذا فلا بُد من تنمية اقتداره الاجتماعي.

وتستكمل مقومات الاقتدار الكلي للشخصية برسوخ الهوية والانتماء؛ فكل اقتدار وفاعلية يندرجان بالضرورة ضمن الانتماء والهوية اللذين يتحقق رُسوخهما بالمواطنة المشاركة في تحمل المسؤولية الوطنية، فالهوية هي ما نصنعُه بحياتنا ومسيرنا، وما نُقدِّمُه من إنجازات، وليس مجرد التّغني بأمجاد الأجداد؛ فالأُمم الناهضة والرائدة تُحدد هويتها بما تُنجز من إبداعات، وما تُقدِّمُه للإنسانية من أسباب التّقدم ووسائله.

وتُشكل الحصانة الخلقية أحد أهم أوجه اقتدار الشخصية، ولقد أصبحت ملحة أكثر من أي وقت مضى مع ما حملته العولمة من آفات وأوجه مُظلمة، فالمناعة الخلقية - وحدها - هي التي تُشكل الحماية الحقيقية من هذه الآفات. وهنا أيضاً لا تقوم حصانة خلقية إلا على أوجه الاقتدار والاعتزاز بالقدرات والإمكانات والإنجازات التي تُعطي الذات معناها وقيمتها ومكانتها. ولا تقوم على الإفراط في الحظر والحجر والمنع والتأثير التي تُقيد الطاقات الحية، فلقد أصبح معروفاً أن التخويف والزواجِر والروادع لا تُشكل حصانة خلقية؛ إذ إنها سرعان ما تتهاوى أمام تحديات الإغراءات، بينما يُوفر التمكين الذاتي احترام الذات وتقديرها، وهذا أهم مقومات الحصانة.

لقد أصبح بناء الاقتدار أكثر إلحاحاً بمقدار تزايد ضغوط العولمة وتحدياتها التي تُهددنا أن ندخل في التبعية. إن كل مقومات الاقتدار الإنساني هي قدرات تبنى من مشاريع صناعة الكيان، وبالتالي فإنها تتوقف على جهودنا وتعظيمنا لفرصنا.

أَيُّ النَّاسِ أَسْعَدُ؟ وَكَيْفَ تَحْصُلُ عَلَى السَّعَادَةِ؟*

هَلْ تُصْبِحُ أَسْعَدَ حَالًا، لَوْ أَنَّكَ كُنْتَ أَلَمَعَ ذَكَاءٍ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ؟ أَوْ لَوْ أَنَّكَ لَسْتَ مُضْطَرًّا إِلَى أَنْ تَبْدُلَ فِي عَمَلِكَ الْجُهْدَ الَّذِي تَبْذُلُهُ؟ أَتَعْرِفُ أَيَّ طَبَقَاتِ النَّاسِ أَوْفَرَ سَعَادَةً مِنْ سِوَاهَا؟ لَقَدْ عُنِيَتْ نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ النَّفْسِ وَالاجْتِمَاعِ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ فِي كُبَرَيَاتِ الْجَامِعَاتِ بِإِجْرَاءِ أبحاثٍ فِي السَّعَادَةِ مِنْ زَوَايَا شَتَّى، فَانْتَبَهُوا إِلَى آراءِ وَأحكامٍ جَمَعَتْ بَيْنَ الْفَائِدَةِ وَالْمُنْعَةِ وَالطَّرَافَةِ. وَمَعَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُرْشِدوكَ إِلَى السَّعَادَةِ مِنْ طَرِيقٍ مُحددٍ الْمَعَالِمِ، وَاضِحٍ الْمَسَالِكِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُزَوِّدوكَ بِنصائحٍ وَمَشُورَةٍ، تُعِينُكَ عَلَى الْإِهْتِدَاءِ إِلَى تِلْكَ الضَّالَّةِ الْمَنْشُودَةِ مِنْذُ قَدِيمِ الْأَزَلِ.

فَهَلِ السَّعَادَةُ فِي الْعَمَلِ أَوْ فِي الرَّاحَةِ؟ هَلْ تَكُونُ أَسْعَدَ حَالًا، لَوْ أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ مُضْطَرًّا إِلَى أَنْ تَبْدُلَ فِي عَمَلِكَ الْجُهْدَ الَّذِي تَبْذُلُهُ؟ الْأَرْجَحُ، أَنَّكَ لَنْ تَكُونَ أَسْعَدَ حَالًا، فَقَدْ ثَبَتَ مِنَ الدَّرَاسَاتِ الَّتِي اضْطَلَعَ بِهَا الْعَالِمُ الْاجْتِمَاعِيُّ «جَاتسون لاندنيس» أَنَّ النَّاسَ أَذْنَى إِلَى أَنْ يَكُونُوا أَهْنَأَ بَالًا عِنْدَمَا يَكُونُونَ أَشَدَّ انْهَمَاكًا فِي الْعَمَلِ، وَانْكِبَابًا عَلَيْهِ. كَمَا دَلَّتِ اسْتِقْصَاءَاتُ أُخْرَى عَلَى أَنَّ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَتَطَلَّعونَ إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي يُتَاحُ لَهُمْ فِيهِ أَنْ يَعْتَزِلُوا الْعَمَلَ، لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يُحَسِّسُوا بِخَيِّبَةِ الْأَمَلِ عِنْدَمَا تَتَحَقَّقُ لَهُمْ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةُ. وَدَلَّتْ أَيْضًا عَلَى أَنَّ مُعْظَمَ النَّاسِ يُضْجِرُّهُمْ الْفَرَاغُ، وَيُضَايِقُهُمُ الْإِخْلَادُ إِلَى الرَّاحَةِ، أَكْثَرَ مِمَّا يُسَعِدُهُمْ. وَقَدْ قَامَتِ الْأَدِلَّةُ عَلَى أَنَّ أَسْعَدَ النَّاسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ هُمُ أَقْلُهُمْ فَرَاغًا.

وَهَلْ تَخْتَلِفُ السَّعَادَةُ بِاخْتِلَافِ الْجِنْسِ؟ أَيُّ الْجِنْسَيْنِ أَسْعَدُ: الرِّجَالُ أَمْ النِّسَاءُ؟ قَدْ تَبَدُّو النَّتَائِجُ الَّتِي أَسْفَرَتْ عَنْهَا دِرَاسَاتُ الطَّبِيبِ النَّفْسَانِيِّ الْمَعْرُوفِ «دافيد. هـ. فينك» مُفَاجِئَةً لَكَ؛ فَقَدْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ النِّسَاءَ أَقْدَرُ مِنَ الرِّجَالِ عَلَى اسْتِيعَابِ السَّعَادَةِ وَالتَّعَاسَةِ كُلَّتَيْهِمَا. وَدَلَّتْ بُحُوثٌ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا تَوَافَرَ لَهَا حَظٌّ مُنَاسِبٌ مِنْ مُقَوِّمَاتِ حَيَاتِهَا كَانَتْ أَسْعَدَ مِنَ الرَّجُلِ بِمَا لَا يُقَاسُ، وَأَنَّهَا إِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهَا الدُّنْيَا تَجَشَّصَتْ مِنَ التَّعَاسَةِ وَالبُؤْسِ وَالْحُزَنِ أَضْعَافَ مَا يَتَجَشَّصُهُ الرَّجُلُ. وَقَدْ آيَّدَتْ نَتَائِجُ هَذِهِ الْبُحُوثِ دِرَاسَاتٌ أُخْرَى أَثْبَتَتْ أَنَّ لِلْمَرْأَةِ مَشَاعِرَ أَرْقُ مِنْ مَشَاعِرِ الرَّجُلِ، وَأَنَّهَا أَمِيلٌ إِلَى الْإِنْسِيَاقِ وَرَاءَ الْعَوَاطِفِ.

وَلِنَنْظُرِ الْآنَ إِلَى عِلَاقَةِ الذِّكَاةِ بِالسَّعَادَةِ؛ فَهَلْ صَحِيحٌ أَنَّ مَنْ كَانَ مُسْتَوًى ذِكَاةً مُرْتَفِعًا يَكُونُ أَسْعَدَ مِنْ غَيْرِهِ؟ الْإِجَابَةُ هِيَ لَا؛ فَقَدْ أَسْفَرَتِ الْبُحُوثُ عَلَى أَنَّ الْعَكْسَ هُوَ الصَّحِيحُ، فَالْدِّرَاسَاتُ الَّتِي أَشْرَفَتْ عَلَيْهَا جَامِعَةُ «أُوْهَايُو وَسِيلِيَان» وَكَانَ طَلَبَتُهَا أَنْفُسُهُمْ هُمْ مَوْضُوعُ هَذِهِ الدِّرَاسَاتِ، ذَلَّتْ عَلَى أَنَّ الطَّلَبَةَ الْحَازِزِينَ عَلَى دَرَجَاتِ ذِكَاةٍ أَعْلَى مِنْ الْمُتَوَسِّطِ أَقَلَّ سَعَادَةً مِنْ زُمَلَانِهِمُ الْحَاصِلِينَ عَلَى دَرَجَاتِ ذِكَاةٍ مُتَوَسِّطَةٍ. وَفِي تَعْلِيلِ ذَلِكَ ذَهَبَ الْبَاحِثُونَ إِلَى أَنَّ الْأَذْكِيَاءَ أَرْهَفُ إِحْسَاسًا بِمَا يَكْتَنِفُ الْحَيَاةَ مِنَ الْمُنْغَصَّاتِ، وَأَدْقُ تَقْدِيرًا فِي وَزَنِ الْأُمُورِ، وَتَدَبُّرِ الْعَوَاقِبِ. وَكَشَفَتْ دِرَاسَاتُ أُخْرَى قَامَتْ بِهَا كُليَّةُ الطَّبِّ بِجَامِعَةِ كَالِيفُورْنِيَا عَنْ أَنَّ ذَوِي الذِّكَاةِ فَوْقَ الْمُتَوَسِّطِ يَكُونُونَ أَقَلَّ اسْتِعْدَادًا لِلتَّكْيُفِ مَعَ الْمُضَاقَاتِ وَالْخِيَابِ وَشَتَّى أَلْوَانِ الشَّدَائِدِ وَالضَّائِقَاتِ الَّتِي يَلْقَوْنَهَا فِي مُجْرِيَاتِ حَيَاتِهِمُ الْيَوْمِيَّةِ. وَقَدْ اتَّضَحَ مِنْ هَذِهِ الدِّرَاسَاتِ أَنَّ الْأَذْكِيَاءَ أَقَلُّ رِضًى وَقَنَاعَةً بِحُظُوظِهِمْ فِي الْحَيَاةِ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ أَذْنَى مِنْهُمْ ذِكَاةً. وَلَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، بَلْ هُمْ -إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ- إِذَا أُصِيبُوا بِاضْطِرَابَاتٍ عَاطِفِيَّةٍ أَوْ بَدْنِيَّةٍ كَانُوا أَبْطَأَ مِنْ هَؤُلَاءِ شِفَاءً.

هَنَّاكَ أُمُورٌ لَا حَصَرَ لَهَا يُمَكِّنُ أَنْ يُبَحِّثَ فِي عِلَاقَتِهَا بِالسَّعَادَةِ وَتَأْثِيرِهَا فِي إِحْسَاسِ الْإِنْسَانِ بِالرِّضَا، كَالْجَمَالِ، وَمُمَارَسَةِ الرِّيَاضَةِ، وَالتَّفَاوُلِ وَغَيْرِهَا. وَلَكِنْ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْأَمْرِ مِنْ مَنَظُورِهِ الْوَاسِعِ، وَتَسَاءَلْنَا مَا خَيْرٌ وَسِيلَةٍ لِلظَّفَرِ بِالسَّعَادَةِ؟ فَإِنَّ مُعْظَمَ الدِّرَاسَاتِ فِي هَذَا الشَّأْنِ تَقُولُ: إِنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى الظَّفَرِ بِالسَّعَادَةِ إِذَا التَّمَسَّتْهَا بِالْبَحْثِ عَنْهَا، وَإِنَّمَا سَبِيلُكَ إِلَى نَيْلِهَا هُوَ أَنْ تَجْعَلَهَا تَلَحُّقُ بِكَ؛ بِأَنْ تُثَابِرَ عَلَى الْعَمَلِ فِي جِدِّ وَدَأْبٍ، وَلَا تَدَّخِرَ وَسْعًا فِي أَدَاءِ وَاجِبِكَ، وَأَنْ تَعِيشَ حَيَاتَكَ عَلَى أَحْسَنِ مَا فِي مُسْتَطَاعِكَ، وَأَنْ تَرْضَى بِمَا هُوَ فِي يَدَيْكَ، وَلَا تَأْسَفَ عَلَى مَا فَاتَكَ، وَأَنْ تُدْرِكَ إدْرَاكًا عَمِيقًا أَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ تَحْقِيقَ السَّعَادَةِ لِغَيْرِكَ، مَا لَمْ تَتَلَأَّلْ إِشْرَاقَةَ السَّعَادَةِ عَلَى وَجْهِكَ، وَأَنْ تُصْغِيَ إِلَى مَشُورَةِ ذَلِكَ الصَّوْتِ الْهَادِي الضَّئِيلِ الْجَمِيلِ، الْمُنْبَعِثِ مِنْ أَعْمَاقِكَ الَّذِي يُسَمَّى الضَّمِيرَ، أَوِ الْوَجْدَانَ، أَوِ الشُّعُورَ الْبَاطِنِيَّ، وَأَلَّا تَصْرِفَ كُلَّ هَمِّكَ إِلَى الْأُمُورِ الْمَادِيَّةِ، فَتُثْلِهِيكَ عَنْ تَنْمِيَةِ ثَرَوَتِكَ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَدَاتُكَ لِتَحْقِيقِ طُمَأْنِينَةِ الْفِكْرِ، وَسُكُونِ النَّفْسِ، وَرَاحَةِ الْبَالِ.

المعنى السياسي في العيد

مصطفى صادق الرافعي



تمّ ترشيح هذا النص من قبل الطالبة فاطمة عبدالله احمد عبدالله اليماني
مدرسة الماسة للتعليم الثانوي للبنات في الفجيرة.

ما أشد حاجتنا نحن -المسلمين- إلى أن نفهم أعيادنا فهمًا جديدًا، نتلقاها به ونأخذها من ناحيته، فتجيء أيامًا سعيدة عاملة، تنبه فينا أوصافها القوية، وتجدد نفوسنا بمعانيها، لا كما تجيء الآن كالحلة عاطلة ممسوحة من المعنى، أكبر عملها تجديد الثياب، وتحديد الفراغ، وزيادة ابتسامة على النفاق.

فالعيد إنما هو المعنى الذي يكون في اليوم لا اليوم نفسه، وكما يفهم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم؛ وكان العيد في الإسلام هو عيد الفكرة العابدة، فأصبح عيد الفكرة العابثة؛ وكانت عبادة الفكرة جمعتها الأمة في إرادة واحدة على حقيقة عملية، فأصبح عبث الفكرة جمعتها الأمة على تقليد بغير حقيقة؛ له مظهر المنفعة وليس له معناها.

ليس العيد إلا إشعار هذه الأمة بأن فيها قوة تغيير الأيام، لا إشعارها بأن الأيام تتغير؛ وليس العيد للأمة إلا يومًا تعرض فيه جمال نظامها الاجتماعي، فيكون يوم الشعور الواحد في نفوس الجميع، والكلمة الواحدة في ألسنة الجميع؛ يوم الشعور بالقدرة على تغيير الأيام، لا القدرة على تغيير الثياب.

وليس العيد إلا تعليم الأمة كيف تتسع روح الجوار وتمتد، حتى يرجع البلد العظيم وكأنه لأهله دار واحدة يتحقق فيها الإخاء بمعناه العملي، وتظهر فضيلة الإخلاص مستعلنة للجميع، ويؤدي الناس بعضهم إلى بعض هدايا القلوب المخلصة المحبة؛ وكأنما العيد هو إطلاق روح الأسرة الواحدة في الأمة كلها.

وليس العيد إلا إبراز الكتلة الاجتماعية للأمة متميزة بطابعها الشعبي، مفصولة من الأجانب، لا بسة من عمل أيديها، معلنة بعيدها استقلالين في وجودها وصناعتها، ظاهرة بقوتين في إيمانها وطبيعتها، مبتهجة بفرح حين دورها وأسواقها؛ فكأن العيد يوم يفرح الشعب كله بخصائصه.

وليس العيد إلا التقاء الكبار والصغار في معنى الفرح بالحياة الناجحة المتقدمة في طريقها، وترك الصغار يلقون درسهم الطبيعي في حماسة الفرح والبهجة، ويعلمون كبارهم كيف توضع المعاني في بعض الألفاظ التي فرغت عندهم من معانيها، ويُبصرونهم كيف ينبغي أن تعمل الصفات الإنسانية في الجموع عمل الحليف لحليفه، لا عمل المنافذ لمنابذه؛ فالعيد يوم تسلط العنصر الحي على نفسية الشعب.

وليس العيد إلا تعليم الأمة كيف توجه بقوتها حركة الزمن إلى معنى واحد كلما شاءت؛ فقد وضع لها الدين هذه القاعدة لتُخرج عليها الأمثلة، فتجعل للوطن عيداً مالياً اقتصادياً تبسم فيه الدراهم بعضها إلى بعض، وتخترع للصناعة عيدها، وتوجد للعلم عيد، وتبتدع للفن مجالاً زينتته.

هذه المعاني السياسية القوية هي التي من أجلها فرض العيد ميراثاً دهرياً في الإسلام، ليستخرج أهل كل زمن من معاني زمنهم فيضيفوا إلى المثال أمثلة مما يبدعه نشاط الأمة، ويحققه خيالها، وتقتضيه مصالحها.

الأعمدة الصحفية



العمود الصحفي

يعدّ العمود الصحفيّ من أكثر أشكال الكتابة الصحفية انتشاراً، ومقروئية؛ وذلك لأنه يجمع بين قصر المساحة وواقعية القضايا التي يتحدث عنها، وملاصقتها لمشكلات المجتمع، وقضايا الناس.

ولذلك فالعمود الصحفيّ من أهم المصادر التي تمنح القارئ فكرة واسعة عن طبيعة المجتمع، وأهم قضاياها الحيويّة، فهو يشبه المرآة في أنه يعكس ما تمر به الحياة في مجتمع من المجتمعات في فترة زمنية معينة.

ويمكن تعريف العمود الصحفيّ بأنه نوع خاص من نصوص الرأي، ينشر بانتظام في صحيفة أو مجلة في مكان ثابت، وتحت مسمى ثابت، وبمساحة ثابتة لا تتغير، ويعبر عن فكر كاتبه، وشخصيته، وتوجهاته، ويكون الهدف منه -في الغالب- توعية القراء، أو مناقشة فكرة أو قضية يراها الكاتب مهمة.

ولعلّ أكثر ما يميّز به العمود الصحفيّ أنه ملتصق بكاتبه، يُسمّى باسمه في الغالب، ولذلك تكتسب الأعمدة الصحفية مكانتها من مكانة كاتبها، وما اشتهر به من فكريّ، وموضوعية في عرض القضايا ومناقشتها، وامتلاك لخاصية اللغة وأسرارها. ولذلك صار من المتعارف عليه في عالم الصحافة والنشر أنّ العمود الصحفيّ يعبر عن رأي كاتبه، وليس شرطاً أن يعبر عن موقف الصحيفة.

ولذلك يعرف بعضهم العمود الصحفيّ بأنه «حوار شخصي بين كاتبٍ وقُرّائه، يعبر الكاتب من خلال هذا الحوار عن اتجاهاته النفسية، ومكنوناته الداخلية، ويبدو واقعياً وصريحاً وذاتياً، ويروي ذكرياته وخبراته وتجاربته، ويقدم نصائحه» .

وبسبب ارتباط العمود الصحفيّ بكاتبه، وانتظامه في الظهور في الصحيفة أو المجلة كل يوم أو كل أسبوع فإنّ نوعاً من علاقة المودة والتقدير تنشأ بين الكاتب وقرائه، خاصة حين يحرص الكاتب على المصادقية في الطرح، والموضوعية في المعالجة، وأن يكون عادلاً وصادقاً، وأميناً وحريصاً على أن ينقل للقراء خلاصة تجربته أو فكره من دون تحيز أو ميل.

وأهم سمات العمود الصحفي أنه يعبر عن فكرة واحدة مركزة، وأنه ينقل للقارئ خلاصة تجربة الكاتب، ومواقف مرّ بها انطلاقاً إلى الفكرة التي يود الكاتب أن يعبر عنها ويقنع القارئ بها. وغالباً ما يستعين الكاتب فيه بالأقوال والحكم والأمثال والاقتباسات.

ويمكن تقسيم الأعمدة الصفحية إلى نوعين كبيرين، هما:

1. الأعمدة المتخصصة: وهي التي يقتصر اهتمامها على مجال واحد فقط، كالمجال السياسي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي، أو الثقافي، أو الرياضي، أو الفني.
2. الأعمدة العامة: وهي التي يكتب صاحبها في معظم القضايا، وينوّع في الموضوعات التي يتناولها.

أما من حيث اللغة وأسلوب التناول فإنّ الأعمدة تتنوّع بتنوّع كتابها، فبعضهم يعتمد الأسلوب الجاد الرصين، وبعضهم يميل إلى الأسلوب الساخر، وبعضهم يميل إلى الافتتاح بالأسئلة، وبعضهم يجذب البدء باقتباس أو ذكر موقف شخصي. وعلى الرغم من أنّ باب الاختلاف والتنوّع مفتوح على مصراعيه للكاتب إلا أنّه يفضّل أن تكون لغة الكتابة لغة بسيطة، تعتمد على الجمل القصيرة، وتبتعد عن التعقيد والتفعر؛ لأنها موجهة -في الغالب- لكل شرائح المجتمع. ومع ذلك فإنّ التمسك بأصول الكتابة، والحرص على التدقيق والصحة اللغوية يعدّ أمراً يميّز كاتباً عن كاتب.

إنّ قراءة الأعمدة الصحفية ومتابعتها عن كثب تزيد من وعي القارئ، وتكشف له الكثير مما يحدث في مجتمعه، وتجعله على علم بمجريات الأمور، وتضعه أمام تنويعات من وجهات النظر والأفكار والتجارب.

صديقي الهاتف! عائشة سلطان

أنصتُ إلى مجموعةٍ من الرجال يتحلّقون حول طاولةٍ بأحد المطاعم الفاخرة بالمدينة، يركّز كل واحدٍ منهم عينه في هاتفه النقال، يتسمون جميعاً للشاشات وليس لبعضهم، يضحك أحدهم فينظرُ إليه الآخرون فجأةً، لا يُعيرُهُم اهتماماً، ويواصل ضحكاً طويلاً لا أحد يعرفُ سببه، وحده الهاتفُ يعرفُ، بين وقتٍ وآخر يقول أحدهم لرفاقه «يا جماعة مَلَل، اتركوا (الموبايلات) دعونا نتحدّث»، يستقبل رفاقه العبارة بلا تأثرٍ ويكملون مع (الموبايل)!!

أستمعُ إلى مجموعةٍ من الفتيات اتفقن فيما بينهنّ - على ما يظهر - على قضاء وقتٍ لطيفٍ بصحبة بعضهنّ في أحد محلات بيع المثلجات، دخلنَ بمرحٍ، جميلات، أنيقات، وتنفوخُ منهنّ رائحةُ الرفاهية، جلسنَ في ركنٍ قصيٍّ، سريعاً اندست أيديهنّ في حقائبهنّ الباذخة وأخرجنَ الهواتف، وبدأت الحكاية نفسها، في عالم الهاتف لكل واحدةٍ منهنّ حكايتها، رفاقها، صديقاتها، (جروباتها)، وعوالمها الافتراضية الحميمة، تلك واحدةٍ من مُسلّمات واقعنا، وإذن فلماذا يتفق الأصدقاء على اللقاء لقضاء وقتٍ لطيفٍ بصحبة بعضهم طالما هناك صديقٌ أهمُّ يستحوذُ على الوقتِ كُلِّه؟

حكاية العلاقة الغريبة التي أصبحت تربطُ معظمنا بهاتفه ليست مجرد حكاية عابرة، ليست بسيطةً أو تافهةً كما نعتقد. إنها حكايةٌ جادةٌ وقد تصلُ إلى اعتبار الهاتف صديقاً حقيقياً بديلاً، صديقاً مُنفهماً وحميماً ومريحاً، لا تضحكوا! فحين سألت مجموعةٍ من الطُّلاب والطَّالبات في دورةٍ تدريبيةٍ عن الشخص أو الشيء الذي لا يُمكنهُم الحياة دونهُ أو الاستغناء عنه، كنتُ أتمنى أن يكونَ الجوابُ: عائلتي، أصدقائي، أمي، جيرياني،... لكنني كما توقّعتُ كانَ الجوابُ هو: (الموبايل)!! لكن لماذا (الموبايل)؟ قال أحدهم: لأنّه يفهمني أكثرَ من أيِّ شخصٍ آخر، يُعطيني كلَّ ما أريدُ وبسهولة، لا

يُلْزِمُنِي بِأَيِّ شَيْءٍ، إِنَّهُ صَدِيقٌ مُرِيحٌ وَمُفِيدٌ وَغَيْرُ مُتَطَلِّبٍ، الصَّدِيقُ مُتَطَلِّبٌ وَالْعَائِلَةُ
مَسْؤُولِيَّةٌ، وَالْجِيرَانُ عِبَاءٌ!! بَيْنَمَا (الموبايل) لَا يَجْعَلُنِي أَحْتَاجُ لَأَيِّ شَيْءٍ عِنْدَمَا يَكُونُ
مَعِي!

تَسَاءَلْتُ بَعْدَ أَنْ تَرَكْتُهُمْ: هَلْ لِدَافِكَ عِلَاقَةُ بِالْعُمُرِ، فَهَؤُلَاءِ - أَيَّا تَكُنْ أَعْمَارُهُمْ - صَغَارٌ
بِلَا تَجْرِبَةٍ وَمَزْهَوُونَ بِالحياةِ وَبطريقةِ نَظَرَتِهِمْ لَهَا؟ أَمْ أَنَّ السَّبَبَ يَعُودُ إِلَى انْعِدَامِ
الْحِوَارِ وَاللُّغَةِ الْمُشْتَرَكَةِ وَالْحَمِيمَةِ بَيْنَ المُرَاهِقِينَ وَأُسْرِهِمْ، وَبَيْنَ الطُّلَابِ وَمُعَلِّمِيهِمْ،
وَبَيْنَ البَنَاتِ وَأُمَّهَاتِهِنَّ وَبَيْنَ مُعْظَمِ النَّاسِ فِي المُجْتَمَعِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؟ إِنَّ الرُّكُونَ إِلَى
الصَّمْتِ بِصُحْبَةِ الهَاتِفِ يَقُودُنَا إِلَى عِلَاقَاتٍ غَيْرِ مُحَايِدَةٍ وَمَنْقُوصَةٍ أَوَّلًا، وَإِلَى أَشْخَاصٍ
مَتَوَحِّدِينَ يُمَكِّنُ الإِيْقَاعُ بِهِمْ ثَانِيًا!! القِضِيَّةُ هِنَا لَيْسَتْ فِي مُوَاقِبَةِ ثَوْرَةِ التَّقْنِيَّةِ، وَلَكِنَّهَا
فِي تَحَوُّلِ مَفَاهِيمَ عَمِيقَةٍ فِي العِلَاقَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ!!

الشباب سفراء الإمارات*

ميساء غدير

جميعنا نعلم أن النسبة الأكبر من سكان دولة الإمارات هم من الشباب، وهؤلاء الشباب هم قادة المستقبل الذين يعوّل عليهم في التنمية والتطوير، وهو ما يستدعي احتواءهم وتوجيههم والاستثمار الأمثل فيهم، ليكونوا قادرين على تحمّل المسؤولية تجاه أنفسهم ومجتمعهم ووطنهم.

منذ يومين استقبل الفريق أول صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، مجموعة من الشباب والشابات الإماراتيين الذين أنهوا زيارة قاموا بها إلى الصين وكوريا الجنوبية ضمن برنامج «سفراء شباب الإمارات» الذي يُنظّم برعاية ديوان ولي عهد أبوظبي، ويهدف إلى تطوير الإمكانيات والمهارات العلمية والثقافية والقيادية للطلبة الجامعيين.

عرّض الشباب خلال هذا الاستقبال الأنشطة والبرامج والأعمال التي قاموا بها خلال الزيارتين، وأهم المعالم والجهات التي زاروها، والمشاريع التي تمّ تنفيذها في أثناء رحلتهم العلمية والتأج التي خرجوا بها، وناقشهم سموه في كلّ ما قدموه، وأكد لهم أن برنامج «سفراء شباب الإمارات» الذي انطلق بتوجيهات صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة، حفظه الله، لم يوضع إلا لدعمهم وتمكينهم.

اعتبار الطلبة الجامعيين من أبناء الإمارات سفراء للشباب، مدعاة للفخر ولتحمّل المسؤولية معاً، فالطالب الجامعي عندما يجد أن دولته تُصمّم وتُخطّط وتُنظّم له برامج هادفة يمثّل فيها وطنه في الخارج، ويتواصل من خلالها مع شعوب وثقافات أخرى، يدرك أنه أولوية، ويدرك حجم المسؤوليات الكبرى المُتَظَرّة منه مُستقبلاً، والتي تستوجب منه تطوير معرفته ومهاراته وتحقيق المزيد من الانضباط، دون الاعتماد على البرامج الدراسية وحدها.

حديث الفريق أول صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد مع سفراء الإمارات من الشباب، لم يترك أثراً في المنضمين لهذا البرنامج فحسب، بل تجاوزهم إلى غيرهم من الطلاب والطالبات الذين وجدوا أنفسهم يتحملون مسؤوليات دبلوماسية بصفة غير رسمية، لتمثيل دولة الإمارات من خلال ما يُدونه من سلوكيات، وما يكتسبونه من معارف لا بد من البناء عليها لمواصلة مسيرة الإنجازات والنجاحات، ومن خلال قراءتهم للواقع ومجريات الأحداث فيه.

للسباب أدوار لا يمكن إغفالها، وما التغييرات التي يشهدها العالم العربي إلا شاهد على فكرهم وإرادتهم، وهو ما دعا الفريق أول صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد «سفراء شباب الإمارات» للتمعن فيه، من خلال استقراء واقع المنطقة والمخاطر فيه، والاعتزاز بالانتماء العربي والإسلامي، والأهم من ذلك كله الاستفادة من التحديات في واقعنا، دون أن نغفل عن واجبنا جميعاً في الإبقاء على الإمارات قُدوةً حسنةً للآخرين.

نتمنى بالفعل أن يكون شباب الإمارات سفراء لوطنهم، وأن يبقوا كما عهدناهم متحمّلين للمسؤولية، فالوطن يُعوّل عليهم ويتنظر منهم الكثير، لأنهم عماد المستقبل، والحاضر يسعى لتمكينهم.

يوجعني نصف الإنسان صالحة عبيد

«أوجعك البرد؟ .. أنا يوجعني نصف الدفء ونصف الموقف أكثر» .. أتذكر دائماً هذا البيت للشاعر العراقي (مظفر النواب) كلما أتى أي حديث على ذكر أنصاف الأشياء .. تماماً كما أتذكر اللبناني (جبران خليل جبران) يوم كتب «لا تجالس أنصاف العشاق، ولا تصادق أنصاف الأصدقاء، لا تقرأ لأنصاف الموهوبين، لا تعيش نصف حياة، ولا تمت نصف موت، لا تختزن نصف حل، ولا تقف في منتصف الحقيقة، لا تحلم نصف حلم، ولا تتعلق بنصف أمل، إذا صمت .. فاصمت حتى النهاية، وإذا تكلمت .. فتكلمت حتى النهاية».

وتلح علي هذه الكلمات بشدة كلما تأملت حال كل أولئك الذين يتحدثون عن القراءة باستمرار دون أن أحد أنهم فعلاً يخرجون بما يعول عليه فكرياً من تلك القراءات، وأعني بـ «فكرياً» هنا هو ذلك التغيير الواعي الذي يخرج الكتاب من جموده، ليصبح بشرياً من لحم ودم، ذلك البشري هو القارئ الذي يمر بما يقرأ على معمل الاستيعاب والاستنتاج، ومن ثم محاولة التغيير التي تتعدى الفرد إلى ما حوله ومن حوله، ومن دون الشرط الأول لا يحدث الثاني.

من هو القارئ؟ هل هو شخص مطمئن مستكين لأنه يعرف كثيراً؟ أم هو ذلك القلب المهموم جرأ حمل المعرفة الثقيل؟

لا أعلم تحديداً إن أمكننا حصره بتعريف واحد بين حالتين .. لكنني قد أقول إن القارئ، هو الذي يقرأ ليريد أن يفعل شيئاً، ليقول شيئاً، ولينتج شيئاً كاملاً، وليس نصفاً، وذلك بما يتوافق مع ما تراكم في قلبه وعقله، من أسماء وأوراق وأحداث وتواريخ وجغرافيا. وهو أيضاً ذلك الذي يعرف أن المساحة الرمادية التي تغطي العالم بكليته، هي أكبر من عالمي الشر والخير اللذين يصوران الحياة حوله نحو الموت والخرائب. وإذا لم تقده تلك المعرفة إلى نبذ الموت والتدمير والتعصب بكل أشكاله المادية والمعنوية، فإنه - على ما أظن - ليس أكثر من نصف قارئ، نصف إنسان.

هل هناك بداية معينة لتصبح قارئاً؟ هل هناك قارئ فطري وآخر لا؟ لماذا تجد كثيراً من

الذين يُطالبون الآخرين باعتبارهم قُراءً مشروعين اختيارَ قوائمٍ ليدؤوا بقراءتها؟ وهل هذه القوائم تُحفزُ فعلاً؟.. هذه الأسئلة وغيرها جاءت الإنجليزية «فيرجينيا وولف» لتبسّط عقدها لي، في مقالٍ طويلٍ حول القراءة والكتابة، أقتطعُ منه «النصيحة الوحيدة التي يستطيع أن يُسديها شخصٌ لآخر حول القراءة هي ألا يتبع أي نصيحة، أن تتبع حواسك، أن تستخدم عقلك، وأن تتوصل إلى استنتاجاتك الخاصة»..

فالأفكارُ كثيرًا ما تُشبه البصمات الجينية. لكل شخص في الوجود قلقه وأسئلته ومخاوفه. إنها، أي الأفكار، التي تقودنا للقراءة لا تُباع على الأرْفَف، ولا تُعرض في واجهات محال الأزياء، إنها تُبع من مكانٍ ما عميقٍ بداخلك حيث تبرز المعرفة كعلامة استفهام ضخمة، أو كشجرة بلا أوراقٍ تنتظر منك ريثما مُستمرًا، واستمرارك بطلب النصيحة من الآخرين مرارًا، دون أن تسلك طريقك المُستقل نحو مكتبك الروحية الأولى، يعني عدم جدّيتك منذ البداية، وعدم وجودهم معرفيٍّ مُلحٍّ يجعلك تبدأ بالبحث بعيدًا عن أي نصيحة، ومُتحررًا من أي وصاية فكرية قد يمارسها الآخر تجاهك، مُحددًا لك ما يُناسبك وما لا يُناسبك في مرحلتك هذه.

هل هناك قارئٌ استثنائي؟.. سؤال آخر قد يأتي ليجيب عنه سؤال أكبر منه.. هل يجب أن يتبع أي شيء صفة القراءة وحدها؟.. كالقارئ الاستثنائي والقارئ المُتفرد والقارئ النهم وغيرها. إنها صفات ترتبط بالآخر ولا ترتبط بذات القارئ فعلاً، وهو ما قد يُحوّل شغف القراءة الأثير إلى وجهة أخرى من الأشياء التي تحتمل المظاهرة، في حين أن القراءة هي فعلٌ ذاتيٌّ جدًّا في أوله، تمامًا ككونه طبيعيًا ومُباشرًا، لكي يكتمل نصف الإنسان التائه والجاهل والمُربك والخائف.

المسؤولية المجتمعية*

سامي قرقاش

ظهرَ مُصطلحُ المسؤولية المجتمعية أو الاجتماعية للشركات منذَ عدّة سنواتٍ، وبدأ بالتطوُّر تدريجيًّا إلى أن أصبحَ علمًا قائمًا بذاته يُدرَّس في الكليات والمعاهد، وتُقامُ له المعارض والمؤتمرات والندوات ويكبرُ شيئًا فشيئًا مع الأيام. واطَّلَعنا على الآلاف من قصص النجاح في هذا الفنِّ سواءً في المحافلِ المُختلفة أو من خلالِ الكتبِ والمؤلفات.

وتعرَّفُ المسؤولية المجتمعية على أنَّها ما يُقدِّمه أيُّ كيانٍ: شركة أو مؤسسة حكومية أو خاصة، للمجتمع في أيِّ مجالٍ، كدعمِ رُواد الأعمال، أو دمجِ ذوي الإعاقة، أو الاستدامة، أو تنمية الشباب، وتشملُ أيضًا ترشيدهُ الطاقة وإعادة تدوير النفايات واستخدامها، ودعم الأنشطة الثقافية والفنية وغيرها، وتحت كلِّ فرعٍ من هذه الفروع أبدعت الشركات في تطوير وتطبيق أفكارٍ مبتكرة تخدمُ المسؤولية المجتمعية لتُخرجها من بدايتها المتواضعة إلى آفاقٍ رحبة لا متناهية.

المسؤولية المجتمعية مجالٌ واسعٌ وخصبٌ ومُفتِّحٌ على آيةٍ فكرةٍ إبداعيةٍ، وسأعرجُ هنا على نماذجٍ ثلاثة للمسؤولية المجتمعية وقفتُ عليها. النموذجُ الأوَّلُ يخصُّ إحدى شركات الأحذية التي التزمت بالتبرُّع بزواجٍ من الأحذية لشخصٍ فقيرٍ لا يجدُ ما يتعلَّه في إحدى الدُّول الفقيرة، وذلكَ عندَ بيعها أيَّ زوجٍ من أحذيتها. أمَّا النموذجُ الثاني فيُخصُّ شركةَ لبيع الملابس، وقد التزمت من جانبها بزراعةِ عشرِ شجراتٍ عندَ بيعِ أيِّ منتجٍ من مُنتجاتها حتَّى بلغَ عددُ الأشجار التي قامت بزراعتها أكثرَ من ستّة ملايين شجرة (حتَّى كتابة هذا المقال)، وقد قامت بوضع حاسبةٍ على موقعها الإلكتروني تُظهرُ الزيادة في عددِ الأشجار بزيادة المبيعات. وأمَّا النموذجُ الأخيرُ فهو قيامُ أحدِ المصارفِ العالمية بتمويلِ تجهيزِ إحدى قاعاتٍ مُتَّحَفٍ ماليزيا للفنونِ الإسلامية، وهذا غيْضٌ من فيضٍ.

والمُتأملُ للمسؤولية المجتمعية يُلاحظُ ملاحظتين جوهريتين، الأولى في منطقتنا العربية والثانية على المستوى العالمي، أمَّا الأولى: فهي عدمُ تطوُّرِ مفهومِ المسؤولية المجتمعية في منطقتنا ليلبِّغَ درجة الكفاية، كذلكَ عدمُ مواكبته لما هو عليه الآن في العالمِ المُتقدِّم، فما

(*) بتصرف من لجنة التأليف، جريدة البيان 14 أكتوبر 2015.

زَالَ بَعْضُ رُؤَسَاءِ الشَّرَكَاتِ وَخُصُوصًا الْعَائِلِيَّةَ مِنْهَا، يَحْصِرُونَ مَسْئُولِيَّتَهُمُ الْمُجْتَمَعِيَّةَ فِي أَدَاءِ الزَّكَاةِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهِمْ فَقَطْ، وَيَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى قَلَّةِ الْوَعْيِ لَدَيْهِمْ أَوْ دَرَاءًا لِلْمَسْئُولِيَّةِ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ عَظَمِ شَأْنِ الزَّكَاةِ وَأَهْمِيَّتِهَا كَرُّكِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَدَوْرِهَا الْمُهْمِّ فِي الْمُجْتَمَعِ، إِلَّا أَنَّ حَصَرَ الْمَسْئُولِيَّةِ الْمُجْتَمَعِيَّةِ فِيهَا يُعَدُّ خَطَأً شَدِيدَ الْخُطُورَةِ، لِمَا فِيهِ مِنْ تَحْجِيمٍ وَتَضْيِيقٍ لِمَسْئُولِيَّةِ الشَّرَكَاتِ تَجَاهَ الْمُجْتَمَعِ.

أَمَّا الْمُلَاحَظَةُ الثَّانِيَّةُ فَهِيَ مَا نَرَاهُ مِنْ بَعْضِ الشَّرَكَاتِ الْعَالَمِيَّةِ، مِنْ اسْتِخْدَامِهَا مَبْدَأَ الْمَسْئُولِيَّةِ الْمُجْتَمَعِيَّةِ كَفَرْشَاةٍ لِمَسْحِ أَخْطَائِهَا وَتَجَاوُزَاتِهَا، أَوْ لِيَذَرَّ الرَّمَادَ فِي الْعُيُونِ، أَوْ أَنْهَا جَعَلَتْهُ وَاجِهَةً جَمِيلَةً لَوَاقِعٍ دَاخِلِيٍّ مُتَهَالِكٍ خَرِبَ. هُنَاكَ مِثَالًا شَرَكَاتٌ تَعْمَلُ فِي مَجَالِ النَّفْطِ، أَدَّتْ أَعْمَالُهَا إِلَى كَوَارِثٍ بَيْئِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ وَمُسَجَّلَةٍ عَالَمِيًّا، وَبِالْمُقَابِلِ فَهِيَ تَحْمِلُ لَوَاءَ حِمَايَةِ الْبَيْئَةِ وَالمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا مِنْ خِلَالِ تَوْفِيرِ الطَّاقَةِ فِي مَبَانِيهَا عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ، وَهُوَ أَمْرٌ عَلَى أَهْمِيَّتِهِ يَبْقَى ضَيْئًا جَدًّا مُقَابِلَ مَا أَحْدَثَتْهُ هَذِهِ الشَّرَكَاتُ مِنْ أَضْرَارٍ وَمَا زَالَتْ.

وَرِغْمَ كُلِّ مَا سَبَقَ، فَأَنَا لَا زِلْتُ مُتَفَانًا بِأَنَّ الْجِيلَ الْجَدِيدَ مِنْ رُؤَادِ الْأَعْمَالِ وَالْقِيَادِيَيْنِ الشَّبَابِ مِنْ وَرَثَةِ الشَّرَكَاتِ الْعَائِلِيَّةِ قَدْ نَشَأَ فِي عَصْرِ بَرَزَ فِيهِ مَفْهُومُ الْمَسْئُولِيَّةِ الْمُجْتَمَعِيَّةِ وَأَصْبَحَ أَكْثَرَ وَضُوحًا، كَمَا تَشَرَّبَ هَذَا الْجِيلُ مَبَادِيَهَا بِصُورَةٍ أَفْضَلَ، وَمِمَّا سَاعَدَ عَلَى ذَلِكَ إِبْطَاقُ جَوَائِزٍ مُحَلِّيَّةٍ وَعَالَمِيَّةٍ تَخْتَصُّ بِتَحْقِيقِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْمُجْتَمَعِيَّةِ، وَتُذَكِّي رُوحَ الْمُنَافَسَةِ، وَتُسَهِّمُ فِي نَشْرِ الْوَعْيِ بِالْمَسْئُولِيَّةِ الْمُجْتَمَعِيَّةِ بِصُورَةٍ مُؤَسَّسِيَّةٍ مُمَنِّهَةٍ. وَلَنَا فِي صَاحِبِ السُّمُوِّ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ رَاشِدِ آلِ مَكْتُومٍ -حَفَظَهُ اللَّهُ- قَدَوَةٌ حَسَنَةٌ، إِذْ بَدَأَ سُمُوهُ مِنْذُ سَنَوَاتٍ بِإِبْطَاقِ مُبَادِرَاتٍ مُجْتَمَعِيَّةٍ وَخَيْرِيَّةٍ بَلَغَ عَدْدُهَا ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ مُبَادِرَةً تَخْدُمُ شَتَّى الْمَجَالَاتِ فِي صُورَةِ مُؤَسَّسَاتٍ لَهَا مَجَالِسُ إِمَارَةٍ وَمَدِيرُونَ وَمُوظَّفُونَ، وَتَعْمَلُ عَلَى تَحْقِيقِ أَهْدَافٍ وَغَايَاتٍ وَاضِحَةٍ وَفُقْ خِطِّطِ عَمَلٍ وَبَرَامِجَ زَمَنِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ.

وَنَرَى أَنَّ سُمُوهُ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا حَقَّقَتْهُ هَذِهِ الْمَوْسَّسَاتُ مِنْ إِنْجَازَاتٍ، بَلْ حَرَصَ عَلَى اسْتِدَامَتِهَا وَتَطْوِيرِهَا مِنْ خِلَالِ إِبْطَاقِ (مُبَادِرَاتِ مُحَمَّدِ بْنِ رَاشِدِ آلِ مَكْتُومٍ) تَحْتَ مَجْلِسِ إِمَارَةِ بَرْنَائَةِ سُمُوهُ وَعُضُوبِيَّةِ أَنْجَالِهِ الْكَرَامِ؛ لِتَكُونَ أَوَّلَ مُؤَسَّسَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ مُجْتَمَعِيَّةٍ قَابِضَةٍ تَنْضَوِي تَحْتَهَا مَجْمُوعَةٌ مُؤَسَّسَاتٍ مُتَخَصِّصَةٍ، لَا تَخْدُمُ إِمَارَةً دُبَيَّ أَوْ دَوْلَةَ الْإِمَارَاتِ فَقَطْ؛ بَلْ يَفِيضُ خَيْرُهَا وَجُوهُودُهَا عَلَى شَتَّى بَقَاعِ الْأَرْضِ دُونَ النَّظَرِ إِلَى دِينٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ عِرْقٍ أَوْ جِنْسٍ أَوْ حُدُودٍ

جغرافية، وإنما تُركّز على الإنسان كإنسان، مُقدِّمًا سموه في ذلك أروع مثالٍ عمليٍّ على أن خدمة وتنمية المجتمعات وأبنائها ليس أمرًا عارضًا أو عشوائيًا، إنما هو هدفٌ سامٌ يتمُّ تحقيقه من خلال عملٍ مؤسسيٍّ طموحٍ ودؤوبٍ ومستدام. ورجاؤنا أن يكون (الناس على دين ملوكهم) في تحملهم مسؤوليتهم المجتمعية.

قل (لا) واستمتع شاهد العبدولي

من أصعب الكلمات التي قد تواجهنا في حياتنا مع أنها لا تكون سوى من حرفين، كلمة نقولها بأعلى صوت غير مسموع في دواخلنا، ولكننا نخاف من قولها علانية، لماذا الخوف من قول كلمة (لا) والانجراف وراء عواطفنا لمجاملة الآخرين، رافضين من الداخل، ولسان حالنا يقول نعم؟

لنتعلم معاً كيف نقول (لا) ولكن دون خسارة من نحب، فلنستمع ونحن نحقق رغباتنا لا رغبات غيرنا، فكثرة (نعم) تضيف إلى عاتقك حملاً كبيراً أنت في غنى عنه. عندما تقوم بربط نفسك بشيء معين نظير المجاملة وحفاظاً على العلاقات وكسبها، فأنت بذلك تفتح على نفسك أبواب جهنم، وقد تكون (نعم) التي قلتها قد حلت مكان أمر مهم وضروري فتؤجله إلى أجل غير مسمى، في حين تنفيذك لتلك الـ (نعم) قد لا يسمن ولا يغني من جوع.

الشجاعة في قول كلمة (لا) تفتح لك آفاقاً كثيرة وتشق لك طريقك الخاص بعيداً عن التكرار والروتين وبعيداً عن تسييرك في هذه الحياة. علينا أن نتعلم فنون قول كلمة (لا) وأن نكرسها في حياتنا بالصورة الإيجابية والبناءة. دعونا في بداية الأمر نوضح أساسيات قول هذه الكلمة في هذه النقاط الخمس:

- 1- دون قولك لكلمة (نعم) خلال أسبوع وإذا كنت من مدمنيها ستفاجأ من كثرتها، إذن عليك بتغييرها حالاً.
- 2- اهتم بالطرائق والأساليب التي توزع فيها طاقتك، فلا تعطِ جلَّ جهدك لـ (نعم) أنت غير راضٍ عنها، فقولك لكلمة (لا) لن تجعلك تخسر أهلَكَ وأصدقائك ومن يحبونك.
- 3- رتب أولوياتك وابدأ دائماً بالأهم، ثم المهم، فالأقل أهمية؛ لتتحقق الإنجاز المطلوب.
- 4- اعرف حدودك جيداً وابدأ في وضعها وتحديدتها من الآن لتجنب الإحراج في قول (نعم).

5- أعطِ الآخرين بعض الصّلاحيّات في إبداء الرّأي وليس اتّخاذ القرار، فالرّأي الأوّل والأخير يعودُ لك أنت لا لغيرك.

واحدٌ من أن تُغلّف كلمة (لا) بكذبةٍ عابرةٍ أو تُبطنها بأعذارٍ لا وجودَ لها، فذلك لوحيدٍ سيُشعركُ بالذنبِ وتأنيبِ الضميرِ، وهذه الأحاسيسُ هي التي نُحاولُ جاهدينَ الابتعادَ عنها.

أعطِ لنفسك فرصةً لتغييرِ حيثياتِ الأمور والنّظرِ إليها من كافّةِ الجوانبِ، فلعلَّ «لا» هذه هي مفتاحُ سعادتك. فقبولُك بكلِّ الأمور ليس شطارةً، ولكنها قد تكونُ في أغلبِ الأحيانِ لعنةٌ توقّعك في كثيرٍ من الأزماتِ.

النصوص المعلوماتية

النصوص المعلوماتية

تُعَدُّ معرفة نوع النص المقروء من أهم الإستراتيجيات التي تساعد القارئ على فهم النصوص، والتنبّه إلى النقاط الجوهرية فيها، والتعمق في أفكارها ومضامينها؛ فقراءة قصيدة من الشّعر تختلف عن قراءة قصة، وهذه تختلف عن قراءة نص معلوماتي، فلكل نوع من النصوص الطريقة التي تناسبه، وتناسب الغايات التي من أجلها كُتِبَ، وبسببها يقرأها القراء.

ويعد النص المعلوماتي من أكثر النصوص انتشاراً وتنوعاً في عصرنا الحاضر، ومعظم الناس يعتمدون عليه في حياتهم اليومية في أبسط الأمور وأكثرها تعقيداً؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر، كلنا نحتاج أن نعرف حالة الطقس، أو مواعيد الصلاة، أو مواعيد الرحلات في المطارات للمسافرين، أو موقع مؤسسة ما نود أن نزورها، فمثل هذه الجداول والخرائط تسمى نصوصاً معلوماتية، فما النص المعلوماتي؟ وما الفرق بينه وبين سائر النصوص؟

النص المعلوماتي: هو أي نصّ هدفه أن يُقدِّم معلومات للقارئ بطريقة مباشرة وواضحة، تتصف بالدقة، وتعتمد على الأدلة العلمية والحقائق. ولأن هدف النص المعلوماتي هو تقديم المعلومات فإنك ستجده في مجالات العلوم والفنون كلّها، كالفيزياء، والكيمياء، والطب، والرياضة، والصحة، والبيئة، والجغرافيا، والتاريخ، واللغة، والرسم، وتطوير الذات، وغيرها.

وهذا لا يعني أنّ النص المعلوماتي هو النوع الوحيد الذي يقدم معلومات للقارئ، ولكنّ النص المعلوماتي ليس له أي هدف إلا تقديم المعلومات، بخلاف النصوص الأخرى. ولكي تتضح الفروق بين النص المعلوماتي وغيره من النصوص يحسن أن نتحدث عن التصنيف العام للنصوص، حيث تنقسم إلى نصوص خيالية (Fiction) ونصوص غير خيالية (Non-Fiction)

1. النص الخيالي:

هذا المصطلح هو ترجمة لكلمة (Fiction)، وهي مشتقة من كلمة لاتينية تعني «يُشكَّل» أو «يُصنَّع» ويشير إلى تأليف أدبي متخيّل ومبتدع. وهو مصطلح يعبر عن الفن القصصي بأشكاله المختلفة: الرواية، والرواية القصيرة، والقصة القصيرة، مع أنّ هناك من يرى أنّ

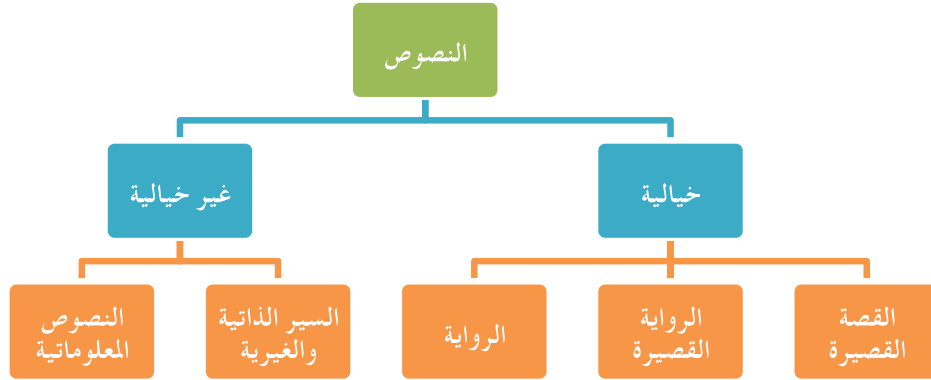
مصطلح (Fictional) يشمل كل ما هو أدبي، أو كل الأجناس الأدبية مثل الشعر والدراما وألوان السرد إلى جانب الرواية والقصة.

فهذا العمل هو من خيال الكاتب، حتى لو اعتمد على وقائع من الحياة، أو من التاريخ. وهدفه في الغالب الإمتاع والمشاركة.

2. النص غير الخيالي:

هو ترجمة لمصطلح (Non-Fiction) بالإنجليزية، بمعنى أنه خال من الخيال، ويشير إلى كل النصوص التي تعتمد على الحقائق والوقائع والأدلة. وليس للخيال دور فيها، وهدفها في الغالب تقديم معلومات للقارئ حول موضوع ما. وتحت النصوص غير الخيالية تندرج النصوص المعلوماتية بأشكالها كافة، كما تندرج أيضًا نصوص السير الذاتية والغيرية، والكتابات الفلسفية والتاريخية والجغرافية، وغيرها كثير.

ويمكن توضيح هذا التقسيم في الشكل التالي:



ولكي نوضح الفرق بين النص المعلوماتي والنصوص الأخرى التي تندرج تحت مسمى «نص غير خيالي» يمكن أن نعقد هذه المقارنة البسيطة بين النص المعلوماتي ونصوص السيرة الأدبية مثلاً، فعلى الرغم من أن كليهما يندرجان تحت قسم النصوص غير الخيالية إلا أن معظم نصوص السيرة الأدبية تبنى بناء يشبه بناء القصة والرواية، فتعتمد على الشخصيات، ووجود إطار زمني ومكاني، وأحداث، وتشويق وغيرها. وتكتب بأسلوب سردي في الغالب يشبه أسلوب كتابة القصص. أما النصوص المعلوماتية فتقتصر فقط على تقديم المعلومات؛ فلو أننا أردنا أن نكتب نصاً معلوماتياً عن الشيخ زايد بن سلطان -رحمه الله، فإننا سنقتصر على ذكر

الحقائق فقط، تاريخ ومكان ميلاده، فترة حكمه، أخلاقه، إنجازاته، سنة وفاته، وهكذا. ولكن إذا أردنا أن نكتب عنه سيرة أدبية فإننا سنعنى بتقديم صورة دقيقة عن شخصيته، واهتماماته، وأفكاره، وكيف كان يرى العالم، وبعض المواقف المؤثرة في حياته، وبعض الحكايات التي تعكس حكمته، وقربه من شعبه، وحرصه على توحيد الكلمة.. وهكذا.

إنّ النص المعلوماتي غير معني من قريب أو بعيد بالتأثير في القارئ تأثيراً عاطفياً، بل هو يصب كل تركيزه على المعلومة، والتحقق من صحتها، والحرص على أن تصل إلى القارئ من مصادر موثوقة، وأن تقدم له في شكل واضح وبسيط، يساعده على تمثيلها وتنظيمها وتذكرها.

وأكثر ما تجد النصوص المعلوماتية في المعاجم، والموسوعات، والأطالس، وكتب التعليم، والكتب المدرسية على اختلافها، والخرائط، والمقالات العلمية التي تنشر في المجلات، كما نرى في مجلة (ناشيونال جيوغرافيك) على سبيل المثال.

وأهم ما يميّز النصوص المعلوماتية اعتمادها على الحقائق والأرقام، ونتائج الدراسات العلمية، ولذلك يعتمد تقييم النص المعلوماتي على الصحة والدقة في نقل المعلومات، والتوثيق العلمي الذي يحيل إلى المصادر، وعلى الجِدَّة والتحديث، فلا ينقل النص نتائج دراسات قديمة، ويترك الحديثة منها.

ولكتابة النصوص المعلوماتية أصول وطرق معتمدة، فلا يجوز للكاتب أن يتصدى لكتابة نص معلوماتي من دون أن يلتزم بهذه الأصول التزاماً تاماً. وقد تطوّرت طرق كتابة النصوص المعلوماتية في العصر الحديث، وصار المؤلفون يعتمدون على وسائل كثيرة تساعد القارئ على فهم المعلومات، وتنظيمها، وحفظها، وتذكرها، كالجداول، والقوائم، والأشكال والرسومات التوضيحية، والصور.

إنّ قراءة النصوص المعلوماتية تتطلب من القارئ الانتباه، والتدقيق، وإعادة تنظيم المعلومات بما يناسب أغراضه الخاصة، وهي من أكثر المهارات أهمية للطلاب، خاصة في المرحلة الجامعية.

لغات العالمِ مرايا الناسِ*

تؤثر الضغوطُ العالميةُ للانِدماجِ والاستيعابِ تأثيرًا حاسمًا على اللُّغاتِ التي يوجدُ منها في العالمِ الآنَ منَ خمسةِ آلافِ إلى عشرين ألفَ لغةٍ، تُعبّرُ كلُّ منها عنَ نظرةٍ فريدةٍ منَ نوعِها للعالمِ ونَمَطٍ منَ أنماطِ التفكيرِ والثَّقافةِ؛ فكثيرٌ منَ اللُّغاتِ الآنَ مُعرَّضٌ لِخَطَرِ الانقراضِ في المُستقبلِ المنظورِ.

يُعدُّ تناقُصُ عددِ الأطفالِ الذينَ يتكلَّمونَ بلُغةٍ ما أوَّلَ مؤشِّرٍ علميٍّ على أنَّ هذه اللُغةَ تسيَّرُ سيرًا حثيثًا نحوَ الانقراضِ أو التَّهميشِ، أمَّا المؤشِّرُ الثاني فهو ما يُمكنُ أن نُسَمِّيه (بالهجرة الصَّامِتةِ داخلَ المُجتمعاتِ اللُّغويَّةِ) ونعني بها اتِّخاذَ اللُّغاتِ العالميَّةِ التي حقَّقتْ لِنَفْسِها وجودًا شاسعًا في العالمِ بسببِ تفوُّقِ أهلِها علميًّا واقتصاديًّا، بدلًا عن اللُغةِ الأمِّ في لغةِ التَّعاملِ اليوميِّ، ولُغةِ التَّعليمِ، وغيرها منَ سياقاتِ التَّواصلِ الحَيويَّةِ في حياةِ المُجتمعِ.

وهذا الوضعُ يُمثِّلُ استنزافًا للمواردِ على نفسِ القَدْرِ منَ انقراضِ فصيلةٍ منَ فصائلِ الحَيوانِ أو النَّباتِ؛ فكلُّ لغةٍ يُنطَقُ بها في العالمِ تُعبّرُ عنَ طريقةٍ فريدةٍ لِلنَّظَرِ إلى التَّجربةِ الإنسانيَّةِ وإلى العالمِ نفسِه؛ ففي اللُغةِ اليابانيَّةِ مثلاً هناك فعلٌ حركيٌّ يُعبّرُ عنَ كُلِّ خَلْجَةٍ لِلعُضلاتِ، وكُلِّ حَدَثٍ في الطَّبيعةِ، وكُلِّ فعلٍ إنسانيٍّ، وفي العربيَّةِ مثلاً هناك ما يزيدُ على خمسينَ اسمًا لِلْمَطَرِ، ونَجْدُ في بعضِ اللُّغاتِ اسمينَ مُختلِفينَ لِلأزرقِ الفاتِحِ والأزرقِ الغامِقِ، وبعضُ اللُّغاتِ ليسَ فيها كلماتٌ مثلُ: أَمَامَ وخَلْفَ، ويعبرونَ عنَ مثلِ هذا المفهومِ بكلماتٍ مثلَ شَرْقٍ وغَرْبٍ وشَمالٍ وجَنوبٍ فقط. إنَّ هذا التَّنوعَ في اللُّغاتِ، هو تنوعٌ في الثَّقافاتِ وطرائقِ التَّفكيرِ، إنَّه يُمَدُّ التَّجربةَ الإنسانيَّةَ بالغنى والتَّنوعِ. ولِذا يُشبه موتُ لغةٍ منَ اللُّغاتِ أو تهميشُها اختفاءَ لونٍ منَ الألوانِ التي تُضفي الجَمالَ على الكونِ والحياةِ. ولكنَّ كثيرًا منَ اللُّغاتِ اختفى على مرِّ التَّاريخِ البَشريِّ، ولا يُمكنُ المُحافظةُ على آيةٍ لغةٍ بِمَرسومٍ حُكوميٍّ أو بِالاهتماماتِ الفُلْكلوريَّةِ، وإنَّما يتحقَّقُ ذلكُ فقط بِقرارٍ واختيارٍ المتكلِّمينَ بها.

واللُّغاتُ كُلُّها مُتساويةٌ منَ حيثِ إنَّها أدواتٌ لِلاتِّصالِ، كما أنَّ لِكُلِّ لغةٍ إِمكانيَّةً لِتَكونَ لغةً عالميَّةً، ويتوقَّفُ تحقيقُ هذا الأمرِ على الفُرصِ التي تُتاحُ لها. وقد سادَ اعتقادٌ في الماضي

(*) من كتاب التَّنوعِ البَشريِّ الخلاقِ، تقريرُ اللِّجنةِ العالميَّةِ لِلثَّقافةِ والتَّنميةِ (الطبعةُ العربيَّةُ) إشرافُ وتقديمُ: جابر عصفور، المجلسُ الأعلى لِلثَّقافةِ، 1997، مصر (بتصرف وإضافات).

بأن اللغات تُشبه الكائنات الحية؛ فهي تولد وتُتَمَو، وتُضَمَحَل وتُموُت، ولكن هذا التصور غير صحيح؛ فاللغات بالكامل هي أدوات ونواتج للمجتمعات التي تُستخدَمها أو تُتركها، ومُصيرُ كُلِّ اللغات وقفٌ على البيئة الاجتماعية والسياسية التي تعيش فيها، وعلى علامات القوة والسيادة التي يَتَمَتَّعُ بها المجتمع الذي يتكَلَّمُ بها.

إنَّ أهمَّ سِمَةِ ثقافية لأيِّ مجتمع هي لُغَتُهُ المنطوقة والمكتوبة، ولذلك يُعدُّ التنوع اللغوي مصدرًا ثمينًا من مصادر البشرية. واختفاء أية لغة يُعدُّ إفقارًا لمخزون الإنسانية من المعرفة وأدوات الاتصال داخل الثقافات وبينها؛ فمثلاً نجد الكثير من النباتات الطبية غير معروفة إلا عند الشعوب في ثقافتهم التقليدية، حيث يُعطى كلُّ منها اسمًا محددًا في لغات هذه الشعوب، ومع ضياع ثقافتهم ولُغاتهم فإن المعرفة بهذه النباتات وخواصها العلاجية تُضيَعُ كذلك، إلا إذا تمكَّن أحد اللغويين أو الأشخاص المهتمين من تسجيل أسمائها ووصف خواصها قبل ضياع اللغة. وقد عرَفَ السُّكَّانُ الأصليون في جنوب أمريكا الخواص الطبية لنبات الكينا قبل اتصالهم بالأوروبيين بوقتٍ طويل. وفي شمال أستراليا عولجت أمراض مثل قرحة الجلد الحادة والتي لم تستجب للعقاقير الطبية بخلط بعض سوائل مُستخلصة من نباتات أسماها أفراد جماعات السُّكَّانِ الأصليين، وقد فتح نجاح هذا العلاج وغيره من العلاجات التقليدية المشابهة الباب أمام بحثٍ واسعٍ عن النباتات الطبية بمساعدة السُّكَّانِ الأصليين، وبفضل الكلمات التي يستعملونها في لُغتهم التي هي مُعرَّضةٌ للانقراض.

واللغة المهددة عند اللغويين هي اللغة التي لا يتعلَّمها الأطفال في المجتمع الذي يتكَلَّمُ هذه اللغة. ويمكن أن تُصبح اللغة مهددة لأسباب أخرى أيضًا، مثل تقسيم الجماعة اللغوية الواحدة قسرًا، أو وضعها في مجتمعات تُستخدَم لغة أو لغات أخرى. ومن الأسباب القوية التي قد تُهدد وجود اللغة وحضورها في حياة الناس تشجيع الآباء أبناءهم على استخدام لغة جماعة ثقافية أخرى أقوى وأكثر حضورًا، مُفضِّلين إياها على لُغتهم، بل وقد يتكَلَّمُ الآباء أنفسهم مع الأبناء بهذه اللغة المُفضَّلة، وسرعان ما يتخلَّى الجيل الشاب عن لُغته نتيجة لذلك؛ فتُصير لغة الآخر هي الأسهل والأقرب، وتُصير لُغتهم هي الأصعب والأبعد. وليس للأمر علاقة باللغة ولا بخصائصها، وإنما الأمر مرتبطٌ بتفوق الأم، وتمكُّن المجتمعات، وتحقيقها السبق والتقدم العلمي والسيطرة الاقتصادية والثقافية.

لقد بدأت الكثير من المجتمعات اللغوية اتخاذ خطوات، واعتماد إستراتيجيات للحفاظ على لغتهم، ومواجهة ضغوط اللغات الأخرى الأقوى والأكثر انتشاراً. ويُعد استخدام اللغة الأم أحد أهم هذه الخطوات وأكثرها فاعلية؛ بل إن بعض المجتمعات صارت تستخدم صفة صعوبة لغتها وتعقيدها لرفع الكبرياء القومي واحترام الذات كما لوحظ مع لغات الباسك الفنلندية والتركية ولغات القوقاز. ويمكن لسياسة لغوية مستنيرة إبطاء اختفاء اللغة أو إيقافه تماماً، ولا بد في هذه الحالة من التأكيد على الجانب العلمي، وتوسيع مفهوم الحفاظ على اللغة ليشمل التركيز على المعاجم والنصوص القديمة، واستحضارها، وتعلمها وحفظها. كما يشمل تربية النشء على الاعتزاز بها وعدم الشعور بالنقص تجاه الآخر صاحب اللغة الأقوى، بل معاملته معاملة النظير المساوي، لا المتفوق المتسيد.

إن اللغة هي المكون الجوهرى في الثقافة، وقد وصف الفيلسوف الفرنسي (جان بول سارتر) اللغات بأنها الأذن التي نسمع بها والعين التي نرى بها.

حُضْنُ الطَّبِيعَةِ*

عندما تكون مُنْطَلِقًا بِالسَّيَّارَةِ فِي رُبُوعِ الصَّحَرَاءِ، فَإِنَّ (دِفِيد سْتراير) هُوَ مِثَالُ الرَّجُلِ الَّذِي سَتَرَعَبُ فِي أَنْ يَتَوَلَّى قِيَادَةَ السَّيَّارَةِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ يَتَحَاشَى تَمَامًا إِجْرَاءَ مُكَالِمَةِ هَاتِفِيَّةٍ، أَوْ كِتَابَةِ رِسَائِلٍ قَصِيرَةٍ عَلَى هَاتِفِهِ النَّقَّالِ، أَوْ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ. وَعَالِمُ النَّفْسِ هَذَا مُتَخَصِّصٌ فِي عِلْمِ الْإِنْتِبَاهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا عِنْدَمَا نُنْجِزُ عِدَّةَ مَهَامٍّ فِي آنٍ وَاحِدٍ فَإِنَّ أَدْمِغَتَنَا تَمِيلُ إِلَى ارْتِكَابِ الْأَخْطَاءِ؛ لِأَنَّهَا تَكُونُ فِي حَالَةٍ مِنْ مُقَاوَمَةِ التَّشْتُّبِ، وَقَدْ أَظْهَرَتْ دِرَاسَتُهُ أَنَّ اسْتِعْمَالَ الْهَاتِفِ النَّقَّالِ يُوْهِنُ أَدَاءَ جُلِّ السَّائِقِينَ بِقَدْرِ مَا يَفْعَلُهُ تَنَاوُلُ الْمَشْرُوبَاتِ الْكَحُولِيَّةِ.

يَقُولُ (سْتراير): إِنَّ أَدْمِغَتَنَا لَيْسَتْ آلَاتٍ حَاسِبَةٌ لَا تَعْرِفُ الْكَلَلَ، بَلْ إِنَّهَا مُعَرَّضَةٌ لِلْإِصَابَةِ بِالْإِعْيَاءِ بِسَهُولَةٍ، لَكِنَّا عِنْدَمَا نَتَمَهَّلُ، وَنَنْتَهِي عَمَّا يَشْغَلُنَا، وَنَغْمُرُ أَنْفُسَنَا فِي أَجْوَاءِ الطَّبِيعَةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي تُحِيطُ بِنَا، فَإِنَّا لَا نَشْعُرُ بِأَنَّا قَدْ اسْتَعَدْنَا عَافِيَتَنَا وَنَشَاطُنَا فَحَسْبُ، بَلْ نَكُونُ قَدْ حَسَّنَا أَدَاءَنَا الذَّهْنِيَّ كَذَلِكَ.

وهذا ماعرضه (سْتراير) عملياً مع مجموعة من الطلبة المُخَيِّمِينَ: إِذْ إِنَّ أَدَاءَهُمْ تَحَسَّنَ بِمَقْدَارِ 50٪ فِي مَهَامٍّ مُتَعَلِّقَةٍ بِحَلِّ الْمَشْكِلاتِ بِطَرِيقِ إِبْدَاعِيَّةٍ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنَ التَّرْحَالِ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَمْتِعَتَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ.

إِنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى تَرْكِيزِ الْإِنْتِبَاهِ بِصِفَةِ إِرَادِيَّةٍ، وَتَجَاهُلِ عَوَامِلِ التَّشْتُّبِ وَصَرْفِ النَّظَرِ مَسْأَلَةٌ حَاسِمَةٌ لِحَلِّ الْمَشْكِلاتِ، وَإِتْمَامِ الْمَهَامِّ، لَكِنَّ الْحَيَاةَ الْعَصْرِيَّةَ تَتَطَلَّبُ أحياناً مِنْ هَذِهِ الْقُدْرَةِ أَكْثَرَ مِمَّا نَمْتَلِكُ، وَمَا إِنْ تُسْتَنْزَفَ حَتَّى يُوَدِّيَ الْمَجْهُودُ الْمُطَوَّلُ وَالْمُرْكَزُ إِلَى إِرْهَاقِ الذَّهْنِ، وَفُقْدَانِ الْفَعَالِيَّةِ وَالْإِجْهَادِ. الطَّبِيعَةُ تَعْهَدُنَا، ثُمَّ إِنَّهَا تَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِنَا، وَتُحَسِّنُ مَزَاجَنَا، وَتَقْضِي نَظْرِيَّةَ اسْتِعَادَةِ الْإِنْتِبَاهِ بِأَنْ قَضَاءَ بَعْضِ الْوَقْتِ فِي أَحْضَانِ الطَّبِيعَةِ يُرِيحُنَا مِنَ التَّوْثُرِ وَالْإِجْهَادِ الذَّهْنِيِّ النَّاتِجِينَ عَنْ «الْإِنْتِبَاهِ الْمَوْجَّهِ» الَّذِي يَتَطَلَّبُهُ الْعَمَلُ وَحَيَاةُ الْمُدْنِ.

وَفِي عَامِ 1865، نَظَرَ مُهَنْدِسُ الْمَنَاطِرِ الطَّبِيعِيَّةِ الْعَظِيمُ (فِرِيدريك لُو أَوْمِسْتَد) مِنْ فَوْقِ «وَادِي يوسيمي» فَرَأَى مَكَانًا جَدِيرًا بِأَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ، وَكَانَ عَلَى قَنَاعَةٍ بِضَرُورَةِ وَجُودِ طَبِيعَةٍ

(*) مَجَلَّةُ (نَاشِيونَال جِيُوغَرافِيك)، عَدَدُ يَنَآيِرِ 2016، النُّسخَةُ الْعَرَبِيَّةُ، ص 30 - 47، بِتَصَرُّفٍ بَسِيطٍ.

خضراء جميلة كي يستمتع بها الناس، فكتب في ذلك يقول: «إنها لحقيقة علمية أن تأمل المناظر الطبيعية الخلابة بين حين وآخر... مستحسن لصحة الرجال ونشاطهم، وبخاصة لصحة أذهانهم وتحسين وظيفتها».

كان (أومستد) يُبالغ حينها، فما زعمه لم يكن مُركّزاً على العلم، بقدر ما كان مُستنداً إلى حدسه الشخصي، لكنّ حدسه ذاك كان له تاريخ طويل؛ فقد عبّر (باراسيلسوس) الجراح السويسري الألماني في القرن السادس عشر عن ذلك الحدس نفسه عندما كتب: «إنّ فنّ الشفاء هو من الطبيعة، لا الطيب»، وفي عام 1798 تعجّب الشاعر الإنجليزي (ويليام وردسميث)، وهو يجلس على ضفاف نهر (واي) كيف أنّ «العين التي تُقرّب بتأثير الانسجام الموجود في الطبيعة توفر الخلاص من حمى العالم»، كما ورث كتاب آخرون وجهة النظر تلك، وجنّبوا إلى جنب (أومستد) «مهندس المناظر الطبيعية»، فقد أوجد هؤلاء الأساس الروحاني والعاطفي للمطالبة بإنشاء المتنزهات الوطنية الأولى في العالم، زاعمين أنّ للطبيعة قوى شافية.

لم تكن هناك أدلة دامغة حينها، أما اليوم فالأدلة موجودة، فمشاكل الصحة العامة المُستشرية مثل البدانة، والاكتئاب، وظاهرة قصر النظر واسعة الانتشار، جميعها مُرتبط ارتباطاً واضحاً بالأوقات التي يمضيها الناس في الأماكن المغلقة.

تلك الأمراض قد حفزت (ستراير) وغيره من العلماء على البحث باهتمام مُتجدد في موضوع تأثير الطبيعة في أدمغتنا وأجسامنا، وتأسيساً على بعض التطورات في مجالي العلوم العصبية وعلم النفس، فقد بدؤوا بقياس ما كان سابقاً مقدّساً وغامضاً، وهذه القياسات -التي تشمل كل شيء ابتداءً من هرمونات الإجهاد مروراً بمعدل نبض القلب، فالأمواج الدماغية، وانتهاءً بعلامات البروتين- تُشير إلى أننا عندما نمضي بعض الوقت في الطبيعة فإنّ شيئاً عظيماً يتّجّع عن ذلك» على حدّ قول (ستراير).

وقد حلّل باحثون من كُليّة الطبّ في جامعة (إكستر) بانجلترا مؤخراً بيانات الصحة النفسية لِعشرة آلاف شخص من سُكّان المُدن، واستعملوا خرائط شديدة الدقّة لتتبع المناطق التي سكنها هؤلاء الذين شملتهم الدراسة على مدى ثماني عشرة سنة، وقد توصّلوا إلى أنّ الأشخاص الذين يعيشون في مناطق أقرب للمساحات الخضراء كانوا أقلّ شكوى من الغم،

وذلك بعد تعديل النتائج ليأخذوا في الاعتبار مستويات الدخل والثقافة والوظيفة (وكل منها عامل مؤثر في الصحة).

وفي عام 2009 وجد فريق من الباحثين الهولنديين معدلات أقل لظهور خمسة عشر مرضاً- تشمل الاكتئاب والقلق ومرض القلب والسكري والربو والصّداع النصفي - لدى الناس الذين لا تبعد منازلهم أكثر من كيلومتر واحد عن المساحات الخضراء.

وفي عام 2015 جمع فريق بحث دولي الإجابات الواردة في استبانة صحيّة شملت واحداً وثلاثين ألف شخص من سكان مدينة تورنتو الكندية، فربطوا تلك الإجابات مع خريطة المدينة-مربعاً سكنياً بمربع سكني- ووجدوا أن من يعيشون في مربعات سكنية تضم عدداً أكبر من الأشجار كانوا يظهرون ارتفاعاً في مستوى صحتهم القلبية والأيضية تعادل ما يشهده المرء عندما يحصل على زيادة دخل بواقع عشرين ألف دولار، كما وجدت علاقة بين معدلات أدنى للوفيات، وهرمونات إجهاد أقل في الدم، والعيش إلى جنب المساحات الخضراء.

ويصعب على المرء أن يستخلص من هذه الدراسات الشيء الذي يجعل الناس يشعرون بمزيد من السعادة: أترأه الهواء النقي؟ أم أن بعض الألوان والأشكال المتشعبة تحفز على تشكّل مواد كيميائية عصبية محدّدة في القشرة البصرية لأدمغتنا؟ أم أن الموضوع ببساطة هو أن الناس الذين يعيشون في أحياء أكثر خضرة يستعملون الحقائق العامة لممارسة الرياضة أكثر ممّا يستعملها غيرهم؟ وكان هذا ما يعتقده (ريتشارد ميشيل) وهو اختصاصي وبائيات لدى جامعة (جلاسكو) في اسكتلندا، أوّل الأمر.

يقول: «لقد كنت أشك بوجود أسباب أخرى» ولكنه أجرى بعد ذلك دراسة كبيرة أظهرت معدلات أقل للوفيات والأمراض لدى الناس الذين يعيشون على مقربة من الحقائق العامة والمساحات الخضراء الأخرى، حتى إن لم يكونوا يستعملونها، ويضيف ميشيل: «تظهر دراساتنا فضلاً عن دراسات غيرنا وجود هذه التأثيرات المُجدّدة للصحة سواء أكان هؤلاء الناس يمارسون المشي في الطبيعة أم لا يمارسونه»، علاوة على ذلك، فقد بدا أن أكبر المنافع كانت لدى الناس الأدنى دخلاً؛ إذ اكتشف ميشيل أن وجود المرء إلى جنب الطبيعة في المدن يرفعه درجات في السلم الاجتماعي.

ما يَظُنُّهُ ميتشل وباحثون آخرون هو أنَّ الطَّبيعة تَوَثَّرُ فينا بالدرجة الأولى بِخَفْضِ مستويات الإجهاد لدينا. وقد أظهرَ النَّاسُ الَّذِينَ يستطيعون رؤية الشَّجرِ والعُشبِ مِنْ نوافذِهِمْ -مُقَارَنَةً بِمَنْ لديهم مَشاهدُ رديئة- سُرْعَةً أكبرَ في استعادة عافيتِهِمْ في المستشفيات وأداءً أفضلَ في المدارس، بل وسُلوَكا أَقَلَّ عُدوانيةً في الأحياءِ الَّتِي يَكثُرُ فيها العُنفُ، وتَنسَجِمُ هذه التَّنائجُ معَ مُحَصِّلاتِ الدَّراساتِ التَّجريبيةِ للجهازِ العَصَبِيِّ المَرَكِزِيِّ؛ إذ تُشيرُ قياساتُ كُلِّ مَنْ هَرَموناتِ الإجهادِ والتَّنَفُّسِ وَنبْضِ القلبِ والتَّعَرُّقِ إلى أنَّ جُرْعَاتٍ قليلةً مِنَ الطَّبيعة - بل وَحَتَّى صُورٍ مِنَ عَالَمِ الطَّبيعةِ - لَدَيْهَا القُدرةُ على تَهْدئةِ نفوسِ النَّاسِ وَتَحسينِ أدائِهِمْ.

وقد قَامَتِ الطَّبيبةُ (ماتيلافان دن بوش) في السُّويْدِ، بِدراسةِ مجموعةٍ مِنَ الأشخاصِ كَانَتْ قد كَلَّفَتْهُمْ بِحَلِّ مسألةٍ رياضيةٍ مُجهدةٍ، فَاكتَشَفَتْ أنَّ تَفَاوُتَ مُعَدَّلِ خَفَقانِ قلوبِهِمْ (الَّذِي يَنْقُصُ عادةً عِنْدَ الإجهادِ) كَانَ يَعودُ إلى طَبِيعَتِهِ بِسُرْعَةٍ، عِنْدَمَا كَانَتْ تُجْلِسُهُمْ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً في غُرْفَةٍ لِلوَقَاعِ الافتراضيِّ، تَعَرِّضُ فيها صُورًا ثَلَاثِيَّةَ الأبعادِ لِمَشاهدٍ طَبِيعِيَّةٍ مُصْحوبةٍ بِتَغريدِ الطُّيورِ بدلًا مِنَ الجُلوسِ في غُرْفَةٍ عَادِيَّةٍ.

وَبُتِّبَ أَنَّ المَشْيَ لِمُدَّةِ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً في الغابةِ يُنتِجُ تَغْيِراتٍ لَدَى الأشخاصِ تَكُونُ قابِلَةً لِلقياسِ مِنَ النَّاحِيَةِ الفسيولوجيةِ، فَلَقَدْ قامَ باحثون يابانيون بِرِئاسةِ (يوشيفومي ميازاكي) في جامعةِ (تشيبا) بِإرسالِ أربعةٍ وَثمانينَ شَخْصًا مُتَطَوِّعًا إلى سبعِ غاباتٍ مُختلِفةٍ لِيَتَمَشَّوا فيها، على حينَ جَعَلُوا عِدَدًا مُمَثِّلًا مِنَ المُتَطَوِّعينَ يَتَمَشَّونَ في مَراكِزِ المُدُنِ، وَقَدْ كَانَ مَكْسَبُ الَّذِينَ اسْتَرَخُوا نَتِيجَةَ المَشْيِ في الغابةِ هائلًا؛ إذ حَدَثَ عِنْدَهُمْ هَبوطٌ إجماليٌّ في مُستوى هَرمونِ الإجهادِ (الكورتيسول) بِوَقاعِ 16٪، وَهَبوطٌ بِوَقاعِ 2٪ في ضَغْطِ الدَّمِ، وَهَبوطٌ بِوَقاعِ 4٪ في نبْضِ القلبِ، وَيَعْتَقَدُ ميازاكي أَنَّ أجسامَنَا تَسْتَرخِي في الأجواءِ الطَّبيعيةِ اللَّطيفةِ؛ لأنَّنا كُنَّا قد نَشَأْنَا فيها في الأَصْلِ بِصِفَتِنَا بَشَرًا؛ وَلِذا فَإِنَّ حِوَاصِنَا مَهِيئةٌ لِتَفْسِيرِ المَعْلوماتِ ذاتِ الصِّلَةِ بِالنَّبَاتاتِ وَالجداولِ المائيةِ، لا الحَرَكَةِ المَروريَّةِ وَناطحاتِ السَّحابِ على حَدِّ قَوْلِهِ.

وقد أظهرَ اسْتِطْلَاعُ للرَّأيِ خَاصًّا بِالمَحَمِّيَّاتِ الطَّبيعيةِ أَجْرِي مؤخَّرًا أَنَّ نِسْبَةَ المَراهقينَ الأمريكيِّينَ الَّذِينَ يُمضونَ بَعْضَ وَقْتِهِمْ في الهَوَاءِ الطَّلَقِ كُلِّ يَوْمٍ لا تَتَجَاوِزُ 10٪ تقريبًا، كما أَنَّ الأمريكيِّينَ البالغينَ يُمضونَ وَقْتًا أَقَلَّ خَارِجَ بيوتِهِمْ والمباني عَمومًا مِمَّا يُمضُونَهُ دَاخِلَ سيارَتِهِمْ أَيْ أَقَلَّ مِنْ 5٪ مِنْ يَوْمِهِمْ. إِنَّ النَّاسَ لا يُقَدِّرونَ مَدَى تأثيرِ وجودِهِمْ في الخَارجِ

في مستوى سعادتهم، فنحن إجمالاً نُفكّر أن السعادة تتأتى من أشياء أخرى مثل التسوّق أو مشاهدة التلفاز.

وفي بعض الدول، تُشجّع الجهات الحكومية على الارتقاء في أحضان الطبيعة، بوصفها سياسة للصحة العامة، ففي فنلندا مثلاً - وهي بلاد تعاني معدلات مرتفعة للاكتئاب - طلب باحثون تمويل الحكومة إلى آلاف الأشخاص تقييم مشاعرهم ومستويات الإجهاد لديهم بعد زيارة مناطق طبيعية وأخرى حضرية، وبناءً على نتائج تلك الزيارة، فإن فريق معهد فنلندا للمصادر الطبيعية يوصي بقضاء وقت في الطبيعة لا يقل عن خمس ساعات في الشهر، كما يرى بروفيسور علم النفس (كاليفي كوريلا) أن المشي مدة تتراوح بين أربعين وخمسين دقيقة يبدو كافياً لإحداث تغييرات نفسية وتغييرات في المزاج، وعلى الأرجح تغييرات في التركيز أيضاً، وقد ساعد هذا البروفيسور في تصميم نحو ستّة دروب للطبيعة يُسمّيها «دروب التقوية» تُشجّع على المشي والانتباه والتفكير، وتوجد على هذه الدروب لافتات تحمل رسائل مثل «اجلس القرفصاء والمس نباتاً».

وربما لا يوجد أحد أكثر شغفاً بالتطبيب بالطبيعة من الكوريين الجنوبيين، فكثير منهم يعاني إجهاد العمل، وإدمان الأجهزة الرقمية، والضغوطات الدراسية الشديدة، ووفق استطلاع أجرته شركة (سامسونج) فإن أكثر من 70٪ من هؤلاء يقولون إن وظائفهم تُصيبهم بالاكتئاب؛ إذ تشتهر بكونها تتطلب ساعات طويلة من العمل.

وإلى غابة سانيوم للاستشفاء الواقعة شرق العاصمة سيؤول يفد الزائرون الحصريون الذين اجتذبتهم الأشجار المكتسية برداء زاهٍ من الأوراق مُغيّرة الألوان، وكذلك الهواء المنعش، ويتراص بعضهم فوق منصّات خشبية في فسحة وسط الأحراج. كما نجد مجموعة من الرجال يمشون الصّباح في المشي الاستجمامي، ثم يمارسون (اليوغا)، ويدهنون سواعدهم ويدلكونها بزيت الخزامى، ويصنعون لوحات من الأزهار الجافة.

وتعدّ غابة سانيوم واحدة من ثلاث غابات مخصصة رسمياً للاستشفاء في كوريا الجنوبية، ومن المزمع تخصيص أربع وثلاثين غابة أخرى للغرض نفسه في أفق عام 2017، ممّا يعني أن جُلّ المُدن الكبرى ستكون على مقربة من إحداها. وتقدّم جامعة (تشونغبوك) برنامجاً دراسياً ينال فيه الطلبة شهادة «علاج بالغابات» إذ تتوقع دائرة الغابات الكورية أن

تُوظَّفَ خَمْسَمِئَةٍ حَارِسٍ غَابَةِ صِحِّيٍّ فِي السَّنَتَيْنِ الْمُقْبِلَتَيْنِ.

فِيمَا مَضَى كَانَ عُلَمَاءُ (دَائِرَةِ الْغَابَاتِ الْكُورِيَّةِ) يُجْرُونَ بُحُوثًا عَلَى مَحْصُولِ غَابَاتِهِمْ مِنَ الْخَشَبِ؛ أَمَّا الْيَوْمَ فَهُمْ أَيْضًا يَقْطُرُونَ الزُّيُوتَ الْعِطْرِيَّةَ مِنْ بَعْضِ أَشْجَارِهَا وَيَدْرُسُونَهَا لِيَكْتَشِفُوا قُدْرَتَهَا عَلَى خَفْضِ مُعَدَّلَاتِ هَرْمُونَاتِ الْإِجْهَادِ، وَأَعْرَاضِ الرَّبْوِ. وَبِفَضْلِ السِّيَاسَاتِ الْجَدِيدَةِ فَقَدْ ازدَادَ عَدَدُ زُوَارِ غَابَاتِ كُورِيَا مِنْ 9.4 مِلْيُونِ زَائِرٍ عَامَ 2010 إِلَى 12.8 مِلْيُونِ زَائِرٍ عَامَ 2013.

إِنَّ التَّفَاعُلَ مَعَ الطَّبِيعَةِ هُوَ عِلَاجٌ لَا يَحْمِلُ أَيَّ آثَارٍ جَانِبِيَّةٍ، وَيُمْكِنُهُ تَحْسِينُ وَظَائِفِكَ الْإِدْرَاكِيَّةِ بِلَا أَيِّ تَكَالِيفٍ مَادِيَّةٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَفِي الْمُحْصَلَةِ إِنَّنَا نَخْرُجُ إِلَى الطَّبِيعَةِ لَا لِأَنَّ الْعِلْمَ يُخْبِرُنَا بِأَنَّ لَهَا تَأْثِيرًا مُعَيَّنًا فِينَا، بَلْ بِسَبَبِ مَا تُثِيرُهُ فِينَا مِنْ أَحَاسِيْسٍ وَمَشَاعِرٍ.

كيف نحيا بلا بلاستيك؟*

عندما أشرق عصر البلاستيك في عام 1907 انفتح عالم جديد في حياتنا؛ فقد أتاح البلاستيك صنع أشياء كثيرة، من أكواب الأطفال المقاومة للكسر إلى قطع الآليات الحربية. فأقبل العالم على البلاستيك بشراهة لتعدد استعمالاته ومتانته، وهما الصفات اللتان أدخلتنا في الأزمة التي نعاني منها حالياً. قيل في حسناته إنه «يدوم إلى الأبد» فليست هناك كائنات حية قادرة على هضم هذه المواد الاصطناعية المعقدة التي تشكلها سلاسل طويلة من حلقات الكربون لا تستطيع الطبيعة تفكيكها، لكن هذه الميزة هي أيضاً مشكلة كبرى؛ فقد يبقى البلاستيك في مطمر أو في الطبيعة آلاف السنين من دون أن يتحلل. «الوحش» ماثل بيننا. لدينا مادة عجيبة، لكنها ذات جانب قاتم، وما زلنا نستخدمها على نطاق واسع مُغيّرين البر والبحر تغييراً دائماً.

ولعلّ حقائق كثيرة أصبحت معروفة على نطاق واسع الآن تؤكد الجانب المظلم من هذه المادة العجيبة؛ فعلى الرغم من أن البلاستيك أدى دوراً كبيراً في الحرب العالمية الثانية؛ إذ تمّ استعماله في كل شيء من المركبات العسكرية إلى المواد العازلة للرادارات، إلا أن الأمر اختلف بعد أن وضعت الحرب أوزارها؛ ففي تلك الفترة بنت شركات البترول مصانع لتحويل النفط الخام إلى (بلاستيك) استجابة لمطالبات الحرب، ولكن، بعد انتهاء الحرب، واجهت صناعة البلاستيك مشكلة تمّ تجاوزها بابتكار أنواع لا تحصى من الاستعمالات الجديدة لهذه المادة.

كما أن إنتاج البلاستيك يستهلك نحو 8٪ من إنتاج النفط العالمي، وأن حوالي ثلاثمئة مليون طن من البلاستيك تُصنع سنوياً ينتهي ثمانية مليون طن منها تقريباً في المحيطات حيث يُتوقع أن يبقى لآلاف السنين، وهو موجود في كل مكان من أعماق المحيطات إلى جليد القطب الشمالي. بالإضافة إلى ذلك فإن البلاستيك الذي يُدفن في مطامر يُمكن أن ترشح منه مواد كيميائية ضارة تتسرب إلى المياه الجوفية.

وثمة بيانات عن أكثر من سبعمئة نوع من الأحياء البحرية ابتلعت قطعاً بلاستيكية، ويتوقع

(*) مجلة البيئة والتنمية، مارس-إبريل 2016 (بصُرْف)

العلماء أن يُعثرَ على البلاستيك في أجسام 99٪ من الطيور البحرية بحلول سنة 2050. وتشكل النفايات البلاستيكية العائمة وسائل نقل لأنواع غازية من الأسماك والديدان والطحالب مما يتسبب في فوضى بيئية؛ فقد عُثر في جزيرة غرب القارة القطبية الجنوبية على عشرة أنواع من اللاقاريات الدخيلة ملصقة بنفايات بلاستيكية على الجليد.

وتقدّر الإحصائيات أن نحو خمسمئة مليون من الأكياس البلاستيكية تستعمل كل سنة حول العالم، أي أكثر من مليون كيس في الدقيقة الواحدة. وأنه تمّ تصنيع كمية من البلاستيك في السنوات العشر الأولى من هذا القرن تزيد على ما تمّت صناعته في كل القرن الماضي. وأن 50٪ من البلاستيك الذي يتم إنتاجه يستعمل مرة واحدة فقط، ثم يرمى ليشكل عبئاً على الأرض لا يمكن التخلص منه لآلاف السنين.

ورغم أن تصوّر حياتنا من دون بلاستيك يبدو أمراً مستحيلاً إلا أنه يبقى هدفاً نبيلًا يسعى إليه الكثير من الناس حول العالم؛ فيحاولون استخدام بدائل صديقة للبيئة، أو أخف ضرراً من البلاستيك، ليخففوا من النفايات البلاستيكية التي تملأ المطامر. وهذه بعض الأفكار التي تستطيع بتطبيقها أن تنضم إلى آلاف النبلاء حول العالم ممن يحاولون باستمرار حماية كوكب الأرض، والعودة بالحياة إلى صورتها الطبيعية بعيداً عن الآثار السامة للتصنيع واستخدام المواد غير الطبيعية:

تجنّب الأنواع السيئة من البلاستيك: إذا تفحصت الجانب السفلي لوعاء بلاستيكي فسترى رقماً من 1 إلى 7 داخل مثلث؛ وأسوأ أنواع البلاستيك هي:

الرقم 3: هو بلاستيك سام جداً، يحتوي على إضافات مثل الرصاص والفثالات، ويستخدم في الأغلفة البلاستيكية الرقيقة وبعض القوارير وأوعية زبدة الفول السوداني ولعب الأطفال.

الرقم 6: يحتوي على السترين وهي مادة سامة للدماغ والجهاز العصبي. ويوجد في الأطباق وأدوات الطعام البلاستيكية التي ترمى بعد الاستعمال، وأوعية الطعام الجاهز.

الرقم 7: يحتوي على ثنائي الفينول ويوجد في معظم بطانات علب الطعام المعدنية وقوارير المشروبات الرياضية، وأوعية العصائر والكاتشاب.

استعمل الأوعية غير البلاستيكية.

استخدم كوباً بلاستيكياً أو زجاجياً، وحاول ألا تستعمل الأكواب البلاستيكية التي ترمى بعد الاستعمال، ضَع وجبة غذائك في وعاء زجاجي. وخذ معك أكياساً يُعاد استخدامها إلى البقالة أو سوق الخضار.

لا تشرب مياهًا مُعبأة: احمل قارورة مياه زجاجية يمكن إعادة تعبئتها، بدلاً من القوارير الجاهزة المُعبأة التي تُسفر عن نفايات بلاستيكية لا يُعاد تدويرها إلا القليل منها.

تسوّق بكمية أكبر: شراء كمية كبيرة من سلعة أو مادة تحتاج إليها يوفر كمية أكبر من التغليف، كما يوفر الوقود الذي تحرقه سيارتك في رحلات إضافية إلى المتجر.

توقف عن شراء العصائر والمرطبات المُعبأة في قوارير بلاستيكية.

يمكن شراء مشروبات غازية في قوارير زجاجية. ومن الأفضل أن تأكل فواكه وتشرب عصائر طازجة، وتستغني عن المشروبات الغازية المليئة بالسكر الإضافي المُضّر بالصحة.

توقف عن مضغ العلكة: مضغ العلكة هو بمثابة مضغ البلاستيك؛ فمنذ الحرب العالمية الثانية توقف استعمال المطاط الطبيعي في صنع العلكة واستُبدل به المطاط الصناعي الذي يحتوي على موادّ يَبْتَ التّجارب أنها تُسبب نمواً ورمياً لدى جرذان المختبر، لكن لم يتم حظرها نتيجة ضغط من الصناعة، وفكر أيضاً أين ستنتهي العلكة بعد مضغها، فهي غير قابلة للتحلل البيولوجي.

تناول (الآيس كريم) في مخروط: تجنب استعمال الأكواب والملاعق البلاستيكية عند شراء الآيس كريم، واختَر - بدلاً من ذلك - تعبئتها في مخروط من البسكويت.

وبعد، فإن ما يمكن لكل واحد منا أن يفعله من أجل أن نسهم جميعاً في حماية أنفسنا وكوكبنا قد يكون أكثر بكثير من كل هذا. ولعلّ أهم ما يمكن أن نقوم به، نشر الوعي بين من نعرف من أفراد أسرتنا وأصدقائنا وزملائنا، وأن نتخذ خطوة واحدة أو خطوات صغيرة بسيطة لتغيير حياتنا نحو التقليل من استخدام هذه المادة العجائبية التي «تدوم إلى الأبد».

المشيء .. آثار إيجابية على الحالة الصحية*

الدكتور أكمل عبد الحكيم

يتعرّض أفراد الجنس البشريّ حاليّاً لوباءٍ من الأمراض غير المُعدية، يعتبرُ مسؤولاً عن أكثر من نصف الوفيات بين البشر، فمن بين سبعة وخمسين مليونَ وفاةٍ بشريةٍ سنوياً، يعودُ السببُ في ستٍّ وثلاثين مليونَ منها إلى مرضٍ أو آخر من الأمراض غير المُعدية، وهو ما يعادل 63٪ من مجمل الوفيات، ومن بين هذه الوفيات يكون النصف تقريباً بين أشخاص لم يبلغوا بعد سن السبعين، وهو متوسطُ العمر المتوقع حاليّاً للإنسان، ممّا يجعل هذا النصف من الوفيات يتّصف بكونه وفيات مبكرة.

والأمراض غير المُعدية ببساطةٍ، هي: الأمراض التي لا تتسبّب فيها عوامل مُعدية، مثل الجراثيم، والبكتيريا، والفيروسات، والفطريات، أو غيرها من الكائنات الحية، كما أنّها لا يمكن أن تنتقل من شخص إلى آخر، وتتضمّن هذه الطائفة من الأمراض - على سبيل المثال لا الحصر - أمراض القلب والشرايين، وأمراض المناعة الذاتية، والسكتة الدماغية، والعديد من أنواع الأمراض السرطانية، والأزمة الشُعبيّة، وداء السكريّ، وأمراض الكلى المزمنة، وهشاشة العظام، والزهايمر، وقنامة عدسة العين، وغيرها.

ورغم أن هذه الطائفة من الأمراض يُطلق عليها أحياناً - خطأً - لقب الأمراض المزمنة، إلا أن طول فترتها ليس الصفة المحددة لها، وإنّما كونها ناتجة عن عوامل غير مُعدية، فبعض الأمراض المزمنة، مثل نقص المناعة المكتسبة أو الإيدز، والذي يستغرق أحياناً سنواتٍ وسنواتٍ حتّى تظهر أعراضه وعلاماته، هو مرض مُعِد.

ورغم أن الأسباب والاضطرابات الفسيولوجية، تتنوّع وتتعدّد بين الأنواع المختلفة للأمراض غير المُعدية، فإنّها تشترك غالباً في وجود عوامل خطيرة، مؤهّلة أو مُساعِدة على الإصابة، عوامل الخطر هذه قد تشملُ العمر، والجنس، أو النوع، والتركيب الوراثية، والتعرّض للملوثات البيئية، بالإضافة إلى بعض السلوكات غير الصحية، مثل التدخين والغذاء غير الصحيّ، وقلة النشاط البدنيّ أو الحركيّ.

(* جريدة الاتحاد الإماراتية، عدد 17 أكتوبر 2013.

وفي ظل حقيقة أن العديد من عوامل الخطر، وخصوصاً المتعلقة بالسلوكيات غير الصحية، من الممكن درء خطرهما، أو على الأقل التقليل من وقعها، ينظر كثيرون لغالبية الأمراض غير المعدية، وما ينتج عنها من وفيات، على أنها أمراض يمكن الوقاية منها، وللوفيات الناتجة عنها على أنها وفيات كان من الممكن تجنبها إلى حد كبير، والمؤسف أن تحقيق هذه الوقاية لا يتطلب استثمارات ضخمة في الأجهزة الحديثة، ولا يحتاج إلى تطبيق أساليب طبية معقدة، مثل الهندسة الوراثية أو زراعة الخلايا الجذعية، بل إلى بعض الإجراءات والتدابير السهلة، والبسيطة، وزهيدة الثمن، وتوضح هذه الحقيقة اتضاحاً جلياً من خلال إجراء بسيط، وسهل، وغير مكلف، مثل ممارسة المشي ممارسة منتظمة على التقليل بشكل ملحوظ من عامل الخطر المرتبط بقلّة النشاط البدني، وما ينتج عنه من أمراض وعِلَل، وهو ما عاد ليؤكدّه تقرير صدر حديثاً عن جمعيتين خيريتين بريطانيتين، الأولى تعمل في تشجيع المجتمع على ممارسة المشي، والثانية توفر الدعم والمساندة لمرضى السرطان.

هذا التقرير الذي يحمل عنوان «المشي يؤدي الغرض» (Walking Works) أظهر أن ممارسة رياضة المشي يمكنه أن ينقذ حياة الآلاف من البريطانيين، أو الملايين حول العالم، ويمكنه أن يحدث تغييراً جذرياً وجوهرياً في حياة الكثير من الناس.

فالمشي، وما ينتج عنه من زيادة في حجم النشاط البدني اليومي، لا يقي فقط من أمراض القلب والشرايين، كالذبحة الصدرية، والسكتة الدماغية، بل يمكنه أن يحقق فارقاً ملحوظاً في الوقاية من الإصابة بداء السكري، وعته الشيوخية من نوع الزهايمر، وكثير من الأمراض السرطانية.

هذه الفائدة الأخيرة -أو الوقاية من الأمراض السرطانية- كانت قد أكدتها مؤخراً دراسة أجراها علماء الجمعية الأمريكية للسرطان، حين أظهرت نتائجها أن المشي لمدة ساعة يومياً، يمكنه أن يحقق قدراً ملحوظاً من الوقاية ضد سرطان الثدي للنساء اللواتي تجاوزن الخمسين من أعمارهن، فمن خلال مسح شمل أكثر من ثلاث وسبعين ألف امرأة، تبين أن من كن يمارسن المشي لمدة سبع ساعات أسبوعياً، كانت معدلات الإصابة بسرطان الثدي بينهن أقل بنسبة 14٪، مقارنةً بالنساء اللاتي كن يمارسن المشي لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات أسبوعياً فقط.

وعلى المنوال نفسه، أظهرت دراسة أخرى أهمية ومثيرة، أنَّ ممارسة رياضة المشي، تعادل في الكفاءة والفعالية، فعالية الأدوية والعقاقير الطبية المستخدمة للوقاية من الوفيات الناتجة عن أمراض القلب، بل أيضًا تزيد في فعاليتها وكفاءتها عن فعالية وكفاءة الأدوية والعقاقير المستخدمة في الوقاية من السكتة الدماغية، وبخلاف الفارق في الفعالية والكفاءة، تتمتع رياضة المشي بانعدام المضاعفات والأعراض الجانبية، مقارنةً بالأدوية والعقاقير الطبية التي لا تخلو من مضاعفات وأعراض جانبية، هذا بالإضافة إلى أنَّ تلك الأدوية والعقاقير تستهدف غالبًا مرضًا أو آخر، بمعنى أنَّ الوقاية من عددٍ من الأمراض، قد يتطلب تناول عددٍ من العقاقير، وهو ما يزيد من احتمالات المضاعفات، ويُرهِق ميزانية المريض، ونظام الرعاية الصحية برُمته، مقارنةً بالمشي، والذي دائمًا ما تكون تكلفته صفريةً مجانيةً.

وأخيرًا، يترك المشي، أو التمشي أثرًا إيجابيًا على الحالة النفسية والذهنية، لا يمكن لأيٍّ من العقاقير أن تبلغه، مما يجعل المشي ضمن أفضل سبل الوقاية من الأمراض غير المعدية.

أتريدون تحسين مزاجكم؟ البستنة قد تكون الحل الأنسب والأوفر بامبلا كسرواني

في عالم متسارع الوتيرة وكثير الضغوط، غالبًا ما نبحث عن طرق جديدة للاسترخاء والهرب حتى لو لبضع دقائق من ضجيج الخارج. كثيرة هي الوسائل التي باتت متوفرة لنا، كالعلاجات البديلة والتأمل و(اليوغا) وغيرها... ولكن، هل فكرتم يومًا بأن مجرد الاهتمام بنباتاتكم المنزلية أو العناية بالحديقة، أو الانخراط بمجموعة «البستنة» له فوائد على صحتكم العقلية والنفسية والجسدية؟

بالفعل ما بات يُعرف بـ«علاج البستنة» أو (Horticulture therapy) باللغة الإنجليزية تحوّل إلى نزعة «علاجية» إذا صح التعبير في مختلف أنحاء العالم. وعلى الرغم من وجود متخصصين في هذا العلاج، وجمعيات ومؤسسات تقدّم هذه الخدمات، فقد تكون «البستنة» في متناول الجميع. بضع نباتات ومرشة ورفش وأسمدة طبيعية و«يد خضراء» لتنمو وتُزهر وتتألق حديقتك... ونفسيّتك!

ما هو «علاج البستنة»؟

أثبتت السنوات أن علاج البستنة فعّال على صحة الإنسان العقلية والنفسية، ولا سيما أنّ هذه المنافع تم توثيقها منذ العصور القديمة. ففي القرن التاسع عشر، كان (د. بنجامين راش)، المعروف بـ«أبي الطب النفسي الأمريكي»، أول من تحدث عن تأثير الاهتمام بالحديقة على الأفراد الذين يعانون من أمراض نفسية. وفي الأربعينيات والخمسينيات، لاقت هذه الممارسة قبولًا كبيرًا في الرعاية التأهيلية لقدامى الحرب في المستشفيات. واكتسب علاج البستنة المزيد من المصداقية، ودمج لاحقًا في مجموعة أوسع من التشخيصات والعلاجات.

أقوال جاهزة:

بضع نباتات ومرشة ورفش وأسمدة طبيعية و«يد خضراء» لتنمو وتُزهر وتتألق حديقتك... ونفسيّتك!

اليوم، يتمّ اللجوء إلى هذا العلاج إلى جانب علاجات أخرى لمساعدة الخاضعين له في تعلم مهارات جديدة أو استعادة مهارات فقدوها.

وقامت مؤسسات خاصة عديدة بهذه الممارسات، مثل «مؤسسة علاج البستنة الأمريكية»، في تحديد أنواع مختلفة من هذه العلاجات، التي تضم جميعها مشاركة «مريض» في نشاطات البستنة، التي يوفرها معالج متدرب.

وهناك «البستنة الاجتماعية» التي تشكّل نشاطاً ترفيهياً متعلقاً بالنباتات والبستنة، من دون تحديد أهداف علاجية، بل التركيز على التفاعل الاجتماعي.

أما «البستنة المهنية»، فهي عنصر أساسي من برنامج «البستنة العلاجية»، إذ تركّز على توفير التدريب الذي يسمح للأفراد بالعمل في هذا المجال، بشكل فردي أو ضمن مؤسسة معينة.

ونجد أنواعاً مختلفة من الحدائق التي تشكّل ساحة ملائمة لعلاجات البستنة. ويقدم كلّ منها منافع محددة. وتغص «حدائق الشفاء» (Healing gardens) بالنباتات الخضراء والأزهار والماء وأشكال طبيعية أخرى، تكون - غالباً - في المستشفيات أو مراكز الرعاية الصحية الأخرى، لتحوّل إلى مكانٍ للخلوة والراحة. وتأتي «حدائق الشفاء» بثلاثة أنواع، الحدائق العلاجية، وحدائق علاج البستنة، والحدائق الإصلاحية، التي تتداخل جميعها بعضها ببعض.

التأثيرات الإيجابية...

يرى عالم النفس المتخصص في علم الأعصاب، (د. ألبير مخير)، أن «علاج البستنة» شبيه بأيّة هواية تساعدنا على «الانفصال» عن واقعنا اليومي، ولا تحمل معها ضغوط «الأداء» الجيد. وبالتالي، تمنح منافع إيجابية. ويقول: «عدا ابتعاد أو انقطاع عن الواقع، يوفر علاج البستنة فرصة الحركة والتمارين التي قد تُحفز الأفراد الذين لا يملكون الدوافع لممارسة الرياضة مثلاً، أو معظم الأفراد الذين يمضون ساعات طويلة جالسين إلى مقاعد مكاتبهم».

يساعد علاج البستنة أيضاً في تحسين الذاكرة والقدرات الإدراكية ومهارات اللغة، والتفاعل مع الآخرين، إضافة إلى تقوية العضلات وتحسين التنسيق والتوازن، والقدرة على التحمل.

وبما أن البستنة تحملكم على التعامل مع النباتات التي تنمو وتنضج ثمارها وتتساقط أوراقها وتذبل، فهي قد تساعد كل من يعاني من صدمة خسارة شخص عزيز على التعامل مع الوضع، وتقبل مجرى الحياة. إضافة إلى أن رعاية النباتات، تساعد الأفراد - خصوصاً الأطفال - في تعلّم أهمية رعاية الآخرين، والاهتمام بالتفاصيل وحسّ المسؤولية.

كما أنها تحفّز الحواس الخمس، خلافاً لمعظم النشاطات الترفيهية الأخرى. فقد أثبتت الدراسات أنها ترفع معدلات «هرمونات السعادة». كيف ذلك؟ التعرض لمساحات خضراء يساعد في تقليص معدلات (الكورتيزول)، أي هورمون الضغوط، الذي يتحكّم بالمزاج والذاكرة والمناعة.

العودة إلى الطبيعة

«الطبيعة هي أفضل إطار لعلاج الصدمات»، أو المشاكل النفسية وضغوط الحياة اليومية المتسارعة، خصوصاً أن معظمنا يمضي ساعات طويلة محتجزاً داخل جدران المكتب، ومن دون أي حركة تُذكر.

ظهر «العلاج البيئي» (Ecotherapy) الذي يُعرفه (د. مخير) بأنه «مجموعة واسعة من البرامج العلاجية التي تهدف إلى تحسين الرفاهية العقلية والجسدية من خلال ممارسة النشاطات الخارجية في الطبيعة».

ولا يقتصر العلاج البيئي على علاج البستنة، بل يتضمن باقة واسعة من الممارسات، كالعلاج بمساعدة الحيوانات أو النشاطات في البرية، أو العمل على التوعية حول أهمية الطبيعة، أو حتى كيفية التعامل مع «أسفنا وقلقنا» حيال ما قام به الإنسان لكوكبنا، وكل التأثيرات على البيئة والمناخ.

إلا أن «علاج البستنة» قد لا يكون الحل الأنسب لكل المشاكل. يقول (د. مخير): «لا يسعنا أن نضع كل العلاجات البديلة في سلة واحدة، ولا بد أن نتجنب الحكم على فعالية وسيلة محددة على مجموعة واسعة من المشاكل النفسية. فهي قد تساعد في بعض الحالات

وتفشل في حالات أخرى». ويعطي مثالاً على الاضطرابات الجسدية، ويوضح: «مضادات (الهيستامين) تساعد الذين يعانون من الحساسية لكنها لن تفيد إذا كنت تعاني من كسر في القدم، الأمر نفسه ينطبق على علم النفس. فالبسطة قد تساعد في تخفيف القلق، ولكنها قد تكون غير فعالة في اضطرابات أخرى».

ويضيف: «بشكل عام، هذه الأنواع من الممارسات، إلا في حال كانت مجرد هواية للاسترخاء، لا بد أن تُستكمل بالعلاجات. فهذا النوع من الممارسات الذي يركّز على الاهتمام سيساعد على تخفيف أعراض القلق أو الاكتئاب، لكن هناك حاجة إلى العلاج النفسي لتغيير الأنماط المعرفية والسلوكية التي قد تكون السبب وراء الاضطرابات الظاهرة».

الروبوتات.. هل تجعل الحياة أسهل

مدى خالد

تمّ ترشيح هذا النص من الطالبتين عائشة راشد أحمد الظنحاني من مدرسة مريح للتعليم الثانوي، وحفصة راشد أحمد الظنحاني من مدرسة الابتهاج للتعليم الأساسي

قد يصبح الإنسان الآلي الذي يشبه البشر في مظهره وسلوكه مشهداً معتاداً في المستقبل القريب، ما يثير تساؤلات مهمة حول وضع تلك الآلات وحقوقها ودورها في المجتمع.

حتى نفهم الأمور في سياقها الطبيعي، سأبدأ بالحديث عن زمن أجدادنا، هم كانوا في عالم ليس فيه حواسيب ولا هواتف ولا كهرباء ولا سيارات، أي باختصار، ليست فيه أي من وسائل الراحة التي نعدّها اليوم من المسلمات. ولطالما سمعنا قصصاً حول وصول أول سيارة إلى المدينة، وكيف أن واحداً في المنطقة أصبح يمتلك مصباحاً كهربائياً في غرفة المعيشة، وكان الأطفال الذين يسكنون في المنطقة يتجمعون عنده لمشاهدة هذه الأعجوبة الحديثة.

لا يستطيع شباب الجيل المعاصر تخيل هذا النوع من المعيشة، لكن الحقيقة أن هذا كان واقع الحياة في البلدان الإسكندنافية قبل بضعة أجيال فقط، ولا أستطيع أن أتخيل كيف كانت جدتي ستصور حياتي الآن. وما يبدو عصياً عليّ الآن هو تصور حياة أحفادي، أي بعد جيلين فقط في المستقبل. لكن بناءً على ما أعرفه اليوم، فإنني على يقين من شيء واحد، وهو أنهم سيعيشون مع (الروبوتات) أو البشر الآليين.

نحن نقرب كل يوم من «عصر الإنسان الآلي»، وهو واقع اجتماعي ستلعب فيه أنواع مختلفة من (الروبوتات)، وخاصة الإنسان الآلي الشبيه بالبشر في المظهر والتصرفات، دوراً مهماً في سلوكنا وتفاعلنا مع الآخرين ومع التقنيات المحيطة بنا، وهناك العديد من الأسباب لهذا الأمر.

في الأيام الأولى (للروبوتات)، كان الناس جميعهم إليها كأدوات تُستخدم بصورة أساسية في خطوط الإنتاج ومستودعات التخزين، لكن تلك النظرة تغيرت في السنوات الأخيرة. فأصبح

من السهل الآن أن نعتبر (الروبوتات) «وسائط»، ويتوقع العديد من العلماء والمفكرين أن تصل الإمكانيات المحتملة لتقنيات (الروبوتات) إلى كل نواحي الحياة البشرية. في «عصر الإنسان الآلي الشبيه بالبشر» ستبقى بعض (الروبوتات) مجرد أدوات، فيما سيصبح بعضها الآخر شركاء وربما أصدقاء.

ماذا عن الرجل الآلي في السياسة والمجتمع؟ هل نتوقع بحلول عام 2045 أن نرى دولاً تحكمها وتدير مؤسساتها (الروبوتات)؟..

توقع تقرير متخصص أن تتحول نبوءات «الخيال العلمي» عن عالم يحل فيه الإنسان الآلي للسياسة وصناعة القرار محل الإنسان العادي بحلول عام 2045.

هل يبدو ذلك قصة من الخيال العلمي؟ ربما، لكن الحقيقة أننا نملك اليوم تقريباً التقنيات اللازمة جميعها لتحويل هذه السيناريوهات إلى واقع، وما علينا إلا جمعها معاً.

لا بد أن نعرف، أنه تم ابتكار (روبوتات) تستطيع تتبع تضاريس الأرض، واختيار طرق بديلة؛ بل إن منها ما يستطيع حمل الإمدادات من الأسلحة والذخيرة وتطهير الأرض من الألغام، والاضطلاع بأعمال الحراسة؛ وما زال العمل جارياً على تطويرها، لتصبح قادرة على اللمس والشم والسمع والتذوق، وكل ما يحسن أداءها، ويزيدها سرعة ومقدرة في إنجاز مهماتها. كما تطمح الولايات المتحدة الأميركية إلى تطوير (روبوت) يحارب في الخطوط الأمامية، ويستطيع تسلق الحواجز، ويسبح تحت الماء، ويراقب (الروبوتات) العسكرية الأخرى.

كما جندت (روبوتاً) كروي الشكل يتدحرج على الأرض، ويستقر على ثلاث قوائم (تليسكوبية)، ويخرج رأسه من فتحة فيه، مستطلعاً المكان المحيط لاكتشاف قوات العدو، فتبادر مستشعرات الحرارة والحركة المزود بها إلى تجهيز أسلحة في داخله، وتصويبها من خلال فتحة أخرى نحو الأعداء.

وكذلك طُورت (روبوتات) لتلائم الطبيعة، وتغوص في المحيطات، لتدمير الألغام البحرية. كما أن بعض العلماء يحاول تطوير جندي على هيئة (روبوت) صغير جداً، يستطيع الزحف والوثب والطيران فوق حقول الألغام وفي الصحراء وعلى الشواطئ، ليتجسس على العدو،

ويزيل الألغام، ويكتشف الأسلحة الكيميائية.

وقد أنتج (روبوت) ميكروهوائي بحجم ذبابة، خصص (البتاغون) لتطويره مبلغ 60 مليون دولار. وتستطيع هذه الذبابة حمل مصوّرات لمراقبة جنود الأعداء أو اصطيادهم وقتلهم، بواسطة دس السم في أعناقهم.

يمكن (للروبوت) التحدث بعدة لغات، وأن يؤدي دورًا في مجال الحركة والقيادة، وهو لا يحتاج إلى توصيل مباشر بمصدر تغذية خارجي، وإنما يعمل ببطارية قابلة للشحن، ويكتشف ذاتيًا ضعفها فيطلب إعادة شحنها، أو يتجه (الروبوت) نفسه إلى أقرب مقبس كهربائي، حيث يتولى شحنها بنفسه. كما أمكن إنتاج روبوت مزود بخلايا كهروضوئية تتغذى بالطاقة الكهربائية المستمدة من الشمس.

رغم كل هذا الاهتمام والتوجهات العالمية المتزايدة بتكنولوجيا (الروبوت)، إلا أننا لا نجد لها صدى في عالمنا العربي، فما زالت تكنولوجيا (الروبوت) وتطوراتها وآفاقها الواعدة غير مألوفة في عالمنا العربي، وما زلنا نعاني من القصور الشديد في الأخذ بمقومات تطبيق تكنولوجيا (الروبوت)، كما أن الثقافة (الروبوتية) في عالمنا العربي تكاد تكون معدومة، ورغم أن (الروبوتات) لم تعد تدخل ضمن باب الخيال العلمي، إلا أن أفكار بعضنا في عالمنا العربي عنها لا تزال أقرب لأفلام وتصورات الخيال العلمي.

قبل أن تغزو الروبوتات منازلنا، هناك ضرورة عاجلة لإعداد أبنائنا للشورة (الروبوتية) الواعدة، من خلال التوسع في نشر ثقافة (الروبوت) من خلال إدخال علوم (الروبوت) والذكاء الصناعي في مدارسنا وجامعاتنا، وكذلك التوسع في نشر المراكز والنوادي العلمية، وذلك لتأهيل أبنائنا للتعامل مع الروبوتات ومتابعة التطورات السريعة المتقدمة في هذا المجال.

ولكن ربما في العصر الذي سيعيش فيه أطفالنا وأحفادنا سيكون البشر الآليون أكثر من مجرد آلات. وستعلم كيفية إدماجهم في حياتنا اليومية بالسهولة ذاتها التي أصبحت فيها الهواتف الذكية والحواسيب جزءًا من حياتنا العادية اليوم.

صناعة المستقبل حازم الببلاوي

تمّ ترشيح هذا النص من الطالبتين عائشة راشد أحمد الظنحاني من مدرسة مريح للتعليم الثانوي، وحفصة راشد أحمد الظنحاني من مدرسة الابتهاج للتعليم الأساسي

اختلاف النظرة للمستقبل:

كان موقف الإنسان من المستقبل دائماً بالغ الغموض والحيرة إذ تراوح بين التفاؤل والتشاؤم من ناحية وبين العجز والقدرة من ناحية أخرى ومع ذلك فإنه يبدو أن أحد مكتسبات العصر الحديث هو ثقة الإنسان في نفسه وفي مستقبله وأنه بدأ يعمل من أجل المستقبل ويخطط له وهكذا فالمستقبل لم يعد قدراً محتوماً أو كتاباً مغلقاً بقدر ما هو نتيجة للإعداد والترتيب.

سبب اهتمام الإنسان بالمستقبل:

واهتمام الإنسان بالمستقبل راجع في جزء منه إلى زيادة قدرات الإنسان وبالتالي تأثيره على بيئته ففي الماضي البعيد وقف الإنسان عاجزاً أمام قوى الطبيعة التي شكلت حياته وظروفه ومن هنا فقد كان التغيير محدوداً فهو يخضع لناموس طبيعي قل أن يتغير وبالتالي فقد تغير نمط حياته على الظروف الجوية واختلاف الفصول وطبيعة البيئة المحيطة به والتي قل أن تتغير ألا عندما تقع الكوارث الطبيعية من فيضانات أو زلازل أو أعاصير أو امراض وهكذا.

النظرة القديمة للمستقبل:

فقد كانت نظرة الإنسان إلى المستقبل هي نظرة الخوف والترقب من أهوال ومصائب الطبيعة أما ما عدا ذلك فإن العادة والتقاليد كقيلة بترتيب أمور الحياة من الرعي أو الصيد أو في الزراعة فمع ركود المجتمعات وبطء التغيير لم تقم الحاجة إلى الإعداد للمستقبل الذي لم يخرج عن استمرار وتكرار للحاضر والماضي فالوقت يمضي والزمن لا يتغير.

الثورة الصناعية تغير النظرة للمستقبل:

و مع زيادة قدرة الإنسان على التأثير في البيئة خاصة مع الثورة الصناعية لم يعد المستقبل مجرد تكرار للماضي فتعدد وتنوع وسائل الإنتاج واكتشاف الجديد من المناجم أو المعادن

والتعرف على بلاد جديدة واتساع قاعدة التجارة والمواصلات كل ذلك فتح باب التغيير فاختلف اليوم عن الأمس ولم يعد الغد مجرد صورة لليوم.

ضرورة الاهتمام بالمستقبل والتخطيط له:

والاهتمام بالمستقبل هو تعبير عن إدراك قوى التغيير والتجديد فما حاجتنا إلى الإعداد للمستقبل إذا لم تكن هناك احتمالات للتغيير وهكذا بدا النظر إلى المستقبل نظرة جديدة مع التغيير المستمر في ظروف الحياة وقواعد الإنتاج وحاجات الأفراد والجماعات.

التغيير سر الاهتمام بالمستقبل:

فالوعي بالمستقبل والاهتمام به هو وليد التغيير المستمر الناشئ عن الزيادة المطردة في سيطرة الإنسان على بيئته وهكذا أدى تحرر الإنسان من ربة وعبودية الطبيعة كما ساعدت سيطرته عليها وتسخيرها له إلى فتح آفاق متعددة للمستقبل مما أوجب الاهتمام به والإعداد له.

الوعي بالمستقبل كحقيقة مستقلة إنما هو نتيجة للاعتراف بإمكانات التغيير فبدون تغيير لا معنى للمستقبل ولا قيمة للتاريخ وكل ما هناك هو صور متكررة ومعادة للقصة نفسها لا فرق بين ماضي وحاضر ومستقبل سوى مرور الوقت.

الإنسان كائن ذو حضارة وتاريخ:

ومن هنا كان الإنسان ذا حضارة وتاريخ لأنه استخدم الوقت المتاح في إجراء التغييرات والتجديدات في ظروف حياته ونشاطه وللسبب نفسه لم تعرف مملكة النحل أو النمل مثلاً تاريخاً أو حضارة لأنها رغم تنظيمها الاجتماعي المتقدم فإنها لم تعرف تغيراً أو تطوراً ولنفس السبب فإنها ليست في حاجة إلى الإعداد للمستقبل أو صناعة الحضارة وهذا شأن الجماعات.

وتثير قضية صناعة المستقبل مشكلة التخطيط والإعداد للمستقبل فإذا كان من الصحيح -وهو صحيح- أننا نختار المستقبل بأفعالنا فإننا في حاجة دائمة ومستمرة للتخطيط والإعداد للمستقبل.

مركز اتصال وزارة التربية والتعليم
اقتراح - استفسار - شكوى



80051115



04-2176855



ccc.moe@moe.gov.ae



www.moe.gov.ae